

تأملات قرآنية

دلالة
الوقت والزمان
في آيات القرآن
الجزء الثاني : أمس واليوم والغد

إعداد

الدكتور / حسين عبد الحميد أحمد البر
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الحمد لله * علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أمرنا بتلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته واستنباط معانيه ، وأشهد أن نبينا محمدا عبد الله ورسوله ، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، فجزاه الله عنا أفضل ما جرى نبيا عن أمته ورسولا عن قومه ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

ثم أما بعد : فإن من يتتبع حديث القرآن الكريم عن الوقت والزمان يجد أنه يتناوله في صور ثلاث : فهو إما أن يذكر الفترة الزمنية الثابتة في الحياة طالت أو قصرت والتي ترتبط بها أحداث الحياة وهو ما يسمى بالوقت ، فيذكرها بمسماها دون التطرق لأجزائها ولا مدتها مثل ذكر الليل والنهار والصباح والمساء والإشراق والضحي والظهرية والعشي والبيات وغيرها ، وقد جاء ذكرها عاما في القرآن الكريم دون التطرق لجزئياتها في مواطن كثيرة

وإما أن يتحدث عن تفصيل الوقت بذكر جزء محدد ومدة من الزمان تطول أو تقصر حسب المراد منها ، ومثال ذلك : ذكر اللحظة والساعة واليوم والشهر والحين والحوال وغيرها .

وإما أنه يتناول لفظا يدل على الزمن مجردا من الجزء أو الفترة ولا يعرف مدلوله إلا بما ارتبط به مثل الأبد والأجل والموعود والميعاد والدلالة على القبلية والبعدية والقرب والبعد في الزمان وغيره .

** وقد وفقني الله تعالى للحديث عن الوقت والزمان في القرآن الكريم تحت عنوان : " دلالة الوقت والزمان في آيات القرآن " وقسمته إلى

عدة أقسام أفردت لكل قسم منها بحثاً مستقلاً مع ارتباطه بالأقسام الأخرى ، وتناولت في الجزء الأول حديث القرآن عن الأوقات المختلفة في الليل والنهار وكان تحت عنوان : " الصباح والمساء في القرآن الكريم " وذكرت فيه تقسيم أوقات الصباح وتعبير القرآن الكريم عن الصباح بألفاظ واشتقاقات ودلالات مختلفة ، مع ذكر أجزاء الصباح بالتفصيل كالغجر والغدو والبكرة والإشراق والضحي والظهيرة ، ثم تناولت حديث القرآن عن المساء بأجزائه المختلفة كالرواح والأصيل والغروب والعشي والبيات والسحر وتعرضت لبلاغة القرآن الكريم في عرض ذلك كله بما يشعر الناس بقيمة الحياة وقيمة الوقت فيها حتى يبادر الناس إلى العمل ، وكان التناول حسب التقسيم التالي :

التمهيد : في تعريف الوقت والزمان والعلاقة بينهما

الباب الأول : الصباح ودلالته التفسيرية في القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول: تعريف الصباح وحقيقته في لغة العرب والقرآن الكريم

الفصل الثاني : الأوقات التي يشتمل عليها الصباح ودلالاتها في

القرآن الكريم ، ويشتمل على :

المبحث الأول : الغجر

المبحث الثاني : البكرة والإبكار

المبحث الثالث : الإشراق

المبحث الرابع : الغدو

المبحث الخامس : الضحي

المبحث السادس : الظهيرة

الفصل الثالث : دلالة خروج الصباح عن معناه في القرآن الكريم

الباب الثاني : المساء ودلالته التفسيرية في القرآن الكريم . ويشتمل

على تمهيد وستة فصول :

التمهيد : في تعريف المساء

الفصل الأول : الرواح

الفصل الثاني : الأصيل

الفصل الثالث : الغروب

الفصل الرابع : العشي

الفصل الخامس : البيات

الفصل السادس : السحر

ثم الخاتمة

****** وهذا هو الجزء الثاني من أسماء الأوقات في القرآن الكريم ، وقد خصصته للحديث عن مطلق الوقت بأقسامه الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل والتي عبر القرآن الكريم عنها بألفاظ الأمس واليوم والغد ، وجعلته تحت عنوان : " الأمس واليوم والغد في القرآن الكريم " واشتمل بتوفيق الله تعالى على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ، كما يلي :

مقدمة البحث

الفصل الأول : الأمس الماضي في القرآن الكريم

الفصل الثاني : اليوم الحاضر في القرآن الكريم

الفصل الثالث : الغد المنتظر والمستقبل في القرآن الكريم

الخاتمة : وتشتمل على نتائج البحث .

وراعيت بتوفيق الله ﷻ أن يكون تناول بعبارة سهلة ميسورة ، وأن أتناول الموضوع بما يتفق مع أقوال المفسرين ولغة العرب بغير تكلف ولا تعسف ولا خروج عن مقتضى الآية والهدف الأسمى وهو تحقيق الهداية بالقرآن الكريم ، وقد اعتمدت في منهج الكتابة أن تكون الآيات القرآنية برسم المصحف ، واجتهدت في تخريج الأحاديث الواردة في البحث من مصادرها المعتمدة من كتب السنة ، وختمت البحث ببيان المصادر التي اعتمدت عليها في إعداده ، راجيا من الله التوفيق والسداد والأجر والقبول والله ولي التوفيق ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباب الثاني أزمنة التاريخ في القرآن الكريم

الوقت الدالُّ على الماضي والحاضر والمستقبل

والمقصود بهذا الباب ذكر الأوقات والأزمنة التي يؤرخ الناس بها لحياتهم وأمور دنياهم ، وهو ينقسم بين ماض فات وانتهى ويعبر عنه بالأمس وهو اليوم الذي يسبق اليوم الحاضر في الزمان ، وحاضر يعيشونه ويعبر عنه باليوم وهو الوقت الحاضر الذي يجري فيه الحدث ، ومستقبل ينتظرونه ولا يعرفون ما يكون فيه ويعبر عنه بالغد وهو اليوم الذي يلي اليوم الحاضر في المستقبل ، ومن ثم سأتناول هذا الباب في ثلاثة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : الأمس الماضي في القرآن الكريم

الفصل الثاني : اليوم الحاضر في القرآن الكريم

الفصل الثالث : الغد المنتظر والمستقبل في القرآن الكريم

وتفصيل ذلك فيما يلي :

الفصل الأول الأمس

أمس : وهو الماضي من الزمان الذي وقع فيه الحدث وانتهى ، وأصله من الإمساء الذي هو مصدر أمسى ، ومعلوم أن المساء يطلق على ما كان من آخر النهار والليل ، ويعرف به الوقت الماضي ، ويعبر عنه أيضاً بالبارحة وأصلها من برح إذا زال ، فأطلقت على الليلة الماضية ، ويزيد عليها الأمس في أنه يطلق على اليوم والليلة وعلى الماضي مطلقاً .

وهو من ظروف الزمان مبني على الكسر إلا أن ينكر أو يعرف ، وربما بني على الفتح ، والنسبة إليه إمسي على غير قياس ، والعرب تقول : كلمتك أمس وأعجبنى أمس يا هذا ، وتقول في النكرة : أعجبنى أمس وأمس آخر ، فإذا أضفته أو نكرته أو أدخلت عليه الألف واللام للتعريف أجريته بالإعراب ، تقول : كان أمسنا طيباً ورأيت أمسنا المبارك ومررت بأمسنا المبارك ، ويقال : مضى الأمس بما فيه ، وتقول : ما رأيته منذ أمس فإن لم تره يوماً قبل ذلك قلت : ما رأيته منذ أول من أمس ، فإن لم تره يومين قبل ذلك قلت : ما رأيته منذ أول من أول من أمس .

وقد تدخل اللام والألف على أمس ويبقى على كسره لأن أصل أمس من الإمساء فسمى الوقت بالأمر ولم يغير لفظه ؛ ويقولون إذا نكروه : كل يوم يصير أمساً ، وكل أمس مضى فلن يعود ، ومضى أمس من الأموس

ولا يصغر أمس كما لا يصغر غد والبارحة وكيف وأين ومتى وأي وما وعند وأسماء الشهور والأسبوع غير الجمعة ، وإنما امتنع تصغير الأسبوع عند النحويين لأن المصغر إنما يكون صغيراً بالإضافة إلى ما له مثل اسمه كبيراً ، وأيام الأسبوع متساوية لا معنى فيها للتصغير ، وكذلك

غد والبارحة وأسماء الشهور مثل المحرم وصفر (١).

وقد ورد هذا اللفظ أربع مرات في القرآن الكريم على الوجه التالي :

أولاً : ما يرادُ به اليومُ السابقُ مباشرة

بمعنى أن يذكر لفظ الأمس ويراد به اليوم الذاهب قبل اليوم الحاضر الذي يكون فيه الكلام ، كما جاء في قصة موسى عليه السلام حينما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها وكان خائفاً من فرعون وجنوده فوجد في المدينة رجلين يقتتلان أحدهما من شيعته ومن قومه والآخر من شيعة فرعون ومن عدوه فساعد موسى عليه السلام الرجل الذي من شيعته فوكر القبطي بيده ففضى عليه فمات فعاتب موسى نفسه واستغفر الله وسأل الله ألا يكون ظهيراً وعوناً للمجرمين ، فبات وأصبح وهو يترقب الأخبار خوفاً من أن يعرف أمره ، فكان ما قاله الله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي آسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ حتى يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ (القصص ١٨-١٩) .

* ومعنى الآية أن موسى عليه السلام لما أصبح في المدينة خائفاً يترقب حال القوم فوجيء بالرجل الذي استغاثه بالأمس يستصرخه ويستغيثه مرة أخرى هذا الصباح ، فأنبه موسى وعاتبه وقال له : إنك لغوي تريد الغواية وتهوى المشاكل والصدام وهذه صفة واضحة فيك ، فخاف الرجل من موسى حينما عاتبه أن يمد إليه يده وهو الذي عاين أثر هذه اليد بالأمس فصاح وقال له : أتريد أن تضربني بيدك فتقتلني كما قتلت الرجل بالأمس

(١) - انظر مختار الصحاح ١٠ ولسان العرب ٨/٦-١٠ .

وسمع القبطي ما قال الرجل لموسى فشاع الخبر في المدينة حتى خرج منها نبي الله لما أراد الله له من الخير والكرامة بعد ذلك .

**** والشاهد في الآية ذكر الأمس مرتين في وصف الرجل الذي يستنصره أنه هو الذي استنصره بالأمس ، وفي وصف القتل أنه قتل رجلا بالأمس ، ولا أقصد بالوصف الصفة النحوية وإنما أريد ذكر الحدث مرتبطا بالوقت أي وقت الاستنصار ووقت القتل ، والمقصود به اليوم السابق لليوم الجاري فيه الاستنصار وهذا الحوار مباشرة ، والدليل على ذلك التعبير بالإصباح وبـ " إذا " الفجائية ، وبدليل حالة الترقب التي كان عليها موسى عليه السلام قبل أن يضرب الرجل فيقتله ، وبدليل أن موسى عليه السلام نهر الرجل واتهمه بالغواية وإثارة المشاكل، فكل ذلك يدل على أن اليومين متتاليان ، والله أعلم^(١).**

ثانيا : ما يدل على مطلق الزمن الماضي

وقد يأتي لفظ الأمس في القرآن الكريم ويراد به الماضي مطلقا ودون تحديد لليوم السابق ليوم الكلام أو ما قبله ، بل يراد بها الزمن الماضي مطلقا وإن غلب على الزمن القريب مثل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ

الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأُزِينَتْ وَطَرَبَ أَهْلُهَا أَهْبَمَ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا آتْنَهَا أَمْرًا

لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبِ بِالْأَمْسِ ﴾ (يونس ٢٤) .

ومعنى الآية أن الله تعالى يضرب مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجته الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء ، مما يأكل الناس من زرع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من آبٍ وقضبٍ وغير ذلك ﴿ حَتَّى إِذَا

(١) - انظر القصة في تاريخ الطبري ٢٣٤/١ والبداية والنهاية ٢٤١/١-٢٤٢ .

أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرَفَهَا ﴿ وَزَيْنَتْهَا الْفَانِيَّةُ ﴾ ﴿ وَأَزَيَّنَتْ ﴾ وَحَسُنَتْ بِمَا خَرَجَ مِنْ رَبَّاهَا مِنْ زَهْوَرِ نَضْرَةِ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا ﴿ أَنَّهُمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا ﴾ وَعَلَى جَدَاذِهَا وَحَصَادِهَا فَبَيْنَاهُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، أَوْ رِيحٌ بَادِرَةٌ أَوْ أَيُّ جَائِحَةٍ أَوْ يَطُوفُ عَلَيْهَا مِنَ اللَّهِ طَائِفٌ فَأَيَّسَتْ أَوْرَاقَهَا وَأَتْلَفَتْ ثَمَارَهَا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَتَنْهَأُ امْرَأَتًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا ﴾ يَبْسَا بَعْدَ الْخَضِرَةِ وَالنَّضَارَةِ ﴿ كَأَنَّ لَمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ ﴾ أَيُّ: كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حَسَنَاءَ أَوْ كَأَنَّ لَمْ تَنْتَعَمْ قَبْلَ ذَلِكَ (١) .

** والشاهد قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّ لَمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ ﴾ ومعناه أي

فيما قبل إتيان أمرنا بزمان قريب فإن الأمس مثل في ذلك .

قال أبو حيان : (والأمس مثل في الوقت ، كأنه قيل : كأن لم تغرب أنفاً وليس الأمس عبارة عن مطلق الوقت ، ولا هو مرادف كقوله : أنفاً لأن أنفاً معناه الساعة ، والمعنى : كأن لم يكن لها وجود فيما مضى من الزمان ولو أن قائلًا قال في غير القرآن : كأن لم يكن لها وجود الساعة لم يصح هذا المعنى ، لأنه لا وجود لها الساعة ، فكيف تشبه وهي لا وجود لها حقيقة بما لا وجود لها حقيقة ؟ إنما يشبه ما انتفى وجوده الآن بما قدر انتفاء وجوده في الزمان الماضي ، لسرعة انتقاله من حالة الوجود إلى حالة العدم ، فكان حالة الوجود ما سبقت له (٢) .

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ٤١٤/٢ والطبري ١٠١/١١-١٠٣ والقريطي ٣٢٧/٨ .

(٢) - البحر المحيط ١٤٥/٥-١٤٦ وانظر : الكشف ٣٢٥/٢ وتفسير أبي السعود ١٣٧/٤

وروح المعاني ١٠١/١١ .

وقال ابن عادل : (﴿ بِالْأَمْسِ ﴾ المرادُ به : الزَّمنُ الماضي ، لا

اليوم الذي قبل يومك؛ كقول زهير :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِّ

لَمْ يَقْصِدْ بِهَا حَقَائِقَهَا ، والفرقُ بينَ الأَمْسَيْنِ : أنَّ الذي يُرَادُ به قبل
يومك مَبْنِيٌّ لِنَتِصُّمْنُهُ معنى الألف واللام ، وهذا مُعَرَّبٌ تدخل عليه « أَلْ »
ويضاف (١) .

*** والمقصود من ذكر الأَمْسِ بهذا المعنى في مثل الدنيا الدلالة على
تفاهة الدنيا وسرعة زوالها من ناحية وللفت أنظار المخاطبين إلى أن ما
مضى من الحياة لا قيمة له إلا بما يبقى مع صاحبه من خير قدمه لنفسه ،
لأن الحياة الدنيا بكل زخرفها ومتاعها متى مضت فإنها لا قيمة لها وكأنها
لم تكن ، وهذا المعنى يدعو الله به المؤمنين إلى الصبر على شدائد الحياة
وما فيها من ابتلاء ومحن فكله إلى زوال ، ولو علموا ما ينتظرهم في
غدهم فستهنون عليهم هذه الدنيا بجلوها ومرها ، وما هي بكل ما فيها من
متاع ونعيم وزخرف وزينة إلا كأمس الذاهب ماذا بقي منه وماذا بقي من
أثر المتاع فيه .

* وهذا ما يلاحظه الإنسان فيما مضى من عمره فإن الإنسان لا يجد
في فمه طعم ما أكله بالأمس القريب فكيف بالأمس البعيد وكيف بما كان في
الأعوام والعقود الماضية ، وكذلك لا يشعر الإنسان بألم ما كان قد أصابه
وعافاه الله منه ، كل ذلك مضى وزال ، وزال أثره بزوال أيامه وبقيت منه
ذكرى فقط ، حتى الذكرى لا تكون فيما مضى كله فكم أسقطت الأيام من
ذاكرة الناس الكثير من الآلام والآمال والأتراح والأفراح والأحزان

والجراح ولا ترد للإنسان على خاطر ولا بال .

* وهكذا الحياة الدنيا كلها تمر بجلوها ومرها كأنها ما كانت وكان الذي تنعم ما تنعم وكان الذي تعب وابتلي ما تعب ولا عانى ولا كابد حتى إن الرسول ﷺ ضرب مثلاً لذلك في الآخرة فقال ﷺ :

" يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟

فَيَقُولُ : " لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ " وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيَقَالُ لَهُ : " يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ " فَيَقُولُ : " لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ " (١) .

وإنما يقول الله هذا ليتذكر الإنسان ويتعظ ويعرف قدر الدنيا التي يتمسك بها ويلهث في طلبها ويتقاتل مع الناس من أجلها ويخالف شرع الله فيسرق ويختلس ويرتشي وينتهب ويغتصب ويرتكب المحرمات ثم هو يمضي إلى النار غير مأسوف عليه ويجد أن الدنيا بأسرها لا تساوي غمسة واحدة في نار جهنم ، كما أن بؤس الدنيا كله لا يساوي غمسة واحدة في جنات النعيم ، تلك حقيقة الدنيا فليُنظر الإنسان أين هو منها !

** وقد جاء ذكر الأمس على هذا المعنى مرة أخرى في القرآن الكريم ومتطابقاً مع المعنى السابق المفهوم من مثل الدنيا في قصة قارون وكان الله يقول : هل رأيتم في الدنيا أنعم ولا أرفه ولا أكثر مالا من قارون ، ومع ذلك فقد مضى بماله ومتاعه ونعيمه غير مأسوف عليه إلى نار جهنم حتى إن غمسة واحدة في النار تنسيه كل ما كان يتعالى ويتباهى ويتفاخر به

(١) - الحديث رواه مسلم في الصحيح ٢١٦٢/٤ كتاب : صفة القيامة والجنة والنار . باب : صَبَغَ أَنْعَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي النَّارِ وَصَبَغَ أَشَدَّهُمْ بُؤْسًا فِي الْجَنَّةِ ..

على الناس ، ومضى كأنه لم يكن وكأنه لم يغب فيها ولم يعش ولم يخرج على الناس في زينته ، وإلا فأين كل هذا ؟ !

* لقد جاء ذكر الأمس في قصة قارون وتعقيبا على ما حلَّ به من الخسف والتكليل حيث تتدم القوم الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مكانه في الغنى والثراء الفاحش ، وأدركوا نعمة الله عليهم بأنهم كانوا فقراء وأنهم لم يكونوا مثل قارون وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ^ط وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (القصص ٨٢) .

* وقد سبق شرح الآية وبيان ما فيها من لطائف^(١) والذي أقف عنده هنا هو التعبير بالأمس في قوله تعالى : ﴿ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ حيث استعمل هنا في مطلق زمن مضى قريبا وليس الأمس الذاهب الذي قبل اليوم بدليل أنهم كانوا في الماضي يتمنون أن يعطيهم الله مثل ما أعطى قارون ، لأن هذا التمني لم يكن يوم الإهلاك والخسف ولا قبله بأيام فقط وإنما كان التمني حاصلًا منهم في الأيام الماضية القريبة من غير تحديد فقد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك ، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة كما قال المفسرون^(٢) وذلك للدلالة على مضيه وكأنه لم يكن ، وما وقع فيه كأنه لم يقع . والله أعلم .

(١) - سبق بيان ذلك في الباب الأول عند الحديث عن الصباح وإطلاقاته في القرآن الكريم .

(٢) - انظر : تفسير النسفي ٣/٣٨٤ والبيضاوي ٤/٢٠٥ والكشاف ٣/٤٣٨ وأبي السعود

الفصل الثاني

اليوم

تمهيد:

اليوم مصطلح معروف مقدارُه من طلوع الشمس إلى غروبها ، وهو النهار في الغالب ، وإنما يستعمل النهار للدلالة على الوقت لثبوته ، ويستعمل اليوم للدلالة الوقت الحاضر وعلى المدة الزمنية ، والجمع أيام . وأصله أيّوم فأذغم ولم يستعملوا فيه جمع الكثرة وأول ما يستعمل فيه لفظ اليوم لمعنى اليوم الحاضر الذي أنت فيه فقالوا : اليوم اليوم ، ثم انتقل المعنى بعد ذلك إلى مرادات أخرى حسب السياق :

فتارة يطلق اليوم ويراد به الكون والأحداث الكائنة فيه فيقال : نعم الأخ فلان في اليوم إذا نزل بنا ، أي في الكائنة من الكون إذا حدثت والعرب تقول الأيام في معنى الوقائع فيقال : هو عالم بآيام العرب ، يريد وقائعها ، وإنما خصّوا الأيام دون ذكر الليالي في الوقائع لأنّ حروبهم كانت نهراً في الغالب ، وإذا كانت ليلاً ذكروها .

وتارة يطلق اليوم على النعم الحاصلة فيه مع ما يقابلها من النقم على الأعداء كما في قوله عز وجل : ﴿ وَذَكَرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۖ ﴾ (إبراهيم ٥) المعنى ذكرهم بنعم الله التي أنعم فيها عليهم وبنقم الله التي انتقم فيها من نوح وعاد وثمود وغيرهم .

ويوم طعان ، ويوماه : يوم نعم ويوم بُؤس ، فاليوم هاهنا بمعنى الدَّهر أي هو دهره كذلك .

والأيام في أصل البناء أيّوم ، ولكن العرب إذا وجدوا في كلمة ياء وواو في موضع ، والأولى منهما ساكنة أذغما إحداهما في الأخرى وجعلوا الياء هي الغالبة ، كانت قبل الواو أو بعدها ، وقالوا : أنا اليوم أفعل

كذا ، لا يريدون يوماً بعينه ولكنهم يريدون الوقت الحاضر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة ٣) .

وتارة يذكر اليوم ويراد به المبالغة والتهويل كقولهم : اليوم يومك يريدون التشنيع وتعظيم الأمر ، ومن قول عمر رضي الله عنه : " السَّائِبَةُ وَالصَّدَقَةُ لِيَوْمِهَا " (١) أي ليوم القيامة ، يعني يُراد بهما ثواب ذلك اليوم .

وقد يطلق اليوم ويُراد به الوقت مطلقاً ؛ ومنه قول النبي ﷺ : " بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرَجِ يَزُولُ فِيهَا الْعِلْمُ وَيُظْهَرُ فِيهَا الْجَهْلُ " (٢)

وأيام الهرج أي وقته ، ولا يختص بالنهار دون الليل .
واليوم الأيَّومُ : آخرُ يوم في الشهر ، ويوم أيَّوم : يومٌ كلُّه طويلٌ شديدٌ هائلٌ ، ويومٌ ذو أيَّايومٍ كذلك ، كما يقال ليلة ليلاء ، وتقول العرب لليوم الشديد : يومٌ ذو أيَّامٍ ويومٌ ذو أيَّاييمٍ لطول شرِّه على أهله (٣) .

وقد ورد لفظ اليوم مفرداً ومجموعاً بمرادات مختلفة في (٤٧٥) خمسة وسبعين وأربعمئة موطناً من القرآن الكريم ، وبيانها في المباحث التالية :

المبحث الأول : اليوم المفرد المجرد عن الوصف والإضافة

المبحث الثاني : مجيء اليوم نكرةً مضافاً أو موصوفاً

المبحث الثالث : يومُ القيامة

المبحث الرابع : الأيام المجموعة في القرآن الكريم

وإليك التفصيل والبيان

(١) - الأثر في مصنف عبد الرزاق ٢٧/٩ ومصنف ابن أبي شيبة ٣٥٧/٤ و٢٨٢/٦ والتمهيد لابن عبد البر ٧٤/٣ .

(٢) - الحديث رواه البخاري في الصحيح ٢٥٩٠/٦ : كتاب الفتن : باب ظُهورِ الفتنِ .

(٣) - انظر النهاية ٣٠٢/٥ ومختار الصحاح ٣١١ ولسان العرب ٦٤٩/١٢-٦٥١ .

المبحث الأول

اليوم المفرد المجرد عن الوصف والإضافة

بمعنى أن يأتي لفظ " اليوم " هكذا مفردا ومعرفا بالآلف واللام وغير موصوف ، ويراد به الوقت وهو على معنيين بيانهما كما يلي :

المعنى الأول : اليوم الحاضر :

وذلك حيث يأتي الكلام في سياق حدث معين وقع في يوم بعينه وكان الكلام حاضرا في نفس يوم وقوع ذلك الحدث يشير إلى ذلك اليوم وما يستتبعه من وقت قد يتم به على التوالي ، كما جاء في قصة نوح عليه السلام مع ولده يوم الطوفان ، قال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ ١١٢ قال سقوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم^١ وحال بينهما الموج فكان من **المغرقين** ﴿ (هود ٤٢-٤٣)

وذلك لما كذب نوحا عليه السلام قومه ولم يجد فيهم نصيح ولا دعوة أمره الله بأن يحمل معه ما أمر به مع المؤمنين في السفينة وأرسل الله الماء من الأرض والسماء فبينما تجري بهم السفينة في موج كالجبال من شدة الماء النازل من السماء والماء المتفجر من الأرض رأى نوح عليه السلام ابنه وكان كافرا فناداه أن يكون معهم فأبى وقال : سأوي إلى جبل أتحصن به فقال له نوح عليه السلام : تعال فاركب وكن مع المؤمنين فإنه أمر الله ولا عاصم منه ولا نجاه إلا لمن يرحمه الله فأبى واشتد الموج ففرق بينهما فكان من **المغرقين**

لأنه كفر بالله ولا نجاة إلا للمؤمنين (١).

* والشاهد معنا قول نوح عليه السلام : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ ﴾ والمراد به

اليوم الحاضر الذي دار فيه هذا الحوار وهو يوم الطوفان ، والطوفان وإن استمر أياما كما جاء في كتب التاريخ والسير إلا أن الله عبر عنه باليوم لأنه مستمر ومتواصل بغير انقطاع ، وقول نوح عليه السلام يريد به الوقت الحاضر ولا يريد به تعداد الأيام ولا مدة الزمن .

** ومثله ما جاء في قصة موسى عليه السلام مع السحرة في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ۚ ﴾ (٣) فاجمعوا كيديكم ثم اتُّوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ ﴿ ٦٤ ﴾ (طه ٦٣ - ٦٤) .

ومقصدهم باليوم يومهم الحاضر الذي يتكلمون فيه ويجتمعون عليه لملاقاة موسى عليه السلام ومنازلته ، فهو وإن استمر حتى كانت المنازلة في يوم الزينة إلا أنهم عبروا عنه باليوم لاتصال الأمر بهم وعليهم ، وذلك أن موسى عليه السلام لما أظهر الآيتين من اليد والعصا رد عليه فرعون ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ ۚ ﴾ (٥) فَلَتَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ ۚ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ ۚ ﴾ (٦) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُخَشِّرَ النَّاسُ ضِحِّي ۚ ﴾ (طه ٥٧ - ٥٩) .

* ولما واعدهم موسى عليه السلام يوم الزينة أرسل فرعون في طلب

(١) - انظر : البداية والنهاية ١٠٢/١-١١٢ وتاريخ الطبري ١١٥/١ والكامل في التاريخ ٢٣/١ وتاريخ الرسل والملوك ٦٨/١ والمختصر في أخبار البشر ٢/١ وغيرها .

السحرة من شتى البقاع للمنازلة ظنا منه أنه سيغلب أمر الله ﴿ فَجُمِعَ
الْسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٨﴾ لَعَلَّكُمْ
تَتَّبِعُونَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٣٩﴾ (الشعراء ٣٨-٤٠) .

وكانت المنازلة في اليوم الموعود والمشار إليه بقولهم : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ
الْيَوْمَ مَنْ آسَئَلَنِي ﴾ لأنه من يستعمل في هذا اليوم فهو الغالب على الدوام
وهو من تكون له الكلمة بعد ذلك ، وكما شاع عند العرب من أقوالهم
وأمثالهم : " هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدُهُ " (١) .

** وكما في قصة طالوت حين قال للذين خرجوا معه من بني
إسرائيل لقتال جالوت وجنوده إنه سيقابلكم في الطريق نهر ماء وكانوا قد
اشتد بهم العطش واشترط عليهم ألا يشربوا منه إلا أن يأخذ الواحد منهم
غرفة بيده يبل بها صداه ، فشرب منه معظمهم لأنهم لا يريدون القتال ،
وبقيت فئة قليلة معه فمضى بهم وتجاوز النهر ومعه الذين لم يشربوا قال
تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (البقرة ٢٤٩) .

فلما نظروا إلى أنفسهم وإلى قلتهم وإلى ما يتوقعونه من جند جالوت
قال بعضهم : لا طاقة لنا اليوم بقتال جالوت وجنوده ، والشاهد أنهم
استخدموا لفظ اليوم للدلالة على الوقت الحاضر الذي هم فيه وقالوا : ﴿ لَا

(١) - انظر : المثل السائر ١٠٩/٢ وجمهرة خطب العرب ١٧٠/١ و٢٠٧ و٢٣٣ و٢٣٥
و٢٣٦ والمستطرف ٣٦٥/١ والبداية والنهاية ٧/٧ وتاريخ الطبري ٣٦٥/١ و٣٦٦
وغيرها .

طَاقَةٌ لَنَا الْيَوْمَ ﴿ ومقصدهم في هذه الرحلة وتلك المعركة المتوقعة بدليل أن الذين آمنوا وصدقوا في إيمانهم تأملوا الخير والنصر في الله وقالوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وسألوا الله الصبر والثبات والنصرة فكانت الغلبة لهم بإذن الله تعالى (١) .

*** وكما جاء في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته يوم أن كشف لهم عن شخصيته فعرفوه ثم اعتذروا منه عما بدر منهم تجاهه فيما مضى من الزمان في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ (يوسف ٩١-٩٢) .

* ويقصد باليوم اليوم الحاضر الذي هم فيه ليكون ذلك أرفق بهم من تأنيب الضمير ومذلة الاعتذار وانكسار النفس من الهوان ، والمراد لا أعيركم بهذا بعد اليوم أبداً ، يقال : ثرّب فلان على فلان : إذا عدّد عليه ذنوبه ، وأشار إلى ذلك اليوم ، لأنه أول أوقات العفو ، وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة ، وذلك أن العتاب يكون أشد في أول أيام التلاقي لأن الغيظ فيه أشد والرغبة في الكلام والعتاب فيه تكون أكثر فإذا امتنع فيه عن المعاتبة وهو مظنة العتاب فسائر الأيام بعده أولى وأكثر عفوا ونسياناً (٢) .

** وكما جاء في قصة السيدة مريم بعد الولادة حيث سيواجهها من يلقاها بالسؤال عن الولد ومن أين لها به ، فعلمت الإجابة في قوله تعالى :

(١) - انظر : البداية والنهاية ٦/٢-٨ وتاريخ الطبري ٢٧٧/١ والقصة في كتب التفسير .
(٢) - انظر : زاد المسير ٢٨٧/٤ والبيضاوي ٣٠٧/٣ والتفسير الكبير ١٨٤/١٨ وروح المعاني ٥٠/١٣ وتفسير النسفي ٢٠٣/٢ .

﴿فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ
 الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (مريم ٢٦) أي فلن أتكلّم لأني نذرت للرحمن أن أصوم
 اليوم الحاضر الذي يتوقع فيه هذا الكلام ، فلن أكلّم فيه أحدا ، والصيام هنا
 بمعناه اللغوي وهو الامتناع عن الكلام ، وإنما خصت اليوم الحاضر بالذكر
 لأن المواجهة ستكون شديدة في أول الأمر وسيسهل الكلام بعد ذلك حينما
 يتكلّم المسيح في المهد وينطق بما جاء في الآيات التالية .

*** ومثله أيضا جاء في قصة أصحاب الجنة في اليوم الذي تقاسموا
 فيه على حرمان المساكين حظهم من الثمر الذي كانوا يأخذونه من جنتهم
 وبستانهم من قبل في قوله تعالى : ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ (١٧) أن لا
 يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ (القلم ٢٤) .

* ومقصودهم باليوم يومهم الحاضر الذي انطلقوا فيه ليصرموا جنتهم
 ويقطفوا ثمارها فلا يبقوا فيها شيئا . فهذا اليوم هو المقصود بالقسم لأنهم
 إذا فرغوا من جذ الثمر فليدخل من شاء أن يدخل من المساكين فلن يحصل
 منها ثمرا لأنهم صرموها عن آخرها .

*** كذلك ما جاء في قصة يوم بدر حينما تبدى الشيطان للكافرين
 في صورة سراقه بن مالك ووعدهم بالنصرة والمساندة في قوله تعالى :
 ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
 النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني
 برئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله^ع والله شديد
 العقاب﴾ (الأنفال ٤٨)

* وكان ذلك حينما خرجت قريش يوم بدر لاستنقاذ القافلة وحرب محمد ﷺ وذلك أنهم لما عزموا على الخروج ذكروا ما بينهم وبين بني كنانة من الحرب فخافوا أن تخرج عليهم كنانة فتبدي لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك المدلجي ، وكان من أشراف بني كنانة فقال لهم : " لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه " فخرجوا والشيطان جار لهم لا يفارقهم فلما تعبوا للقتال ورأى عدو الله جند الله قد نزلت من السماء فرّ ونكص على عقبيه فقالوا : " إلى أين يا سراقه ؟ ألم تكن قلت : " إنك جار لنا لا تفارقنا " فقال : " إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب " وصدق في قوله : " إني أرى ما لا ترون " وكذب في قوله : " إني أخاف الله " وقيل : " كان خوفه على نفسه أن يهلك معهم " .

** والشاهد في قوله : " لا غالب لكم اليوم " ويقصد به اليوم

الحاضر الذي كان فيه هذا الحوار وهم في طريقهم لملاقاة النبي ﷺ في يوم بدر وهو بعدهم ويمنيهم بالنصرة والمدد ، فالمقصود اليوم الحاضر حتى يكون القتال ، وإنما يعبر عنه باليوم وإن استغرق عدة أيام لأنه بدأ ويمتد ويتواصل حتى تنتهي المنازلة فكانه يوم واحد (١) .

*** ويلحق باليوم الحاضر تحديد الوقت الذي يكون فيه المخاطب

حاضرا حضورا آنيا ، وغالبا ما يكون بلفظ الآن ، ويراد به اللحظة التي فيها الخطاب وما بعدها كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا لَئِنْ جِئْتَ

(١) - انظر : السيرة النبوية ٢١٥/٣ والسيرة الحلبية ٣٨٠/٢ وعيون الأثر ٣٢٥/١ ومغازي

الواقدي ١٣٥/١ والروض الأنف ١١٣/٣ والبداية والنهاية ٢٥٩/٣ وزاد المعاد ١٨١/٣ .

بِالْحَقِّ فَذَخُّوْهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُوْنَ ﴿ (البقرة ٧١) .

والكلمة عند المفسرين وعلماء اللغة مركبة من " ال " التي هي للتعريف وكلمة " أن " بمعنى الوقت ، والألف واللام ملازمة للفظ لا تفارقه وهي أيضا لا تعرفه ، إنما ركب اللفظ منهما لإفادة تعريفه بالوقت الحاضر ، واللفظ مبني على النصب على الظرفية ويدل على الوقت الحاضر الذي أنت فيه ، وهو حدُ الزمانين ، حدُ الماضي من آخره ، وحد المستقبل من أوله ^(١) ويقصدون بكلامهم أنه لم يكن يبين لهم قبل ذلك ولكنه بين لهم بالوصف الأخير من أنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ... إلخ ، وكأنهم اهتموا إلى ما قال في آخر مرة بعد مماثلة ومراودة طويلة ، فقالوا : هذا وقت جئت بالوصف الواضح البين .

* ومثلها جاء في توبة الظالمين عندما يعاينون أسباب الموت ويدركون أنه لم يعد لهم في الحياة حظ ولا نصيب حينها يبادرون بالتوبة ظنا منهم أنهم يخدعون الله ، فبين الله أنه لن يقبل توبة هؤلاء أبداً في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء ١٨) .

فالمقصود بقوله : ﴿ الْفَنَ ﴾ أي في هذه اللحظة الحاضرة والكلمة ظرف زمان تدل على الوقت الحاضر وفائدة ذكرها لتعيين الوقت الذي يعلن فيه هذا الغافل توبته حتى يتبين سبب عدم قبولها لأنها توبة المضطر

(١) - انظر : البحر المحيط ٤٢٢/١ وروح المعاني ٢٩١/١ وزاد المسير ٩٩/١ والمحزر

الوجيز ١٦٤/١ واللباب ٣٧٦/١ وروح البيان ٢٠١/١ .

الذي لا حيلة له فهي غير مقبولة ^(١) .

****** ومثله ما جاء من الحديث عن توبة فرعون وتوبة الظالمين حينما

يحل عليهم العذاب فيؤخون ويؤنبون ويقال لهم : الآن ؟ على سبيل الإنكار والتعجب فقد كانت الفرصة متاحة في الحياة مدة طويلة فعاندوا واستكبروا

بل وكانوا يستعجلون العذاب إمعانا في السخرية والاستهزاء بالحق ، قال

تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ بِبَيْنَةٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ

الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَأَلَسْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

﴿ (يونس ٥٠-٥١) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٩٠﴾ ءَأَلَسْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ

قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٩١﴾ (يونس ٩٠-٩١) .

وقوله : " الآن ؟ " أي أفي هذا الوقت وقت المعايبة وحضور العذاب.

****** وجاء التعبير بذات اللفظ في تخفيف الله ﷻ عن المؤمنين في

حال القتال حيث كلف الله ﷻ المؤمنين في أول الأمر أن يثبت الواحد منهم

لعشرة من الكافرين فإنهم إن يكن منهم عشرون مؤمنون صابرون يغلبوا

مائتين من الكافرين ، وإن يكن منهم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، وقد

كان الأمر شديدا على المؤمنين لكنهم لما امتثلوا لأمر الله خفف الله عنهم

فقال تعالى : ﴿ أَلَسْنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ

مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ^٤ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿ (الأنفال ٦٦) .

والمقصود بقوله : ﴿ أَلْتَنَ ﴾ أي في وقت نزول هذه الآية وبعد أن

كان الأمر شديدا ، والمراد في ذلك الآن وما بعده من الزمان .

*** ومثله ما جاء في اعتراف النسوة ببراءة نبي الله يوسف عليه السلام

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ^٥ قُلْنَ

حَدَشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ^٦ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اأَنْتَ خَصَّصَ

الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ^٧ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ (يوسف ٥١) .

* والمقصود بقول امرأة العزيز : ﴿ اأَنْتَ ﴾ أي في هذا الوقت

الحاضر حينما ظهر من أمر يوسف عليه السلام ما ظهر من الصدق والدين

والإحسان وحين برأته النسوة وأظهرن صراحة أنهن ما علمن عليه من

سوء ، ولم يعد يجدي المرأة الإنكار ، وهي التي قالت للنسوة يوما حين

كادت لهن فأطلعتهن من يوسف على ما أعجبها منه حتى قطعن أيديهن لما

رأين فيه من الحسن والجمال وأنكرن أن يكون بشرا كما ذكر الله تعالى من

كلامها : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ^٨ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ^٩

فَاسْتَعْصَمَ^{١٠} وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿

(يوسف ٣٢) فهذا أوان الاعتراف بالحق .

المعنى الثاني : الْوَقْتُ الْحَاضِرُ مُطْلَقًا

وأعني به أن تأتي الآية ويأتي فيها لفظ اليوم للدلالة على عموم الوقت

الحاضر دون أن يكون مقصودا به يوم بعينه أو ساعة بذاتها وإنما يراد به مرحلة من الزمن هي الحاضرة التي يعيشها المخاطبون أو المتكلمون كما جاء في قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة ٣) .

* والمقصود باليوم المذكور أولا في الآية الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية ، على اختلاف في المراد باليوم هل هو يوم عرفة من حجة الوداع أو أنه يوم فتح مكة ، وفي كل منهما يصح أن يقال ذلك لأن الكفار قد يئسوا من أن يغلّبوا الحق وأهله وأن يعودوا إلى سلطانهم على بيت الله وعلى بلد الله الحرام بما كانوا عليه من قبل .

* أما في اليوم المذكور ثانيا فهو يوم عرفة بإجماع المفسرين وقد جاء في الحديث : " أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " إِنَّكُمْ تَقْرَعُونَ آيَةَ لَوْ أَنْزَلْتُ فِينَا لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا " قَالَ : " أَيُّ آيَةٍ " قَالَ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

فَقَالَ عُمَرُ : " إِنِّي لَأَعْلَمُ حَيْثُ أَنْزَلْتُ وَأَيَّ يَوْمٍ أَنْزَلْتُ وَأَيُّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أَنْزَلْتُ بِعَرَفَةَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ واقِفٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ " (١) .

* وكمال الدين وتمام النعمة لا يراد به ذلك اليوم الذي نزلت فيه فحسب وإنما يراد به الكمال والتمام لهذا اليوم وما بعده من الأيام حتى يوم القيامة ، فهو الزمان الحاضر بأسره حتى يومنا هذا وفي كل يوم جديد

(١) - متفق عليه رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وانظر : ٢٥/١ و ١٦٨٣/٤ و ٢٦٥٣/٦ ومسلم ٢٣١٢/٤ : كتاب التفسير : باب ١ .

ومثل ذلك يقال في قوله تعالى : ﴿ اَلْيَوْمَ اُحِلَّ لَكُمْ اَلطَّيِّبَتُ ط وَطَعَامُ الَّذِيْنَ اُوْتُوا اَلِكِتَابِ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ هُمْ ﴾ (المائدة ٥) حيث المراد به اليوم الذي أنزل الله فيه الآية وما بعده من حاضر الزمان إلى يوم القيامة^(١).

** وأطلق اليوم وأريد به الوقت الحاضر دون أن يكون المقصود بذلك تحديد اليوم الذي وقع فيه الحديث والخطاب أو الحوار فحسب في قوله تعالى : ﴿ يَنْقُومُ لَكُمْ اَلْمَلِكُ اَلْيَوْمَ ظَهْرَيْنِ فِي الْاَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اَللّٰهِ اِنْ جَاءَنَا قَالِ فِرْعَوْنُ مَا اُرِيكُمْ اِلَّا مَا اَرَى وَمَا اَهْدِيكُمْ اِلَّا سَبِيلَ اَلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (غافر ٢٩) .

وقد جاء هذا الخطاب من مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه وهو يدعو قومه وينصحبهم باتباع موسى عليه السلام حتى يدوم لهم ما هم فيه من الخير ، وذكرهم بما هم فيه من الملك حاضرا ولعله أن يزول إذا كذبوا نبي الله وجاءهم بسبب التكذيب بأس الله ، ومقصده من قوله : ﴿ لَكُمْ اَلْمَلِكُ اَلْيَوْمَ ﴾ أي في الوقت الحاضر في يومهم الذي هم فيه كما كان في أمسهم وهو لا يدري تحديدا متى سيزول هذا الملك ، فهو تذكير بالنعمة الحاضرة قبل أن يأتي العذاب ويحل بهم الدمار .

** ومثل ذلك ما جاء في قصة يوسف عليه السلام حينما عرف الملك خبره وقصته وما عبّر له من الرؤيا ما يستدل به على عقله وذكائه وفطنته فأراد

(١) - انظر : تفسير البضاوي ٢/٢٩٣ والكشاف ١/٦٣٩ والتسهيل لعلوم التنزيل ١/١٦٨ وتفسير النسفي ١/٢٦٩ والتفسير الكبير ١١/١٠٨ وروح المعاني ٦/٦٠.

أن يستعمله في الإدارة لأنه وجد فيه فائدة وعرف منه الإخلاص والتفاني
قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَمُؤْنِي بِمَثَلٍ هَؤُلَاءِ لِيَنْفُسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ
إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (يوسف ٥٤-٥٥)

* والمقصود من قوله : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي
في الوقت الحاضر هذا اليوم وما بعده ، وليس اليوم الحاضر فقط ، بدليل
أنه طلب منه أن يعمل معه في إدارة البلاد ، لأنه توسم فيه الأمانة والقدرة
على سياسة الأمور ، فقال له نبي الله : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وكان أن جعله على الخزائن حتى أنقذ البلاد من مجاعة
ضربت بالبلاد من حولهم حتى ألجأت أهل البلاد إليهم .

** ومن ذلك ما جاء من الحديث عن موالة الشيطان للكفرة في قوله
تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحل ٦٣)

وقد جاءت هذه الآية في سياق خطاب التسلية من الله تعالى لرسوله
ﷺ ودعوته إلى الصبر فهو يقول له : إن هذه حال جميع من أرسلناهم إلى
الناس وحال الناس معهم أن الشيطان يزين للكافرين سوء أعمالهم ويتولاهم
حتى يمضي بهم إلى العذاب الأليم .

* وقد اختلف المفسرون في المراد باليوم في الآية تبعا لاختلافهم في
عود الضمير في قوله : ﴿ وَلِيُّهُمُ ﴾ فإن عاد الضمير إلى المكذبين من قبل
فالمقصود باليوم اليوم الذي زين الشيطان أعمالهم فيه وذلك في وقت إرسال
الرسول إليهم ، وهو وإن كان ماضياً واليوم المعروف معروف في زمان

الحال كالآن ، لكنه صور بصورة الحال ليستحضر السامع تلك الصورة العجيبة ويتعجب منها ، وسمي مثل ذلك حكاية الحال الماضية ، أو يكون المراد باليوم مدة الدنيا لأنها كالوقت الحاضر بالنسبة للآخرة وهي شاملة للماضي والآتي وما بينهما أي فهو وليهم في الدنيا ، والمعنى أنهم لا ناصر لهم في حياتهم إلا هو ، وإذا لم يكن لهم ناصر غيره في الحياة فهذا دليل على نفي النصرة عنهم من أساسها .

وإن عاد الضمير على المكذبين لرسول الله ﷺ فالمراد باليوم الوقت الحاضر الذي هم فيه حالة كونهم يكذبون ويعاندون ، وكأن الله يقول له : إنهم لا يكذبونك إلا لأن الشيطان زين لهم أعمالهم كما زين للمكذبين من قبلهم فهو وليهم في الوقت الحاضر كما كان وليا للمكذبين من قبل ، فإذا لم ينتفع الأولون بولايته فهو لاء أيضا لا حظ لهم من النصرة والولاية إلا ما كان للسابقين من اللعنة والعذاب .

ونذكر كثير من المفسرين رأيا آخر في المراد باليوم وأنه يقصد به يوم القيامة ، وأن الألف واللام فيه للعهد أي اليوم الموعود وهو يوم القيامة ، وذكره الله بهذه الصيغة لاستحضار صورته كأنه حاضر للعيان في وقتهم الذي هم فيه يخاطبون ويعاندون ، والمعنى : أنه قرينهم يوم القيامة في النار وليبس القرين ! (١) .

المبحث الثاني

مَجِيءُ الْيَوْمِ نَكْرَةً مُضَافًا أَوْ مَوْصُوفًا

ويأتي لفظ اليوم نكرة منونة موصوفا بوصف يعرفه أو يأتي مضافا إلى ما يعرفه ، بحيث يعرف اليوم بيوم كذا بحسب ما وصف به أو أضيف إليه وهو يتنوع في القرآن الكريم بين أيام تقع في الحياة الدنيا لها أحداث ووقائع مشهورة تجعل من التعبير عنها باليوم دلالة على أنه يوم يستحق أن يذكره الخلاق ويتأملوا فعل الله فيه ليأخذوا منه عبرة وموعظة تنفعهم في أيامهم وفي حياتهم ، أو يعبر به عن يوم الموت أو يوم القيامة بكل ما يقع فيه من أحداث ، ويكون التعبير باليوم لتوجيه النظر إلى التأمل فيه وأخذ العبرة والموعظة منه ، ويمكن تصنيف هذه الأيام على ما يلي :

النوع الأول : أيام عامة تتصل بالغيب والخلق

بمعنى أن يأتي ذكر اليوم متصلا بأمر غيبي يتعلق بأفعال الله ﷻ أو بأمر غيبي يتعلق بالخلق والإيجاد ، وجاء في القرآن الكريم من ذلك ما يلي :

(أ) - يومُ الشَّانِ :

وهو يوم جاء في سياق الحديث عن الله ﷻ قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (الرحمن ٢٩) .

والآية تتحدث عن علاقة الخلق بالله وعلاقة الله بهم في كل يوم من أيام الناس في الحياة ، وهذا إخبار عن غناه ﷻ عما سواه وافتقار الخلاق جميعا إليه في جميع الآتات والأوقات ، وأنهم يسألونه بلسان الحال والمقال فهو ﷻ لا يستغني عنه أهل السماء والأرض ، فأهل السموات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه الرحمة والرزق والتوبة والمغفرة ، فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرغ عليه

من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يسموا رائحة الوجود أصلاً فهم في كل أن مستمرين على الاستدعاء والسؤال ، وأنه ﷺ يستجيب لهم كل يوم هو في شأن ^(١) .

* والفائدة من ذكر اليوم نكرة في سياق العموم المفهوم من لفظ " كل " الدلالة على أنه ﷺ لا يغفل عن عبادته لحظة واحدة ، ولا يضيق بخلقه أبداً مهما اختلف السؤل وتنوع باختلاف الخلق وحاجاتهم فهو الصمد الذي يقرع إليه جميع الخلائق على الدوام ، وإنما ربط الله ﷻ الشأن المختلف باليوم لتنبية الناس إلى عظمة الخالق ﷻ لأن مطالب الخلائق لا تنقضي ولا تنتهي وإنما تتجدد بتجدد الأيام عليهم .

وقد انتهى كلام المفسرين في المراد باليوم إلى قولين :

القول الأول : شأنه في يومي الدنيا والآخرة ، وذلك أن الدهر يومان : أحدهما : مدة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ، فشأنه ﷻ في يوم الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب .

والقول الثاني : شأنه في كل يوم من أيام الدنيا .

وفي هذا الشأن الذي أراده في أيام الدنيا قولان :

أحدهما : من بعث من الأنبياء في كل زمان بما شرعه لأمته من شرائع الدين وكان الشأن في هذا الموضع هو الشريعة التي شرعها كل نبي في زمانه ويكون اليوم عبارة عن المدة .

القول الثاني : ما يحدثه الله في خلقه من تبدل الأحوال واختلاف الأمور ويكون اليوم عبارة عن الوقت ^(٢) .

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ٢٧٤/٤ وأبى السعود ١٨١/٨ والطبري ١٣٤/٢٧-١٣٥ والقرطبي ١٦٦/١٧-١٦٧ والدر المنثور ٦٩٩/٧-٧٠٠ وغيرها .

(٢) - انظر : تفسير الماوردي ٢١١/٤ واللباب ٤٥/١٥ والبحر المحيط ١٩١/٨ .

* وشأنه كما جاء في الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين ، ومن شأنه أن يفك غائباً ، أو يجيب داعياً ، أو يشفي سقيماً ، أو يعطي سائلاً ^(١) .

وقد روي أن الآية نزلت بسبب قول اليهود : إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً ، فأراد الله أن يعلمهم ويعلم جميع خلقه أنه لا يتعب ولا يتأذى فيطلب الراحة في السبت وغيره لأنه في حاجة خلقه كل يوم ^(٢) .

* والمقصود من ذكر اليوم كل الوقت ، وإنما عبر باليوم نظراً لتجدد الأيام على الناس فيتجدد انشغال الناس وتتبدل اهتماماتهم وتتشكل أسئلتهم واحتياجاتهم . والله أعلم .

(ب) - يَوْمُ الْعُرُوجِ :

وأقصد به عروج الملائكة من الأرض إلى السماء حيث ورد هذا التعبير في آيتين : أولاهما قال تعالى : ﴿ يُدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُؤُا إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة ٥) .

وهذه الآية تتناول تدبير الله لأمر الخلائق من السماء إلى الأرض حيث تنزل الملائكة بمقادير الخلائق وما دبره الله عليه السلام لهم ، ولكن الذي اختلف فيه المفسرون هو المراد بالعرُوج الذي هو بمعنى الصعود إلى السموات ، فبعضهم يرى أن جبريل عليه السلام ينزل بالوحي ثم يصعد أو الملائكة تنتزل بالأمر المدبر ثم تخرج أو أن أخبار أهل الأرض تصعد إلى

(١) - انظر : صحيح البخاري : ١٨٤٧/٤ كتاب التفسير / باب : سورة الرحمن وسنن ابن ماجه ٧٣/١ والمستدرک للحاکم ٥١٦/٢ و٥٦٥ ومصنف ابن أبي شيبة ١٦٣/٧ والمعجم الكبير للطبراني ١٧٩ / ٩ والأوسط ٢٧٨/٣ و٣٦٢/٦ وفتح الباري ٦٢٣/٨ و٤٩٦/١٣ والآحاد والمثاني ٤٩٦/١٣ وغيرها .

(٢) - انظر : تفسير البغوي ٢٧٠/٤ والنسفي ٢٠٢/٤ وزاد المسير ١١٤/٨ .

الله مع حملتها من الملائكة في يوم مدته خمسين ألف سنة مما يعده الناس على حسب زماننا ووقتنا الذي نعيش فيه ، فالיום في العروج من الأرض إلى السماء يساوي بحسابنا ألف سنة يقطعها الملك في يوم واحد فيكون بين السماء والأرض مسيرة ألف سنة ، فيها ينزل وفيها يصعد .

وقيل : إن الملك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة فيكون مقدار نزوله خمسمائة سنة ومقدار صعوده خمسمائة سنة ، فيكون بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وقيل : إن المقصود بالآية أن الله يدبر من أمر الدنيا في يوم واحد ما يحدث في ألف سنة ثم إذا فقيت دبر في يوم آخر مثله وهكذا فهو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض بدليل قوله تعالى : ﴿ وَابَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (١)

* والشاهد هنا هو التعبير باليوم ، وكأن الله تعالى يريد لنا أن نعرف أن الزمان يختلف من خلق إلى خلق وحسب اختلاف قدرات الخلق فالملائكة تنزل أو تصعد فيما يعده الناس ألف سنة بينما هو يوم إشارة إلى سعة ملك الله تعالى وعظيم خلقه ، وعبر باليوم لأن أقل ما يعرفه الناس من الزمان التام هو اليوم حيث تعرف بدايته ونهايته من النهار والليل ، وجاء في مقابلة بأقصى مدة زمنية يعرفها الناس وجاء ذكرها في القرآن الكريم وهي الألف سنة فلا يعرف العرب أرقاما فوق الألف إلا بمضاعفاته (٢) فذكر الأقل ومضاعفاته بالأكثر إشارة إلى عظيم تدبير الله تعالى وأن أقل شيء عند الله مما هو في حساباتكم يساوي أكثر شيء عندكم في تقديركم ليعلم الخلق كم تسير الملائكة في صعودها ونزولها بأوامر الله في تدبير

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ٤٥٨/٣ والماوردي ٣٤٦/٣ والكشاف ٥١٤-٥١٥ والفسير

الكبير ١٥٠/٢٥ وأضواء البيان ٢٧٨/٥ وزاد المسير ٣٣٣-٣٣٤ وغيرها .

(٢) - انظر : روح المعاني ١٢٠/٢١-١٢١ .

أمر خلقه ليعرفوا عظيم نعمة الله وفضله وحسن اعتنائه ﷻ بهم ورعاية مصالحهم ، ولذلك عقب الله على ذلك بذكر واسع علمه وعزته ومغفرته في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ليعلم الناس أنه برغم هذا الملك الواسع وتلك العزة القاهرة فإنه رحيم بهم يرعاهم ويدبر أمرهم رغم كفرهم وعصيانهم وعدم تقديرهم لربهم بعظمته في ملكه وسلطانه .

*** والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج ٤) .

وقد اختلف المفسرون في متعلق الجار والمجرور ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ حيث ذهب بعضهم إلى أنه متعلق بقوله : ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أي ليس للعذاب الذي أعد للكافرين دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وهو يوم القيامة ، وعليه فالجملة من قوله ﴿ مِنْ أَلْفِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ جملة معترضة ، وبهذا يكون المراد من هذا اليوم يوم القيامة فهو الذي يحل فيه العذاب على الكافرين ، وأيدوا كلامهم بما جاء في السورة من حديث طويل عن يوم القيامة وأن الكافرين يرونه بعيدا بينما هو عند الله قريب ، ثم ذكر الله بعضا من الأهوال والأحداث التي تكون فيه للسماء والجبال وما يحدث بين الخلق من تنافر وتخاصم وما فيه من جنة ونار وهكذا إلى آخر السورة ، وإنما ذكر المقدار بخمسين ألف سنة للدلالة على موقف الحساب والعرض وطول ذلك الموقف ، وإلا فليس لذلك اليوم انتهاء نظرا لخلود أهل الجنة في الجنة

وخلود أهل النار في النار بدليل قول النبي ﷺ : " مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ "

قيل : " يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْإِبِلُ " قَالَ : " وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وَرْدِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرُ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لَا يَفْقَدُ مِنْهَا فَمِيلًا وَاحِدًا تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ "

قيل : " يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ " قَالَ : " وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرُ لَا يَفْقَدُ مِنْهَا شَيْئًا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ وَلَا جُلَحَاءٌ وَلَا عَضْبَاءٌ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطْوُهُ بِأُظْلَافِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ الحديث " (١) .

وذكر هذه المدة الطويلة من باب الترهيب والتخويف حتى ينتبه كل إنسان إلى مصيره فيستعد بحسن العمل حتى لا يطول عليه ذلك اليوم وهذا التقيد بالمدة إنما هو في حق الكفار والفجرة ومانعي الزكاة أما المؤمنون فإنه يخف عليهم ولا يشعرون بطوله لأن منهم من يكون تحت ظل العرش ومنهم من يكون في ظل القرآن ومنهم من يكون في ظل صدقته ومنهم من

(١) - الحديث رواه مسلم في الصحيح ٦٨٠/٢-٦٨٢ كتاب الزكاة/باب إثم مانع الزكاة .

يكون على كثران المسك والكافور وغير ذلك لأنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يهولهم الحساب كما جاء في الحديث .

* وبعضهم يرى أن طوله على المؤمن وعلى الكافر على السواء إلا أن طوله على المؤمن طول فرح وسرور لأنه في ضيافة الرحمن وفي كرامته لا يصيبه الحزن ولا يمسه الألم ، بينما طوله على غير المؤمن ليزداد غمه وتطول حسرته ويشتد كربته ، وإلراجح أن هذا الطول على غير المؤمن بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ فذلك يومئذ يوم

عسير ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (المندر ٨-١٠) .

*** وذهب كثير من المفسرين إلى أن الجار والمجرور ﴿ فِي

يَوْمٍ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ لاتصال الكلام

بها فيكون المقصود بالمدة مدة العروج من الملائكة والروح على اختلاف المفسرين في تعيين المراد بالروح هل هو جبريل عليه السلام وقد ذكره الله بعد ذكر الملائكة من باب التخصيص بعد العموم تأكيداً لشرفه وبياناً لعظيم مكانته عند ربه ، أو أن المقصود بالروح روح بني آدم تعرج إلى بارئها في السموات بعد الموت وهذه المدة المذكورة مدة العروج ، أو أن الروح خلق آخر يشبهون الناس يعلمهم الله ليسوا من الملائكة ولا من الإنس (١) .

وعلى كل فقد اختلف المفسرون في تحديد المراد بهذه المدة وهذا اليوم إلى عدة أقوال (٢) :

القول الأول : إن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤١٩-٤٢٠ وأبي السعود ٩/٣٠ وفتح القدير ٢/٦٨٠ .

(٢) - انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤١٩-٤٢٠ والبغوي ٤/٣٩٣ والبيضاوي ٥/٣٨٧ والتسهيل ٤/١٤٦ والتفسير الكبير ٣٠/١٠٩-١١٠ والمحرر الوجيز ٥/٣٦٥ .

السافلين وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة ، وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة

القول الثاني : إن المراد ما بين العرش وبين أهل الدنيا بحيث لو فرضنا أن أحدا من أهل الأرض سار من الأرض إلى العرش لساوا إليه في خمسين ألف سنة ، بينما يقطعها الروح والملائكة في يوم واحد .

القول الثالث : إن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة ، فالدنيا يوم ، وهو قول ضعيف .

****** وإذا كان المقصود بالعروج في الدنيا فإن هذا يوم ظاهره التعارض بين آية السجدة وهذه الآية ، وقد ذكر الرازي من التوفيق بينهما أن ما بين أسفل العالم إلى أعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة ، ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة لأن عرض كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى فقوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ يريد من أيام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه إلى سماء الدنيا ومقدار خمسين ألف سنة لو صعدوا إلى أعالي العرش ^(١) . والله أعلم .

وعلى كل الأحوال فإن المفسرين اتفقوا على أن معنى اليوم في الآيات هو مطلق الوقت وليس اليوم المعروف بنهار وليل ، وإنما ذكر اليوم والسنين ليقرب الصورة إلى أذهان المخاطبين فخطبهم بما يعرفونه من الوقت والزمان ليستحضروا عظمة الخلق والخالق في نفوسهم بالجمع بين الأقل وهو اليوم والأكثر بمضاعفاته وهو الخمسين ألفا من السنين ، والبشر لا يعرفون غير ذلك والذي أراه - والله أعلم - أن الله ﷻ يريد أن يبين لنا

عظيم اتساع ملكه بين السموات والأرض من جهة وبين قدرته في الخلق من جهة أنه أقدر الملائكة أنها تقطع في يوم واحد ما يقطعه الخلائق في ألف سنة إلى السماء الدنيا وخمسين ألف سنة إلى السموات العلا .

(ج) - يَوْمُ الْخَلْقِ :

حيث ذكر الله أنه خلق السموات والأرض وقدر الزمان الذي سيتعامل به الناس في الحياة ومن جملة الشهور والسنوات فبين أنه قدر السنة التي تكون عليها الحياة بانتي عشر شهرا من الشهور القمرية التي تعرف بالهلال وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (التوبة ٣٦) .

والمقصود باليوم هنا الوقت أي إن ذلك قدره الله في الوقت الذي خلق الله السموات والأرض فيه ، لأن الزمن عُرِفَ بخلق السموات والأرض إذ نشأ الزمن بحركتهما ، وبما خلق الله فيهما من الشمس والقمر وعبر عنه باليوم للإعلام بأن تقدير الشهور كان في ذلك التوقيت وليس متقدما عنه ولا متأخرا ، والمقصود بذلك الدلالة على ثبوت التقدير منذ ذلك اليوم وأن ذلك هو الأصل مهما غير الناس أو بدلوا ، حتى يعرف الناس التوقيت بما ألفوه من ذكر الأيام والليالي خاصة فيما مضى .

(د) - يَوْمُ السَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ :

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَثَمَنًا إِلَى حِينِ ﴾ (النحل ٨٠) .

يعدد الله كثيرا من نعمه على عباده في آيات سورة النحل ليعرفوها فيشكروا الله ﷻ عليها ، ومن جملة هذه الآيات والنعم أنه بسط في الأرض رزقهم وهيا لهم أسباب السعي في لب هذا الرزق وهيا لهم التنقل والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله تعالى فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك ١٥)

* ولما كان الرزق مبسوطا في الأرض فإن الله هيا لعباده سبيل التنقل في هذه الأرض وجعل لهم مستقرا ومأوى هو البيوت يسكنون فيها بعد السعي والحركة ليستعدوا لحركة جديدة في الحياة على حسب ما فطر الله الخلق وجعل لهم الليل والنهار ، ولما كان السعي في طلب الرزق يتطلب من الإنسان في كثير من الأحيان التنقل في الأرض لمسافات بعيدة وكان يتحتم على الخلق السفر والخروج من مقر إقامتهم إلى حيث يبتغون فضل الله فإن الله قسم أيام الناس إلى يوم سفر ويوم إقامة ، فيوم السفر هو اليوم الذي ينتقل الإنسان من موطنه إلى غيره ، ويوم الإقامة هو اليوم الذي يستقر فيه الإنسان في مكان بعينه ، وحتى يتيسر لهم ذلك أكرمهم الله فجعل لهم من جلود الأنعام ما يعد بيوتا متنقلة يحملها الإنسان معه ويخف حملها عليه يوم سفره فإذا أراد أن يستريح ويستقر لفترة نصب خيمته واستكن تحتها من العراء واستتر فيها طلبا للظل والراحة وغيرها .

* فيوم الظعن هو يوم السفر والرحال ويوم الإقامة هو يوم النزول والاستقرار ، والإنسان في حياته ينتقل بين اليومين ، ومن ثم فالمراد باليوم هنا مطلق الوقت ^(١) وليس المراد به يوما بعينه مكونا من ليل أو نهار وإنما

(١) - انظر : التحرير والتنوير ١٠٠/٨ والكشاف ٥٨٣/٢ وتفسير أبي السعود ١٣٣/٥

وتفسير النسفي ٢٦٦/٢ .

يريد الله وقت السفر ووقت الإقامة ، والتعبير باليوم على حسب عادة العرب في التعبير عن الزمان باليوم خاصة إذا كان ماضيا كان الكلام على سبيل العموم بدون أن يراد فيقولون : حدث كذا يوم كذا ، والله أعلم .

(هـ) - الْيَوْمُ الْعَاصِفُ

يريد الله ﷻ أن يبين لنا أن الأصل في الأعمال هو الإيمان بالله وأن مدار قبولها هو الإخلاص والقصد والتوجه إليه ، فضرب لأجل ذلك مثلا يبين لنا أن أعمال الكافرين مهما كانت حسنة ومهما كانت طيبة فإنها لا قيمة لها عند الله ، وأن الله يحبطها ويضيع عليهم ثوابها وأجرها ولا يبقى لهم منها غير الحسرة والندامة ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا

كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلِيلُ الْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم ١٨) .

وهذا مثل في غاية الدقة والبيان فإن أعمال الكفار في الضياع كمثل التراب والرماد الذي تسلطت عليه الريح العاصفة فنثرته عن مكانه وأزالته عنه فلا يجدون من آثار أعمالهم شيئا كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان ٢٣) .

واليوم هنا لا يقصد به يوم بعينه ، وإنما يراد به وقت تعصف فيه الرياح ، وإنما أسند العصف إلى اليوم فوصفه بالعاصف من أن العصف للريح دلالة على استمرار الرياح في الهبوب والعصف ومبالغة في شدتها حتى استغرقت اليوم كله ، والعرب قد تنقل الحدث من الفاعل وتسنده للزمان إذا استغرق الحدث الزمن المذكور كله مبالغة في الدوام والاستمرار كما يقولون : نهار صائم وليل قائم ، وقد تنقل الحدث من الفاعل إلى الحال

مبالغة في التصاق الحال بصاحبه كقوله تعالى في وصف جزاء المؤمن : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة ٢١) والعيشة لا تكون راضية أو كارهة وإنما الذي يرضى عنها هو صاحبها ، لكنه لما كان في غاية الرضا وكان رضاه عن العيشة المذكورة مستغرقا كل زمانه فلا تتأتى عليه لحظة يسخط فيها أو يتبرم صح أن ينتقل الوصف إلى العيشة فيقال : عيشة راضية مبالغة في التمتع وكمال الرضا من صاحبها ، وعندنا في الريف إذا بلغ الضيق بالإنسان مبلغه وأراد أن يعبر عن مدى ضيقه وهمه يقول : رضينا بالهم والهم لا يرضى بنا ، مع أن الهم لا يوصف برضا ولا بسخط إنما ذلك من باب المبالغة ، وعند العرب من هذا كثير .

فلما كان اليوم في الآية محلا للعصف المستمر وصف اليوم بأنه عاصف مبالغة في شدة العصف واستمراره ، أو يكون الكلام على تقدير مضاف أي في ربح يوم عاصف أو أنه ذكر العصف ولم يذكر الريح لسابق الإشارة إليها في نفس الآية (١) .

النوع الثاني : أيام في الأمم الماضية

وأقصد بها ما جاء في القرآن من ذكر لليوم مرتبطا بأحداث وقعت في الأمم السابقة وكان لها وقع كبير في النفوس حتى إن الله ذكرها وشدد عليها من أجل أن يكون للأجيال اللاحقة فيها عبرة وموعظة ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف ١١١) ومن هذه الأيام ما يلي :

(١) - انظر : تفسير البغوي ٣٠/٣ والماوردي ٣٢٧/٢ وزاد المسير ٣٥٤/٤-٣٥٥.

١ - يَوْمُ الضَّيْفِ الْعَصِيبُ :

وهو يوم محنة لوط عليه السلام مع المفسدين من قومه حينما راودوه عن ضيفه قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (هود ٧٧) .

* والشاهد قوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ . ويقصد به اليوم الحاضر .

الذي نزلت عليه الملائكة فيه حيث قال ذلك الكلام وهو لا يدري أنهم الملائكة ، حتى إنه راود أنجاس قومه أن يزوجه من بناته مقابل أن ينصرفوا عنه ولا يخزوه في هؤلاء الضيف ^(١) والدليل على أنه يقصد ذات اليوم أنه أشار إليه بلفظ " هذا " الدال على القرب وفي استخدام اسم الإشارة مع تكثير اليوم ووصفه بأنه عصيب ما يدل على الشدة التي كان فيها والمحنة التي عاناها في ذلك اليوم قبل أن تكشف له الملائكة الأمر .

واليوم العصيب والعصب والعصوب : اليوم الشديد الكثير الشر الملتف بعضه ببعض ، وهو مأخوذ من العصب الذي هو لف الشيء بعضه ببعض كالعصابة التي يلفها الإنسان ويشد بها رأسه أو جسده ، وسُمي اليوم عصيباً لأنه يعصب الناس بالشر ، كأنه عصب به الشر والبلاء أي : حشدوا ، والعصابة : الجماعة من الناس لإحاطتهم إحاطة العصابة ^(٢) .

* ووصف اليوم بالعصيب مع أن اليوم زمن لا فعل له ولا إرادة للدلالة على المبالغة في الشدة كما سبق فإنه لما كانت الشدة والمحنة مستغرقة اليوم كله أو كان يعود أثرها من الضيق والبلاء في اليوم كله صح انتقال الوصف إلى اليوم كما يقال : يوم ثقيل ويوم مزعج .

(١) - انظر : البداية والنهاية ١١٥/١ وتاريخ الطبري ١٧٩/١ وتاريخ الرسل ١١٥/١ .

(٢) - انظر : التفسير الكبير ٢٦/١٨ والماوردي ٢١٤/٢ والمحرر الوجيز ١٩٣/٣-١٩٤ .

٢ - يَوْمُ النَّاقَةِ :

ناقة صالح حيث إنهم عاندوه وكذبوه وطلبوا منه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة فذكرهم بأنها آية لهم وعليهم أن يؤمنوا بالله وأن يتركوا الناقة لحال سبيلها ولا يعترضوها بسوء ولا أذى لأن ذلك نذير العذاب وكان من جملة ما قدر الله لهم أن يتركوا البئر للناقة يوما تشرب منه وحدها فلا يقرّبوا البئر في ذلك اليوم أبدا ، وأن يكون لهم البئر يوما خالصا لا تقربه الناقة ، فكل له شرب في يوم معلوم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذِهِ

نَاقَةُ هَٰذَا شَرِبَ وَلَكُمَّ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۖ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء ١٥٥-١٥٦) ﴿ فَقَالَ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ

اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ ﴾ (الشمس ١٣) .

وكان هذا أمر الله ، فإذا كان اليوم الذي تشرب فيه الناقة عوضهم الله عن الماء بلبنها ، والشاهد في الآية أن الله أضاف الشرب إلى اليوم ووصف اليوم بأنه معلوم للدلالة على أن ذلك كان موضحا تمام التوضيح بلا لبس ولا خفاء ، فاليوم الذي للناقة كان معلوما ، واليوم الذي لهم معلوم أيضا .

وجعل الله اليوم محلا للشرب فقال : ﴿ هَٰذَا شَرِبٌ وَلَكُمَّ شَرِبٌ يَوْمٍ

مَعْلُومٍ ﴾ مع أن الشرب يكون في اليوم لأن الشرب كان مستغرقا لليوم كله فلا يقرب واحد منهم الماء في يوم الناقة أبدا وكذلك الناقة لا تقرب الماء يومهم أبدا ، حتى لو لم يرد أحد منهم الماء في يومهم ولو لم ترد الناقة الماء في يومها ، فهو يوم مخصص لشربهم ولشربها ومعلوم واضح .

وَالشَّرْبُ بِكسر الشين معناه النصيب والحظ من الماء كالسقي (١).

٣ - أيام العذاب والنكال :

وهي أيام جاءت في القرآن الكريم موصوفة بصفات مختلفة للدلالة على بشاعة ما وقع فيها من العذاب الذي حلّ بالمكذبين من الأمم السابقة مثل قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وقوم صالح وقوم شعيب وقوم فرعون وغيرهم ، قال تعالى في قوم صالح : ﴿ وَلَا تَمْشُوا مِمَّا بَسَوْا فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء ١٥٦) .

وقد جاء ذكر ذلك اليوم وبيان ما فيه من خزي وعذاب مشارا إليه بلفظ ﴿ يَوْمٍ يَمِيزُ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِيَّنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمٍ يَمِيزُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (هود ٦٦) .

وقال تعالى في قوم شعيب : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ

إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء ١٨٩) .

وقال تعالى في شأن عاد : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ تنزعُ النَّاسَ

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ (القمر ١٨-٢٠) .

وقال تعالى في شأن قوم فرعون على لسان الرجل المؤمن : ﴿ وَقَالَ

الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ إِنْ أَحَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ (غافر ٣٠-٣١).

* وعبر باليوم مفردا مع أنها أيام تعددت وتنوعت بتعدد المكذبين وأزمنتهم إلا أنها لما كانت نهاية واحدة لفعل واحد وهو التكذيب صح أن يعبر عنها باليوم لاشتراكها كلها في الصفة وهي أخذ الله الشديد لهؤلاء الأقوام وإن تنوعت وسيلة الأخذ .

* وجاء ذلك في مقابل وصفهم بالأحزاب مع أنهم لم يكونوا في زمن واحد حتى يتحزبوا ، لكنهم لما كان ديدنهم من التكذيب والسخرية والعناد واحد بدا لكل من يسمع كأنهم تحزبوا واتفقوا على هذا الإنكار وذلك التكذيب ، وهذا دأب القرآن في التعبير عن المكذبين قال الله تعالى : ﴿

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(١)

وقال تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ (ص ١٤) .

* فقد أفرد الله في الآيات المكذبين تبعا لاختلاف أزمانهم وأماكنهم ولكنه مع ذلك جمع المكذبين لأنه لما كان كل رسول قد جاء من عند الله بدعوة قومه إلى التوحيد فقد اتحدت بذلك دعوة الرسل وظهر أن كل من

كذب رسولا واحدا فقد كذب بما جاء به جميع المرسلين فصح أن يقال عن كل قوم : إنهم كذبوا جميع المرسلين ، وصح أن يوصفوا جميعا بالتحزب على الباطل ضد رسل الله ولهذا قال الله تعالى مبينا اتحادهم في التكذيب وإن تباعدوا مكانا وزمانا : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (٥٣-٥٢) أتواصوا بهم^٢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿ (الذاريات

٥٢-٥٣) وصح تبعا لذلك أن توصف نهايتهم وإن اختلفت كأنها يوم واحد هو يوم الأحزاب وإن لم ير بعضهم بعضا وإن لم يتحزبوا في الواقع لبعد الزمان والمكان وتلك بلاغة القرآن الكريم .

* ومن ذلك ما خاطب الله رسوله ﷺ ليواجه المشركين بالتهديد والوعيد أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم من قبلهم وأطلق عليه يوم الفتح فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٥) قُلْ

يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿ (السجدة ٢٩).

٤ - يوم بناء السدِّ

وذلك في عهد ذي القرنين حيث ذكر الله ﷻ أنه بعد أن بلغ مغرب الشمس ومطلع الشمس وما وجد هنالك وما قال وما فعل أتبع سببا واتخذ طريقا حتى إذا وصل بين السدين ، وحسبنا أن يقول الله لنا ذلك ، أما أين ذلك المكان الآن وهل وقف عليه أحد من الناس فهذه اجتهادات من المفسرين لم يرد بها نص صحيح ، وحيث وصل ذو القرنين وجد أمة من الناس لا يكادون يفقهون الكلام ولكنه تحاور معهم وفهم من كلامهم أن يأجوج ومأجوج يفسدون في الأرض ولا يبقون لهم شيئا من متاع .

ولما رأوا من قوته وكثرة جنده وعظيم ملكه طلبوا منه أن يجعل لهم سدا يحجب عنهم هؤلاء القوم المفسدين على أن يجمعوا ما يقدرون عليه

من مال ، ولكن ذا القرنين علمهم أن يعتمدوا على أنفسهم وأن يتعبوا أنفسهم في درء ذلك الخطر فأمرهم بالعمل وكلفهم بجمع قطع الحديد المتناثرة في الأرض ثم كلفهم بالنفخ على النار التي ينصهر فيها ذلك الحديد ثم صنع السد الذي حال بينهم وبين هؤلاء الخلق المفسدين وصب عليه النحاس المذاب ليكون أملس فلا يستطيعون أن يصعدوا من فوقه ليخرجوا للناس ولا أن ينقبوه ليخرجوا منه .

وحسبنا ما جاء في القرآن الكريم وما جاء عن النبي ﷺ عن هؤلاء القوم وعن هذا السد الذي صنعه وأين هو ؟ وأن من علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج وانهيار هذا السد ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا اليوم العظيم الفاصل في تاريخ البشرية بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْتَهُمْ جَمْعًا ﴾ (الكهف ٩٩) .

وإنما كان يوما فاصلا في تاريخ البشرية لأن الله حجز عن الناس هؤلاء الخلق المفسدين في الأرض ، وحسبنا أن نعرف من فسادهم ما تفرع رسول الله ﷺ لأجله من فتح ردم يأجوج ومأجوج شيئا بسيطا فعن زينب بنت جحش ؓ أن النبي ﷺ دخل عليها فرعا يقول :

" لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ " وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا

فَقُلْتُ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ "

قَالَ : " نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ " (١) .

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري في كتاب المناقب باب : بَابُ عِلَامَاتِ النَّبُوءَةِ فِي

الْإِسْلَامِ وَمَوَاضِعُ أُخْرَى انظر : ٢٢٢١/٣ و ١٣١٧ و ٢٠٢٩/٥ و ٢٥٨٩/٦ و ٢٦٠٩

ورواه مسلم ٢٢٠٧/٤ و ٢٢٠٨ .

وقد جاء في الحديث ما يظهر سبب فزع النبي ﷺ من حدوث هذا الثقب الصغير من ردم يأجوج ومأجوج ، فقد جاء في الحديث عن أمارات الساعة والفتن التي تكون بين يديها خروج هؤلاء القوم فيمرون ببخيرة طبرية فيشربون ماءها كاملا ، ولنا أن نتخيل مدى الدمار والفساد الذي يمكن أن يحل بالأرض بالقياس على هذا ، يقول النبي ﷺ بعد أن ذكر موت المسيح الدجال : " ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحْدِثُهُمْ فِي بَدْرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى : إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ فَحَرَّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بَحِيرَةٍ طَبْرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءٌ وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّفْثَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَتَنَنُّهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنْ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٌ وَلَا وَبَرٌ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَنْثُرَكُهَا كَالزَّلْفَةِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْبِئِي ثَمَرَتَكَ وَرَدِّي بَرَكَتَكَ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارِكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنْ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِيَ الْفَنَاءَ مِنَ النَّاسِ وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِيَ الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِيَ الْفَخْدَ مِنَ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاتِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شَرَّارُ

النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ " (١) .

إذا كان هذا شرهم الذي يكون قبل قيام الساعة أفلا يعد حجزهم عن البشرية بيد ذي القرنين يوما فاصلا يستحق أن يشار إليه في القرآن الكريم ليتذكر الناس نعمة ربهم عليهم فيحمدون الله كل صباح ومساء أن حفظهم الله من هذا الشر وذلك النتن والفساد الذي ما كان ليها لهم في وجوده طعام ولا شراب ولا متاع !

* ونلاحظ في الآيات كلها مجيء لفظ اليوم إما مضافا إلى ما يكون فيه كيوم الأحزاب ويوم الفتح ويوم نحس ، أو بوصف اليوم بأنه عظيم أو أليم مع أن الوصف يكون لما فيه من العذاب ، والتعبير فيها كلها باليوم للدلالة على الشدة التي تكون في ذلك اليوم ولأنه مجهول بالنسبة للمخاطبين ، وليكون تحذيرا لهم بأن يترقبوا العذاب أو الفتح الذي يكون بالعذاب أيضا في اليوم كله وفي أي ساعة منه ، فإذا لم يكن اليوم محددا وجاء التهديد مستغرقا لكل ساعاته فإن ذلك أشد ما يكون من التهديد والوعيد لأنه لا يعرف متى اليوم فيترقب ولا تعرف متى الساعة فيترقب لها الناس وإنما هم معرضون لنزول العذاب في كل لحظة من ليل أو نهار وفي الوقت كله ، فأني يكون الأمان ومن أين تأتي الطمأنينة لهم في لحظة من ليل أو نهار !

(١) - الحديث رواه مسلم في الصحيح ٢٢٥٤/٤ كتاب : الفتن وأشرط الساعة باب ذكر الدجال وصفته وما معه..

٥- يَوْمُ الزَّيْنَةِ :

وهو يوم كان يجتمع فيه أهل مصر للفرح والمرح واللهو ولعله كان يوم عيد يتخذ الناس فيه الزينة شعارا ومظهرا لهم في ذلك اليوم ، وقد جاء ذكر هذا اليوم في الموعد الذي ضربه نبي الله موسى عليه السلام لفرعون أن يجمع فيه الناس وأن يأتي فيه بالسحرة لينازلهم في ضحى ذلك اليوم ليتبين للناس جميعا أن ما جاء به من الدعوة المصحوبة بالمعجزات الباهرة ليس سحرا وإنما هي قدرة رب العالمين الذي أرسله إليهم بدعوة التوحيد ، قال تعالى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (طه ٥٩) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ (طه ٦٤) وقال تعالى : ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء ٣٨) .

* وقد سبق الحديث عن هذا اليوم ، والذي أضيفه هنا هو إضافة اليوم إلى الزينة والأصل أن الزينة تكون في اليوم لكنه لما كان اليوم معروفا بهذا الأمر صح إسناده إليه كما نقول : يوم العيد ، فإن اليوم لما تميز عن بقية الأيام بصفة صح أن يعرف بها ويضاف إليها ويكون معلوما بغير لبس ، ولذلك وصف اليوم بأنه معلوم من خلال التصاقه بتلك الصفة التي لا تستغرق اليوم كله وتميزه عن غيره .

٦- يَوْمُ السَّبْتِ :

وهو يوم مشهور في التاريخ عند اليهود حيث عرض الله عليهم يوم الجمعة فأبوا واختاروا يوم السبت لما أراده الله من الفضل لأمة محمد ﷺ حيث اختصنا الله بيوم الجمعة وجعله عيدا .

أما اليهود فإنهم لما اختاروا يوم السبت فإن الله حرم عليهم العمل فيه

وكان أن ابتلى الله بعضهم بذلك اليوم كما في قصة القرية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف ١٦٣) .

قال ابن كثير : (هم أهل إيلة بين مدين والطور قالوا : وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان فكانت الحيتان قد ألقت منهم السكينة في مثل هذا اليوم ، وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلتهم من البحر فتأتي من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة فلا يهيجونها ولا يذعرونها ، ويوم لا يسبتون لا تأتيتهم وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾

أي نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المنتقم ، فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك وحفروا الحفر التي يجري معها الماء إلى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها ففعلوا ذلك في يوم الجمعة فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد فإذا خرج سبتهم أخذوها ، فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي ظاهرة للناظر وهي في الباطن مخالفة محضة ، فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين : فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك

الزمان وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا ، بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهَ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يقولون : ما الفائدة في نهيكم هؤلاء وقد وقع عليهم الهلاك لا محالة فأجابتهم الطائفة المنكرة ﴿ قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فنقوم به خوفا من عذابه ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي ولعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع فيقيمهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿ أَجْمِنَ الَّذِينَ يَبْهَتُونَ عَنِ السَّوْءِ ﴾ وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والنهية عن المنكر ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وبين العذاب الذي أصابهم بقوله : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ونجى المؤمنين المنكرين وسكت عن الساكتين ^(١) .

* والشاهد في الآية هو ذكر يوم السبت ، وإنما عرفه الله ﷻ ليكون علامة بارزة ودرسا واضحا لكل من تسول له نفسه أن يخالف أمر

(١) - البداية والنهاية ١٢١/٢-١٢٢ وانظر : تفسير الطبري ٩٠/٩-٩١ والقرطبي ٣٠٥/٧ وابن كثير ٢٥٨/٢ والدر المنثور ٥٨٧/٣ وغيرها .

الله ﷺ حتى أصبح يوم السبت مشهورا بهذه القصة في القرآن الكريم في كثير من الآيات ، فنذكر اليوم من باب التعريف والتعجيب من الذي حدث فيه من مخالفة وما نتج عنها من العذاب البئيس الذي حل بالقرية وأهلها حتى جعلها الله نكالا وعبرة للعالمين .

٧ - يومُ المِيلادِ ويومُ الموتِ ويومُ البعثِ :

ويقصد بيوم الميلاد هنا يوم ميلاد يحيى بن زكريا ﷺ لأن مولده كان آية من آيات الله حيث كان أبوه قد بلغ من الكبر عتيا وكانت أمه عاقرا لا تلد لكن الله وهبهما هذا الولد بعد مناجاة وتضرع من زكريا ﷺ لربه وقد ذكر الله القصة في سورتي آل عمران ومريم وخض عبده يحيى ﷺ بمزيد من التكريم حيث ذكر من السلام عليه ما جاء في مواطن ثلاثة : في يوم المولد ويوم الممات ويوم البعث ، فقال تعالى : ﴿ وَسَلِّمُ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم ١٥) .

* ويقال مثل ذلك في يوم ميلاد عيسى ﷺ حيث كان مولده آية أعظم من مولد يحيى ﷺ خاصة إذا قلنا : إن يحيى ﷺ تولد من بين أب وأم وإن كانت الأسباب منقطعة ، إلا أن عيسى ﷺ تولد من أم بغير أب للدلالة على طلاقة قدرة الله ﷻ في أنه هو الذي يخلق ويريد بأمره وما الأسباب إلا من صنع الله ولو شاء الله أبطلها ولو شاء تجاوزها فكل شيء يرجع إلى أمر الله ﷻ وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم ٣٣) .

* هذا عن يوم الميلاد وقد كان آية ، وأما يوم الموت فأينته أعجب حيث قتل يحيى ﷺ وهو نبي بيد من أرسله الله إليهم وهم يزعمون أنهم يتبعون آل عمران ابتداء من موسى ﷺ ومن بعده من الأنبياء ، وأما

عيسى عليه السلام فشأنه أعجب لأن الله رفعه إليه وألقى بشبهه على رجل من قومه فقتلوه وصلبوه وتبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وعصمه الله منهم .

وإذا كان يوم ميلادهما آية ويوم موتهما آية فالآية الأعظم يوم يبعث الناس لرب العالمين يوم القيامة والآية أوضح من أن تشرح وتبين لأن الإحياء بعد الموت أمر عجيب يدل على عظيم القدرة وكمال العلم لله جل جلاله . وقد ذكر المفسرون أن الله خصهما بالسلام في هذه الأيام الثلاثة لأن الإنسان أوحش ما يكون فيها حيث يخرج في يوم مولده مما كان فيه إلى حياة جديدة ، ويوم يموت يرى قوما من الملائكة لم يكن عاينهم ولا رأى مثلهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم ير مثله ، وفي حياة أخرى بكيفية جديدة لم يعهدها .

وقالوا أيضا : لأن الإنسان في هذه الأيام الثلاثة أضعف ما يكون وأحوج إلى المعونة والسلام لأنه في شدة الافتقار إلى الله ^(١) .

قلت : ما ذكره المفسرون صحيح وفي غاية الوجاهة لكن هذا التخريج ليس خاصا بيحيى وعيسى عليه السلام فقط ، وإنما جميع الخلق في هذه الأيام الثلاثة سواء في افتقارهم إلى العون والمدد من الله رب العالمين في يوم الميلاد وفي يوم الموت وفي يوم البعث فلا مزية تخص يحيى وعيسى عن بقية الخلق ، وإنما ذكر الله السلام عليهما مخصوصا في الأيام الثلاثة كما قلت من قبل للإشارة إلى الآيات والدلائل الربانية في الأيام الثلاثة لما فيها من العجائب في يوم مولدهما ما كان غريبا غير مألوف ولا معهود في عرف الناس ، وفي يوم موتهما كذلك ، وأما أمر البعث فمعروف .

(١) - انظر : تفسير البغوي ١٩٠/٣ والكشاف ١٠/٣ والمحرر الوجيز ٨٥/٤ والتفسير الكبير ١٦٥/٢١ وأضواء البيان ٣٨١/٣ وروح المعاني ٧٤/١٦ وغيرها .

* ويقصد باليوم في المواطن كلها الوقت والحين ، والمعنى سلام عليهما حين ولادتهما وحين موتهما ووقت بعثتهما ، لأنه قد يقع الميلاد أو الموت في أي لحظة من ليل أو نهار ، وأما البعث فيقع حيث ينتقي الليل والنهار ، وإنما عبر باليوم لأن الحدث لما كان عظيما صح أن يعرف به اليوم ويشهر ، فغلب اسم اليوم لشهرته وشدة ارتباط الحدث به .

النوع الثالث : أيام في عهد النبي ﷺ

وأقصد بها الأيام التي وقعت فيها أحداث عظيمة اشتهرت في تاريخ الإسلام وذكرها الله مرتبطة بيومها. ليلفت أنظار الأمة إليها لاستخلاص ما فيها من عبر ومواعظ وحكم مؤثرة في حياة الناس إلى يوم القيامة وقد جاء منها في القرآن الكريم أيام متعددة ، وكلها علامات فاصلة في تاريخ الأمة والأحداث التي ارتبطت بها كان لها أبلغ الأثر ليس على المسلمين في حاضرهم الذي نزلت فيه الآيات وحدها وإنما على مرّ التاريخ وكرّ الأيام وتوالي السنين إلى يوم القيامة ، وقد خص الله من أيام الرسالة المحمدية - على عظم أيامها كلها - خمسة أيام ، وهي كما يلي :

(أ) - يَوْمُ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ :

وهو يوم فاصل في تاريخ الأمة المحمدية لأنه اليوم الذي اتخذ المسلمون فيه أول مسجد ليعبدوا الله فيه ، فكانت اللبنة الأولى لانطلاق دعوة الله في الأرض وكانت الشرارة الأولى لبناء المساجد التي انتشرت وعمّت كل أرجاء المعمورة حتى تعدّ اليوم بملايين المساجد في الأرض والأصل كان البناء الأول ، ولذلك ذكر الله هذا الحدث العظيم مرتبطا بيومه لأنه كان يوما له ما بعده ، وكان يوما فاصلا في تاريخ الإسلام وتاريخ عبادة الله بحق ، وقد ذكره الله في مقام التقريق بين من يتخذ مسجدا لله رب العالمين ومن يتخذ مسجدا للنفاق وطعن المسلمين في قصة مسجد الضرار

المشهوره ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا
وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
وَلِيُخَلِّفُنَّ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٠٧) لَا تَقُمْ
فِيهِ أَبَدًا ۚ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ
رِجَالٌ تُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ (التوبة ١٠٧-١٠٨).

ومسجد الضرار هو مسجد بناه المنافقون ليكون ستارا لهم
يترصدون فيه أعداء الله ويجمعون فيه السلاح ويجتمعون فيه للتأمر على
رسول الله ﷺ وكان من خبره ما جاء في السيرة النبوية أنه كان قريبا من
مسجد قباء وأن رسول الله ﷺ كان قد وعدهم بالصلاة فيه وهو عائد من
غزوة تبوك ، قالوا : " ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ بَلَدُ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضَّرَارِ قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ وَهُوَ
يَتَجَهَّرُ إِلَى تَبُوكَ ، فَقَالُوا : " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ
وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمُطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ "
فَقَالَ : " إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالِ شُغْلٍ أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
لَأَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ "

فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانَ ، أَتَاهُ خَبَرُ الْمَسْجِدِ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ
الدَّخْشَمِ أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَمَعْنَى بَنِ عَدِيٍّ أَوْ أَخَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ ، أَخَا
بَنِي الْعَجْلَانِ فَقَالَ : " انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ "
فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَهُمْ رَهْطُ مَالِكِ بْنِ الدَّخْشَمِ

، فَقَالَ مَا لِكَ لِمَنْ : أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْكَ بَنَارَ مِنْ أَهْلِي ،
فَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ فَأَخَذَ سَعْفًا مِنَ النَّخْلِ فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا ، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَانِ
حَتَّى دَخَلَاهُ وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرَقَاهُ وَهَدَمَاهُ وَتَشَرَّقُوا مَعَهُ عَنْهُ وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا
نُزِّلَ (١) .

* وَلَنْ يَكُونَ حَدِيثِي عَنْ مَسْجِدِ الضَّرَارِ ، وَإِنَّمَا أَكْتَفِي بِمَا يَتَّصِلُ
بِمَوْضُوعِ الْبَحْثِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ ﴾ فَذَكَرَ الْمَسْجِدَ وَذَكَرَ الْيَوْمَ ، وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُسَمَّى الْمَسْجِدَ أَوْ بِشِيرِ
إِلَيْهِ بِوصفه ، لَكِنْ اللَّهُ ﷻ شَاءَ أَنْ يَذَكَرَ الْيَوْمَ الَّذِي أُسِّسَ فِيهِ هَذَا الْمَسْجِدَ ،
وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَحْدِيدِ الْمَرَادِ بِالْمَسْجِدِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ هَلْ هُوَ
مَسْجِدُ قَبَاءَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَسْجِدٍ بَنِيَ فِي الْإِسْلَامِ ؟ أَوْ أَنَّهُ مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ
بِالْمَدِينَةِ الْمَنُورَةِ حَيْثُ عَاشَ ﷺ وَمَاتَ وَدُفِنَ ؟ وَقَدْ تَحَمَّسَ لِكُلِّ قَوْلٍ فَرِيقٌ
مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَعُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَالْأَصُولِ (٢) .

* وَالْيَقِينُ أَنَّ كِلَا مِنَ الْمَسْجِدَيْنِ قَدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى بِدَلِيلِ
الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِيهِمَا فَأَمَّا مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي
سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ ﷺ قَالَ : " دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ
فَقُلْتُ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى " قَالَ : " فَأَخَذَ

(١) - انظر : السيرة النبوية ٢١١/٥ والسيرة الحلبية ١٢٣/٣ وتاريخ الطبري ١٨٦/٢
والبداية والنهاية ٢١١/٥ وزاد المعاد ٥٤٩/٣ وعيون الأثر ٢٦٣/٢ والروض الأوفى
٣٠٦/٤ ومغازي الواقدي ص ١٠٤٦ وتفسير الطبري ٢٣/١١ وابن كثير ٣٨٩/٢
وغيرها .

(٢) - انظر : تفسير ابن كثير ٣٩٠-٣٩١ والقرطبي ٢٥٩/٨ وشرح النووي ١٦٩/٩
وفتح الباري ٦٩/٣ و٢٤٥/٧ و٢٦٨ والتمهيد ٢٦٢/١٣ وزاد المعاد ٣٩٥/١
و٥٥٠/٣ والفتاوى لابن تيمية ٤٦٨-٤٦٩ و٢٧/٢٥٥ و٣٤٨ و٤٠٦ وغيرها .

كَفًّا مِنْ حَصَبَاءَ فَضْرَبَ بِهِ الْأَرْضَ ثُمَّ قَالَ :
 " هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا " لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ ^(١) .

* وأما مسجد قباء فقد جاء في حديث الهجرة الطويل عن عائشة رضي الله عنها وكان مما جاء فيه : " وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ عَلَى أَطْمٍ مِنْ أَطَائِمِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبْيَضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : " يَا مَعْاشِرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ " .

فَنَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السَّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحْيِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بَرْدَانَهُ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بَضْعَ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكْتَ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مَرَبِّدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجَرٍ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكْتَ بِهِ رَاحِلَتُهُ :

(١) - الحديث رواه مسلم في الصحيح ١٠١٥/٢ كتاب الحج : باب بَيَانِ أَنَّ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى هُوَ مَسْجِدُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْمَدِينَةِ .

" هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ "

ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفُلَامِينَ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمَرْبِدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالَا :

" لَا بَلْ نَهْبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ "

فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا

وَوَافَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبَنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبَنَ :

" هَذَا الْجَمَالُ لَا حِمَالٍ خَيْرٌ هَذَا أَكْبَرُ رَبَّنَا وَأَظْهَرُ "

وَيَقُولُ :

" اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ "

فَتَمَثَّلَ بِشَعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي "

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ وَلَمْ يَبْلُغْنَا فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ

شَعْرِ تَامٍ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ ^(١) .

قلت : صح في الحديث أن المسجد النبوي بالمدينة ومسجد قباء

كلاهما أسس على التقوى من أول يوم ، والمقصود بأول يوم أي أن بناء

المسجد على التقوى كان من أول يوم بني فيه المسجد ، وهكذا ينبغي أن

تبنى المساجد ، وكل مسجد أقامه الناس ابتغاء وجه الله يصح أن يوصف

بأنه مسجد أسس على التقوى ، ولكن لما كانت النيات في الضمائر والقلوب

لا يعلم بها إلا علام الغيوب كانت أحوال المساجد مجهولة غير معلومة

وعلى المرء أن يصلي لله خاضعا خاشعا من غير أن يسأل هل بني هذا

المسجد على التقوى أم لا .

* ولأجل هذا كانت هذه الصفة في الآية صفة شرف ومزية لتكريم

(١) - الحديث رواه البخاري في الصحيح ١٤٢١/٣ كتاب مناقب الأنصار: بَابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

هذين المسجدين وشهادة من علام الغيوب بأنهما بنيا على التقوى من أول يوم بنيا فيه وهي شهادة لم يحظ بها مسجد غيرهما اللهم إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى لأنهما بنيا بيد الأنبياء .

وأقول أيضا : بعد أن اتفقنا على أن مسجد النبي ﷺ قد أسس على التقوى من أول يوم وأن مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فإن سياق الآية يرجح أن المراد بالمسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء وليس المسجد النبوي ، وليس معنى هذا تفضيله على المسجد النبوي الشريف لأنه إذا كان مسجد قباء قد بني وأسس على التقوى فإن مسجد رسول الله ﷺ من باب أولى وهذا ما رجحه ابن كثير وغيره ^(١) .

ولكن الذي يرجح أن المسجد المراد في الآية مسجد قباء عدة أمور : أولا : أن الآية جاءت في مقام المفاضلة بين مسجدين في أحقية القيام فيه ومن المعلوم يقينا أنه لا مفاضلة تقع بين المسجد النبوي الشريف وبين كل المساجد في الأرض سواه ما عدا المسجد الحرام كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيَمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ " ^(٢) .

* وهذا يعني انعدام المفاضلة بين المسجد النبوي وبين أي مسجد آخر ومن ثم فلا وجه لقوله تعالى : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ لأن الأحقية واضحة وثابتة من غير الآية ، إذ لو سئل عاقل عن مسجد تكون الصلاة فيه بألف صلاة في المسجد الآخر وسألناه : أي المسجدين أحق بالقيام فيه

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ٣٩٠/٢-٣٩١ والقرطبي ٢٥٩/٨-٢٦٠ وفتح القدير .

(٢) - الحديث متفق عليه : رواه البخاري ٣٩٨/١ في أبواب التطوع من كتاب الصلاة : باب

فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ورواه مسلم في الحج باب فضل الصلاة بمسجدي

مكة والمدينة ١٠١٢/٢ و١٠١٣ .

لكان الجواب حتماً بأحقية المسجد الذي تفضل الصلاة فيه عن ألف صلاة في المسجد الآخر ، وهذا يدل على أن المراد بالمسجد في الآية غير المسجد النبوي الشريف .

قال القرطبي : (و ﴿ أَحَقُّ ﴾ هو أفعَل من الحق ، وأفعَل لا يدخل إلا

بين شيئين مشتركين لأحدهما في المعنى الذي اشتركا فيه مزية على الآخر فمسجد الضرار وإن كان باطلا لا حق فيه فقد اشتركا في الحق من جهة اعتقاد بانيه أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للمسجدية لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا والآخر حق باطنا وظاهرا ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (الفرقان ٢٤) ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير ، إذ كل حزب بما لديهم فرحون^(١) .

ثانيا : كما جاءت المفاضلة في المسجد جاءت المفاضلة أيضا بين من

قاموا بتأسيس المسجد حيث قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة ١٠٩)

ومن الثابت المعلوم يقينا أن المسجد النبوي قد قام النبي ﷺ بشراء أرضه وموضعه كما سبق في الحديث وهو الذي قام ببنائه وعمل فيه بيده الشريفة ، وهذا وحده كفيلا بأن ينفي المفاضلة المذكورة في الآية لأنه لا مسجد أفضل من مسجد اتخذه رسول الله ﷺ مركزا لدعوة الإسلام في الأرض واشترى أرضه وأبى أن يقبلها هدية وقام هو ببنائه ، ومن ثم يتضح أن

المفاضلة كانت بين مؤسسين آخرين ليس فيهم النبي ﷺ ويكون المراد بالمسجدين مسجدين آخرين غير المسجد النبوي ويكونان خارج المسجد النبوي حتى تصح المفاضلة بأحقية القيام من رسول الله ﷺ وهما مسجد الضرار الذي بناه المنافقون ومسجد قباء الذي بناه بنو عمرو بن عوف في منازلهم وكانت خارج المدينة في ذلك الوقت ، وكان رسول الله ﷺ يخرج عن مسجده للصلاة فيه ، وهنا تكون المفاضلة واقعة بين بناء وبناء وبناء وثبوت وثبوت

ثالثا : من المعلوم لدى أهل اللغة أن المراد بتقييد التأسيس بأول يوم راجع إلى التأسيس على التقوى ، ولا علاقة له بأولية البناء ، ومن ثم فإن كلمة أول يوم ظرف للتأسيس على التقوى وليست لأولية البناء وفارق كبير بين التعبيرين وموقع الظرفين ، فإن مسجد قباء بني قبل المسجد النبوي بفترة معلومة واضحة لكن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم فلم يقصد بهما إلا التقوى ورضوان الله ﷻ .

ومع ذلك فإن المفاضلة تصح بين مسجد الضرار ومسجد قباء باعتبارهما مسجدين بُنِيا للصلاة خارج مسجد النبي ﷺ بالمدينة على أن يسمح للناس بالصلاة فيهما بعيدا عن المسجد النبوي نظرا لبعد المسافة ومشقة الانتقال إلى المسجد النبوي في ذلك الوقت للمطر والبرد كما سبق ، وكان للمسلمين مساجد خارج المسجد النبوي قد أقرها رسول الله ﷺ ، فقد جاء في السير والسنن أن مَسَاجِدَ الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ سِوَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا : مَسْجِدُ رَاحِجٍ ، وَمَسْجِدُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَمَسْجِدُ بَنِي عَمْرٍو بْنِ مَبْثُولٍ ، وَمَسْجِدُ جُهَيْنَةَ وَأَسْلَمَ ، وَمَسْجِدُ بَنِي سَلَمَةَ وَكُلُّهُمْ يُصَلُّونَ بِأَذَانِ بِلَالٍ كَمَا جَاءَ فِي السَّنَنِ (١).

* ولهذا لما أراد الفسقة والمنافقون أن يعطوا مسجدهم الشرعية

(١) - انظر : الروض الأنف ٣٠٦/٤ و سنن الدارقطني ٨٥/٢ وبعض أسماء هذه المساجد

التسعة منتشر ومشهور في كتب السنة .

اللازمة للصلاة فيه انتدبوا رسول الله ﷺ ليصلي بهم فيه صلاة تضي عليه القدسية والشرعية ولا يكون عليهم فيه مطعن ، وهنا نهى الله رسوله ﷺ أن يقوم فيه أبدا ثم أتى بالمفاضلة بين المسجدين والتي تدل على أن المراد بأحقية القيام القيام الطاريء غير الثابت تكريما لمن بنى المسجد وإعلانا لشرعية القيام فيه ، ومعلوم أن القيام في المسجد النبوي كان هو الثابت والأصل لرسول الله ﷺ وهو في المدينة ، وكان قيامه في غيره هو الطاريء ومن أجل هذا كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيا وراكبا فيصلي فيه ركعتين إيدانا بصحة الصلاة فيه وإعلانا لشرف هذا المسجد وتكريما لأهله لأنهم أول من استقبلوا رسول الله ﷺ في هجرته وكانت منازلهم في أول دخوله ﷺ المدينة .

فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ وَيَقُولُ : " رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِيهِ كُلَّ سَبْتٍ " وَقَالَ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ " (١) .

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قال : " صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ " وقال أيضا : " مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ " (٢) .

(١) - الحديث متفق عليه رواه مسلم في الصحيح ١٠١٦/٢-١٠١٧ كتاب الحج : باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته والبخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة باب إتيان مسجد قباء ماشيا وراكبا .

(٢) - الحديث رواه ابن ماجه في سننه ٤٥٣/١ و٤٥٤ والحاكم في المستدرک ٦٦٢/١ وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٤٨/٥ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٤٩/٢ و٤١٦/٦ وأبو يعلى مسنده ١١٧/١٣ والطبراني في الكبير ٢١٠/١ والشيخاني في الأحاد والمثنائي ٤٣/٤ وابن عبد البر في التمهيد ٢٦٥/١٣ والمزي في تهذيب الكمال ٥٢٨/٩ وصححه ابن كثير في التفسير ٣٩٠/٢ .

رابعاً : ذكر الله في بيان مقصد أصحاب مسجد الضرار وبياناً لحكمة النهي عن الصلاة فيه أنهم اتخذوه ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين أن المراد بالتفريق بين المؤمنين هو تمزيق جماعة المؤمنين في الصلاة نظراً لقرب هذا المسجد من مسجد قباء ، وقرب المسجدين سيفرق جماعة المؤمنين في تلك الديار ، ولهذا كان أمر رسول الله ﷺ لبني عمرو بن عوف بهدم المسجد وتحريقه فكانوا هم الذين قاموا بذلك لأنه في ديارهم ومنازلهم ومن ثم كانت المفاضلة بين المسجدين لبيان فضل أحدهما وفضل بناته والقائمين عليه وبيان سوء الآخر وسوء القائمين عليه وكان تأكيد الله تعالى لرسوله ﷺ أن يقوم في مسجد قباء أولى وأحق من أن يقوم في مسجد هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا من مكانه في أول منازل المدينة وسيلة لتلقي واستقبال أعداء الله فيه من غير أن يفتن لهم أحد .

خامساً : من لطائف القرآن الكريم في ذكر المساجد أنه إذا أراد الإشارة إلى أعظم المساجد في الأرض ذكره معرباً بـ " ال " التي هي للعهد كما في مواطن ذكر المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وتخصيصها بالذكر والإشارة ببياناً لشرفها وفضلها أما بقية المساجد فكانت تأتي نكرة للدلالة على العموم ، وعلى أنها كلها سواء في الفضل والمكانة بخلاف المساجد المميزة ، وعليه فلو كان المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى في الآية هو مسجد النبي ﷺ لكان التعريف فيه أولى ولقال الله : للمسجد الذي أسس على التقوى ، لأن النبي ﷺ قرن المساجد الثلاثة ببيان فضيلة خصت بها دون سائر المساجد فقال ﷺ :

" لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدُ الْأَقْصَى " (١) .

وإنما جاء القرآن هنا باللفظ الذي يدل على العموم المفيد أن شأنه شأن سائر المساجد وهو ألصق بمسجد قباء دون المسجد النبوي .

سادسا : يؤيد أن المسجد المشار إليه مسجد قباء ما جاء في وصف الرجال فيه بأنهم يحبون أن يتطهروا ، والطهارة هنا إما أن يراد بها طهارة النفس والقلب والقصد والمعتقد وهذا في مقابل ما جاء عن أصحاب مسجد الضرار من مقصد السوء ونية الشر والغدر وما ترسخ في قلوبهم من نجاسة وقذارة بنفاقهم ومكرهم ، فكانت المقابلة أليق به وأنسب من مسجد النبي ﷺ لأن الطهارة القلبية في المسجد النبوي بين الصحابة الكرام وهم في حضرة النبي ﷺ أوضح من أن تفرق برجال أكل النفاق قلوبهم وملك عليهم نفوسهم ، حتى قاموا يرصدون للحق ويجعلون من أنفسهم ومنزلهم رسدا واستقبالا ونصرة لأهل الباطل .

* وإن أريد بحُبِّ التطهر الطهارة الحسية فهي ميزة تميز بها أهل مسجد قباء من بني عمرو بن عوف حسبما جاء في السنة مما يؤيد أنهم هم المقصودون في الآية مما يعني وصفهم بالطهارة ظاهرا وباطنا في مقابل المنافقين ، فقد جاء في الحديث عن ابن عباس ؓ قال : " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ فَقَالَ : « مَا هَذَا الطَّهَوْرُ الَّذِي أَتْنَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهِ » ؟

فَقَالُوا : " يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا خَرَجَ مِنَّا رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ مِنَ الْغَائِطِ إِلَّا غَسَلَ

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري ٣٩٨/١ كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة

: باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ورواه مسلم ١٠١٤/٢ كتاب الحج : باب

لَا تَشُدُّ الرِّجَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ .

دُبْرُهُ - أَوْ قَالَ : مَقْعَدُهُ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " فَفِي هَذَا " (١) .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي
أَهْلِ قُبَاءَ ؓ فِيهِ رِجَالٌ حُجُبُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا " قَالَ : " كَانُوا يَسْتَنْجُونَ
بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ " (٢) .

كل هذا يدل على أن المراد بالمسجد هو مسجد قباء ، والآية في سياق
المفاضلة في أحقية قيام النبي ﷺ فيه عن قيامه في مسجد الضرار ، وهي
كذلك تميز بين الفريقين فريق الصدق والإيمان المتمثل في أهل قباء الذين
مدحهم الله بأنهم رجال وأنهم يحبون التطهر الحسي والمعنوي والأبعد من
المنافقين الأنجاس الذين أفحموا أنفسهم بسوء فعالهم في نار جهنم .
* ولا يقدح هذا أبداً في كون مسجد النبي ﷺ أسس على التقوى ولا
يتعارض الكلام مع الحديث الذي ينكر ذلك فمسجد النبي ﷺ أولى المساجد
بهذا الوصف ، وإنما كان الكلام عن مسجد قباء في مقابل مسجد الضرار ،
وفارق بين أن يُخصَّصَ بالوصف مسجدٌ يختص به ويفضل به على غيره وأن
تنزل الآيات على حدث بعينه فإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ .
والله أعلم .

(١) - الحديث رواه الحاكم في المستدرک ٢٩٩/١ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠٥/١ وابن
أبي شيبه في المصنف ١٤١/١ والطبراني في الكبير ٦٧/١ وفي مسند الشاميين
٤١٥/١ والطبري في التفسير ٢٩/١ وانظر : تفسير ابن كثير ٣٩٠/٢ والدر المنثور
٢٨٩/٤ ونيل الأوطار ١٢٣/١ والسيرة الحلبية ٢٣٩/٢ .

(٢) - الحديث رواه أبو داود في سننه ١١/١ وابن ماجه في سننه ١٢٨/١ والترمذي في سننه
٢٨٠/٥ والبيهقي في السنن الكبرى ١٠٥/١ والمزي في تهذيب الكمال ٥٠٢/٣٢ وانظر
: المغني ١٠١/١ ومنار السبيل ٢٤/١ وسبل السلام ٨٤/١ ونيل الأوطار ١٢٣/١
والمجموع ١١٨/٢ وتفسير ابن كثير ٣٩٠/٢ والقرطبي ٢٥٩/٨ وغيرها .

*** وأخلص من ذلك كله إلى أن التعبير باليوم في الآية يراد به بيان منزلة ذلك اليوم في تاريخ الإسلام لأنه يوم فاصل مشهور في حياة المسلمين وعلامة على بداية ظهور الحق وعلو كعبه على أهل الباطل حيث تمكن المسلمون لأول مرة في تاريخهم أن يتخذوا لأنفسهم مسجدا يعبدون الله فيه بلا خوف من تسلط ولا قهر ولا أذى من الكفار .

* ثم إن في التعبير باليوم إشارة إلى أن العمل ينبغي أن يكون مصحوبا بالإخلاص من أول يوم يقوم فيه هذا العمل حتى يكون مقبولا عند الله فربط التأسيس على التقوى بأول يوم يرشد العباد إلى تحري القصد والتوجه ومراقبة الله مع بداية كل عمل فإن اقتران القصد والتوجه إلى الله بأول العمل وأول البناء حري بأن يديم هذا العمل على صاحبه وأن يبارك له فيه وأن يكتب له الأجر والمثوبة عند الله ، وفي المقابل فإن غياب هذا الارتباط الأولي دال على الخسران الكبير .

(ب) - يَوْمُ الْفُرْقَانِ يَوْمُ بَدْرَ :

وكما كان بناء المسجد - أيا كان المقصود به - أمرا عظيما صار به اليوم الذي بني فيه يوما فاصلا وحدا معلوما في تاريخ الأمة فإن اليوم الذي وقعت فيه غزوة بدر كان يوما فاصلا من جهة ثانية تزيد من جمال اليوم الأول وتؤكد ، لأن هذا اليوم كان فرقانا بين الحق والباطل حيث نصر الله المؤمنين وهم قلة على الكافرين وهم كثرة وكانت آية من آيات الله العظمى في التاريخ ، وكان يوما له ما بعده وما زال الناس يتدارسون ذلك اليوم بشيء من الإعجاب والتأمل في محاولة لأخذ العبر والدروس المستفادة في القيادة والجنديّة ووسائل النصر ومقوماته إلى يومنا هذا حتى إنه نزلت فيه سورة كاملة هي سورة الأنفال مع ما جاء في السور الأخرى لإرشاد المؤمنين إلى مواطن القوة وعوامل النصر والتمكين إذا أرادوا أن تكون لهم

الغلبة في كل زمان ومكان ، قال تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ (الأنفال ٤١) .

* ولأن المقصود الإشارة إلى عجائب الله في ذلك اليوم جاءت الآيات بعدها ببيان حال الفريقين من كان بالعدوة الدنيا ومن كان بالعدوة القصوى وأنهم لو تواعدوا لاختلفوا ، وما كان من رؤية العدد القليل كثيرا والعدد الكثير قليلا وغيرها ، كل ذلك مرتبط باليوم حتى إن المفسرين وعلماء اللغة اتفقوا على أن جملة ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ وما بعدها بدل من يوم الفرقان ، ولذلك كرر الله ذكر اليوم بوصف آخر يوضح المقصود بذكره وهو يوم التقاء الجمع من المؤمنين والكافرين فهو يوم كأيام الذين خلوا من قبل وإن اختلف الأخذ والعذاب المنزل فهذا عذاب قتل وأسرى مع استبقاء القوم وذلك كان عذاب استئصال وإفناء ومع ذلك فهو يوم مشهود استحق أن يشار إليه على أنه من أحداث الدهر المهمة وأيام الدنيا الخالدة التي يشار إليها تنويها وتثريفا له .

(ج) - يَوْمُ أَحُدٍ

وهو يوم فاصل أيضا في تاريخ المسلمين يستحق أن يفرد بالذكر وأن يشار إليه باليوم نظرا لما أصاب المؤمنين فيه من قتل وجراحة وابتلاء ومحن شديدة ، حتى إن الله أشار إليه بلفظ اليوم في آيتين من أجل أن يتعلم المسلمون أنهم لا ينتصرون لمجرد أنهم مسلمون وإنما ينتصرون بما سبق ذكره من دروس في أعقاب غزوة بدر وأهمها أن يطيعوا الله ورسوله ولا

يَتَنَازَعُوا وَلَا يَخَالَفُوا أَمْرَ الْقِيَادَةِ ، وَأَنْ يَثْبِتُوا فِي مَوَاجِهَةِ الْأَعْدَاءِ ، فَلَمَّا خَالَفُوا وَتَنَازَعُوا وَنَسُوا أَمْرَ اللَّهِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُم لِيَكُونَ التَّعْلِيمُ فَعَلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ قَوْلًا ، وَالتَّعْلِيمُ بِالْفِعْلِ أَثْبَتَ مِنَ التَّعْلِيمِ بِالْقَوْلِ لِأَنَّ أَثَرُ الْفِعْلِ فِي النُّفُوسِ بِفِرَاقِ الْأَحْبَةِ وَمَقْتَلِ الْإِخْوَانِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ وَبِمَا بَقِيَ فِي أَبْدَانِهِمْ مِنْ أَثَارِ الْجَرَاحَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَصَابُوا بِهَا فَكَيْفَ يَتَأْتَى لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ نَسْيَانٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران ١٥٥) .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنْ هَذَا ۚ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران ١٦٥-١٦٦) .

* والتذكير باليوم في الآيتين تذكير بالأحداث التي اشتمل عليها اليوم كلها وليس تذكيرا بالتولي والمصيبة فقط ، وإنما ذكر اليوم لأنه حقيق بأن يُدرَس ويُذكر ما كان فيه من أول المشاورة في الخروج وما تبعه من تخلف المنافقين ثم ما كان من النصر في أول الأمر حينما صدقوا مع الله فصدقهم الله وعده فانتصروا ، ثم ما كان بعد ذلك من مخالفة وتنازع وتفرق فكانت المصيبة حتى أشيع في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل وما حدث من فرار كثير من المؤمنين من الميدان وإلقائهم السلاح في مقابل استبسال فئة قليلة حول النبي ﷺ يدافعون عنه وما تلا ذلك من أحداث جمعتها لفظ اليوم وصورتها آيات السورة الكريمة باستفاضة .

* وشتان ما بين الوصف ليوم بدر بأنه يوم التقاء الجمعين وذات الوصف ليوم أحد بأنه يوم التقاء الجمعين ليضع الله أمام نواظر المؤمنين وعقولهم وبصائرهم الصورتين المتقابلتين والمتناقضتين ويجعل كلا منهما يوما بأحداثه ومشاهداته وآياته وعبره ليبقى كل منهما علامة في التاريخ وحدثا مشهودا يتعلم منه المسلمون كيف يكون النصر ومتى يرفع الله يد التمكين والمعونة عنهم فيختاروا لأنفسهم الطريق الصحيح إن أرادوا النصر والتمكين ، وشتان ما بين اليومين وكلاهما يستحق أن يبقى علامة

* ومما أشار الله به إلى يوم أحد حديثه عن تولي المنافقين أيضا عن ميدان المعركة في ذلك اليوم الذي جاء التعبير عنه بلفظ ﴿يَوْمِذٍ﴾ وذلك أن الله ﷻ أمر المؤمنين بالثبات عند ملاقات العدو مطلقا في سائر الأيام ونهاهم عن التولي يوم الزحف وتوعد من يفعل ذلك بالعقوبة الشديدة حيث يستتبع غضب الله في الدنيا وليس له في الآخرة إلا النار وهذا يدل على أن التولي يوم الزحف كبيرة من أكبر الكبائر ، قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْآدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمِذٍ ذُبْرَةٌ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾ (الأنفال ١٥-١٦) .

ومع الأسف وبرغم ذلك التحذير فقد رجع عبد الله بن أبي بن ثلث جيش المسلمين القليل يوم أحد ، وجاء تخليد ذلك العمل المخزي في قوله تعالى : ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ۚ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۚ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ ۚ

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ^٣ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ (آل عمران ١٦٧) .

(د) - يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ :

ومن الأيام الفاصلة في تاريخ الإسلام والتي استحققت أن يشار إليها باليوم يوم الحج الأكبر لأنه كان يوما فاصلا ومكملا لرسالة النبي ﷺ حيث أذن الله بانتهاء الشرك من بلد الله الحرام وتخليص بيت الله والحج إليه من كل ما لا علاقة له بدين الله من الشوائب والمخالفات التي ابتدعها الناس ولا أصل لها من رسالة أو كتاب حيث نزلت سورة براءة وبعث بها رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليلحق بركب أبي بكر الصديق أمير الحج ليلتوها على الناس في المنازل وينقل إليهم البراءة لتخلص البلد الحرام ويخلص الحج ويخلص بيت الله الحرام للإسلام والمسلمين خلوصا تاما وكاملا ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ^٤ مِنْ رَبِّكَ^٥ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ^٦ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ^٧ فَإِنْ تُبْتُمْ^٨ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ^٩ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ^{١٠} فَأَعْلَمُوا^{١١} أَنَّكُمْ^{١٢} غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ^{١٣} وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا^{١٤} بِعَذَابٍ أَلِيمٍ^{١٥} ﴾ (التوبة ٣) .

(هـ) - يَوْمُ الدُّخَانِ :

وهو يوم من أيام الله أصاب الله به المشركين لتكذيبهم وعنادهم حتى دعا عليهم رسول الله ﷺ وذلك قول الله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ^{١٦} يَوْمَ تَأْتِي^{١٧} السَّمَاءُ^{١٨} بِدُخَانٍ مُبِينٍ^{١٩} يَغْشى^{٢٠} النَّاسَ^{٢١} هَذَا^{٢٢} عَذَابٌ أَلِيمٌ^{٢٣} ﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ^{٢٤} عَنَّا^{٢٥} الْعَذَابَ^{٢٦} إِنَّا^{٢٧} مُؤْمِنُونَ^{٢٨} ﴾ (الدخان ١٠-١٢) .

وقد جاء في الحديث عن مسروق قال : " بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كُنْدَةٍ فَقَالَ : " يَجِيءُ دُخَانُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُتَنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَّامِ " فَفَزَعْنَا فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وَكَانَ مُتَكِنًا فغَضِبَ فَجَلَسَ فَقَالَ : مَنْ عِلِمَ فَلْيَقُلْ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ : اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ : لَا أَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص ٨٦) وَإِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَلُوا عَنْ الْإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : " اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسِنْعٍ كَسَنِعِ يُوسُفَ " فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ وَبَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ فَجَاءَهُ أَبُو سَفْيَانَ فَقَالَ :

" يَا مُحَمَّدُ جِئْتُ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ " فَقَرَأَ وَفِي رَوَايَةٍ : " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ عَابِدُونَ ﴾ .

أَفِيكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الْآخِرَةِ إِذَا جَاءَ !

وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ : " فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ لَهُ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُضَرَ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ " قَالَ : " لِمُضَرَ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ "

فَاسْتَسْقَى لَهُمْ فَسَقُوا فَفَزَلَتْ ﴿ إِنَّكُمْ عَابِدُونَ ﴾ قَالَ : فَمَطَرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَّةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ حِينَ أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَّةُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ وَفِي رَوَايَةٍ : ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ وَ ﴿ لِزَامًا ﴾

يَوْمَ يَذِرُ ﴿١﴾ الْمَ ﴿٢﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٣﴾ إِلَى ﴿٤﴾ سَيْغَلِيُونَ ﴿٥﴾ وَقَدْ مَضَى الدُّخَانُ
وَمَضَتِ الْبَطْشَةُ وَالرُّومُ قَدْ مَضَى " (١) .

وهذا التفسير هو القول الراجح في هذه الآية ، وسياق الآية يدل
عليه ، وإن ذهب بعض المفسرين إلى أن الدخان آية وعلامة من أمارات
الساعة وعلامات يوم القيامة مستدلين بالحديث عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ
﴿٦﴾ قَالَ : " أَطْلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ فَقَالَ :
" مَا تَذَكَّرُونَ " قَالُوا : " نَذْكُرُ السَّاعَةَ "

قَالَ : " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالْجَالَ
وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
وَتِلْكَ نَارُ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ " (٧) .

فإنه لا يتعارض مع ما جاء في الآية ويكون قد نصَّ عليه بالحديث
وليس بالآية ، لأن غاية ما يفيد الحديث أن الدخان من آيات الساعة فحسب
خاصة وأن الرواية السابقة لم يرد فيها ذكر لآية الدخان التي معنا التي
تذكر ذلك ، فما المانع أن يكون الدخان الوارد في الآية مما حدث لقريش
في عهد النبي ﷺ ويكون دخان آخر قبل الساعة وهو ما جاء وصفه في
الأحاديث ، ومن ثم لا تصمد هذه الرواية لرواية الصحيحين عن ابن
مسعود ﷺ في تفسير الآية دون النظر هل الدخان آية من الآيات قبل

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري في كتاب التفسير : باب سورة حم الدُّخَانِ ومواضع
أخرى وانظر : ٣٤١/١ و ٣٤٦ و ١٧٣٠/٤ و ١٧٩١ و ١٨٠٩ و ١٨٢٣ ورواه مسلم
٢١٥٥/٢ و ٢١٥٦ في كتاب صفة القيامة والجنة والنار : باب الدخان .

(٢) - الحديث رواه مسلم في الصحيح ٢٢٢٥/٤ كتاب الفتن وأشراف الساعة : باب في الآيات
الَّتِي تَكُونُ قَبْلَ السَّاعَةِ .

الساعة أم لا ؟ لاختلاف الموضوع (١) .

* والمراد باليوم في الآية الوقت ، أي ترقب ما يكون فيه الكفار من شدة استجابة لدعوتك يا محمد حين تأتي السماء بدخان مبين وقد كان حتى إن الرجل ليرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجفاف والغبار والجوع والقحط .

* وعبر الله عنه باليوم دلالة على شدة العذاب وامتداده ، لأن الرسول ﷺ دعا عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السلام يعني عجافا قحطا لا خير فيها ، وفي الحديث أنهم أصابتهم سنة وليس يوما واحدا حتى أكلوا العظام والميتة ، وكما سبق فالיום يعبر عنه بالواقعة الشديدة التي اشتهرت في الناس وبقيت لها أثر فيهم ، حتى يعرف الناس كيف تكون أيام الله .

النوع الرابع : أيام متعلقة بالتشريع

وهي أيام ذكرها الله في القرآن الكريم مرتبطة بتشريعات كانت فيها دلالة عليها لبيان فضل هذه التشريعات وترقب اليوم الذي اقترنت به حتى تؤدي هذه التشريعات في ذلك اليوم المذكور وسواء في ذلك أكانت فريضة أم نافلة ، ويمكن أن يكون فيها يوم الحج الأكبر المشار إليه قبل ذلك على حسب اختلاف الناس في تحديده هل هو يوم عرفة لأنه ركن الحج أو هو يوم النحر لأنه يوم اكتمال الأركان ، ولكنني ذكرته في أيام النبوة لأنه جاء في مقام إعلام الناس بطهارة البلد الحرام من الشرك والأوثان وطهارة الحج من كل ما علق فيه من مخالفات وبدع لا أصل لها في الدين فلا طواف بعدها لمشرك ولا حج لمن يأتي عربانا .. إلخ .

وقد جاء في القرآن الكريم إشارة إلى أيام تشريعية أخرى كما يلي :

(١) - انظر : شرح النووي ٢٧/١٨ وتفسير الطبري ١١١/٢٥ والقرطبي ١٣٠/١٦-١٣١

وتفسير ابن كثير ١٣٩/٤-١٤٠ والتفسير الكبير ٢٧/٢٧-٢٠٨ وغيرها .

١- يَوْمُ الْجُمُعَةِ :

وقد أفردت لهذا اليوم سورة خاصة سميت بسورة الجمعة لأنها تحدثت عن الجمعة يوما وصلاة ، فالصلاة باعتبارها صلاة ذات مواصفات خاصة ارتبطت بهذا اليوم لأنها أصله ولا تصح في غيره ، وهي صلاة لها خطبة وأذانان اثنان ولا تكون إلا في جماعة ولا تكون إلا في المسجد ولا تكون إلا في أول وقت الظهر بحيث لا يصح لأحد إن فاتته الجمعة أن يصليها منفردا أو يصليها بعد انصراف الإمام .

وقد أشار الله إلى الصلاة من يوم الجمعة وإلى اليوم ذاته في أن واحد في قوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الجمعة ٩) وكان يمكن أن يقال في غير القرآن : إذا نودي لصلاة الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ولكن الله لما ذكر الصلاة ذكر بأنها من يوم الجمعة إشارة إلى فضيلة هذا اليوم وجميل عطاء الله فيه لهذه الأمة المحمدية .

* وأضيف اليوم إلى الجمعة لأنه يعرف بهذه الصلاة التي لا تكون في غيره من الأيام ، وليقول الله لنا : تذكروا نعمتي عليكم بهذا اليوم إذ الفضل فيه ليس مقصورا على الصلاة وحدها وإنما الفضل فيه كبير من أول اليوم إلى آخره بالصلاة وبغير الصلاة ، فهو يوم ينبغي أن يكثر فيه العبد من ذكر ربه لما أسبغ علينا فيه من الفضائل والنعم كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة ١٠) .

لأن يوم الجمعة خير يوم طلعت عليه الشمس ، قال رسول الله ﷺ : " خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ " (١)

** وقد خص الله به هذه الأمة دون سائر الأمم فأكرمها به يوم القيامة فجعلها أول الأمم وسابقتها ، كما قال رسول الله ﷺ :

" نَحْنُ الْآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيِّنٌ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أُوتِيَتْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا هَذَا اللَّهُ لَهُ فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ " .

وفي رواية ثانية قال : " نَحْنُ الْآخِرُونَ وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَيِّنٌ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَاخْتَلَفُوا فَهَذَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ هَذَا اللَّهُ لَهُ قَالَ : يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَالْيَوْمَ لَنَا وَغَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى " .

وفي رواية أخرى قال ﷺ : " أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَذَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُقْضَى لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ " (٢) .

* ومن كرم الله على هذه الأمة بهذا اليوم أنه ﷺ جعل لنا فيه ساعة إجابة ، قال النبي ﷺ : " فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي

(١) - الحديث رواه مسلم ٥٨٥/٢ كتاب الجمعة : باب فَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .

(٢) - متفق عليه رواه البخاري في كتاب الجمعة باب فَرَضِ الْجُمُعَةِ ومواطن أخرى انظر :

٢٩٩/١ و٣٠٥ و١٢٨٥/٣ ورواه مسلم ٥٨٥/٢ و٥٨٦ كتاب الجمعة : باب هَذَانِ هَذِهِ الْأُمَّةُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ .

يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ " وَقَالَ بِيَدِهِ !

قُلْنَا : يُقَلِّلُهَا يُزَهِّدُهَا " (١) .

** وهو يوم يضاعف الله فيه الأجر لمن بكر إلى الصلاة تكريما لهذه الأمة المحمدية ، وذلك قول النبي ﷺ : " مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمْعُونَ الذِّكْرَ " (٢) .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَأَلَّوْلَ فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَّأَ الصُّحُفَ وَجَاءُوا يَسْتَمْعُونَ الذِّكْرَ ، وَمِثْلُ الْمُهْجَرِ كَمِثْلِ الَّذِي يُهْدِي الْبَدَنَةَ ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْكَبْشَ ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الدَّجَاجَةَ ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَيْضَةَ " (٣) .
وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " مَنْ اغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَصَلَّى مَا قَدَّرَ لَهُ ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ ثُمَّ يُصَلِّيَ مَعَهُ غُفْرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ " وفي رواية : " وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ " (٤) .

(١) - الحديث بعدة روايات متفق عليه رواه البخاري في كتاب الجمعة : باب الدُّعَاءِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ٢٩٩/٣ و ٣٠٥ و ١٢٨٥/٣ و رواه مسلم ٥٨٥/٢ و ٥٨٦ كتاب الجمعة : باب فِي السَّاعَةِ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ .

(٢) - الحديث متفق عليه رواه البخاري ٣٠١/١ كتاب الجمعة : باب فَضْلِ الْجُمُعَةِ ورواه مسلم ٥٨٢/٢ كتاب الجمعة باب الطَّيِّبِ وَالسَّوَاكِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ .

(٣) - الحديث متفق عليه رواه البخاري ٣١٤/١ كتاب الجمعة : باب فَضْلِ الْجُمُعَةِ ورواه مسلم ٥٨٧/٢ كتاب الجمعة : باب فَضْلِ التَّهَجُّيرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ .

(٤) - الحديث رواه مسلم في كتاب الجمعة : باب فَضْلٍ مَنْ اسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ فِي الْخُطْبَةِ ٥٨٧/٢ و ٥٨٨ .

* والأحاديث في فضل اليوم يوم الجمعة كثيرة فوق فضيلة الصلاة نفسها ، ومن أجل هذا أشار الله إلى اليوم ولم يكتف بالحديث عن الصلاة فحسب ، لما في اليوم من فضائل وخيرات ينبغي أن يلتفت إليها المسلم فيشغل نفسه في هذا اليوم العظيم بعمل الخيرات والإكثار من ذكر واهب الفضل والنعم ﷻ .

٢ - يوم الحصاد لإخراج الزكاة :

حيث فرض الله ﷻ على المؤمنين الزكاة طهرا لأموالهم وتحديثا بنعمة الله عليهم وشكرا لربهم على ما تفضل عليهم به من العطاء دون غيرهم ومواساة لإخوانهم من الفقراء والمساكين الذين حرّموا من هذه النعمة التي أعطاهم الله إياها ، وكان من جملة ما فرض الله فيه الزكاة أنواعا من الزروع والثمار ، وقد جاء في القرآن الكريم ربط إخراج الزكاة بيوم الحصاد في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام ١٤١) .

* وبعيدا عن اختلاف المفسرين والفقهاء في المراد بالحق هنا هل هو الزكاة المفروضة أو هو صدقة عامة غير الفريضة ، وبعيدا عن اختلافهم أيضا في وجوب الإخراج الآن في وقت الحصاد أم يخرج بعد ذلك فإنني أقف هنا عند ذكر اليوم والمراد به الوقت أي وقت حصاده وإنما عبر باليوم مبالغة في كثرة الخير الذي يعود على الإنسان حتى كأنه يستغرق اليوم كله ، وأيضا لأن الحصاد أمر مشهور عند المزارعين ويكون يوم الحصاد بمثابة العيد لما فيه من الفرحة من الغلة والثمرة العائدة

من كدّ ونعب موسم زراعي بأكمله فيصبح يوم الحصاد يوما معلوما مشهودا ومشهورا عندهم عن غيره من الأيام ، حتى إن المزارعين يعلقون آمالهم وكثيرا من سبل معيشتهم ومناكحهم وشراء مستلزماتهم وكثير من أمور حياتهم على يوم الحصاد ، حتى أصبح الحصاد أجلا معلوما لكثير من الأمور في حياة الناس ، فلما كان اليوم مشهورا ومحبوبا وإليه تطلع النفوس حتى أصبح له ذكر بين الناس لا شك عبر عنه باليوم ليلفت الناس إلى نعمة الله عليهم فيه فيذكروا بالمنعم بالشكر والثناء .

* وكان يمكن أن يقول الله تعالى : وآتوا حقه حين حصاده وإنما عبر باليوم لأن الله يريد ربط النعمة بالمنعم وكأنه يقول : لا تتسوا في غمار فرحتكم بهذا اليوم شكر الله ﷻ الذي وهبكم هذه النعمة بإخراج حق المساكين في ذات اليوم الذي تفرحون فيه بالحصاد ليكون يوم خير وبركة وبشر وسرور على الجميع من عندهم الزرع يفرحون بحصادهم ومن ليس عندهم يفرحون بعظائهم فيعيش الجميع بالمواساة يوما طيبا يحسن فيه التكافل ويزداد فيه الفرح بنعمة الله ﷻ .

* وقد ذكر المفسرون في سرّ إضافة اليوم إلى الحصاد أن الله يريد المبادرة في إخراج الحق طيبة به نفس الحاصد حتى لا يؤخر عطاء الحق عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء ، وحتى لا تجنح النفوس إلى الشح بعد جمعه في البيوت وحتى لا يؤخر عن وقت الأداء ، وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتصفية خلاف ما يفعله العامة من خزنها مع ماله ، وليعلم أن الوجوب بالإفراك والطيب لا بالتصفية (١) .

٣ - يوم الصدقة في الشدة :

وكما كان يوم الحصاد يوما مميزا لدى المزارعين ولدى الفقراء حيث

(١) - انظر : تفسير ابن عجيبة ٢/٢١٣ وتفسير أبي السعود ٣/١٩٢ .

يتطلع الجميع فيه إلى الخير الذي يعود عليهم فإن الله ربط الصدقة وبين فضلها وعظيم ثوابها وكبير أجرها بيوم مشهود آخر ، يوم مميز وله أثر في ذاكرة الناس وهو يوم الشدة التي تحل بالناس حتى إن الله ﷻ جعل من وسائل اقتحام العقبة إلى الجنات أن ينفصل الإنسان بالإطعام في ذلك اليوم لشدة حاجة الناس فيه فقال تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ﴾ (البلد ١٤-١٦) .

والعقبة هي النار أو الطريق المؤدية إلى النار ، واقتحامها بمعنى تجاوزها بالعمل الصالح الذي يسلك بالإنسان طريقا إلى الجنة ، وقد بين الله تعالى أن اقتحام العقبة يكون بفك الرقبة وعقها فإن من أعتق رقبة في الدنيا أعتق الله رقبته من النار يوم القيامة ، ثم في الإطعام إطعام الجائعين من اليتامى والأقارب والمساكين ، وذكر الإطعام لأن الإطعام يدل على شدة الحاجة ولذلك ربطه باليوم الذي تكون فيه المسغبة وهي الجوع وشدة الحاجة إلى الطعام ^(١) .

* وفي التعبير باليوم من اللطائف ما يوضح المعنى المقصود حيث وصف اليوم بأنه ذو مسغبة واليوم زمن لا يوصف بأنه ذو مسغبة ولا ذو فضل ولا غنى وإنما هو يكون محلا للمسغبة أو الأكل وغيره ، وإنما وصف اليوم بذلك من باب المبالغة في إظهار الشدة والحاجة حتى كأن المسغبة استطالت حتى عمت اليوم كله فانتقل الوصف من الناس إلى الزمن وهو اليوم من باب المبالغة كما يقال : نهار صائم وليل قائم ^(٢) .

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ٥١٥/٤ وتفسير البيضاوي ٤٩٣/٥ واللباب ٣٥٣/١٦ .

(٢) - انظر : البحر المحيط ٤٧١/٨ وروح المعاني ١٣٨/٣٠ .

* وخص يوم المسغبة بالذكر لأنه يكون يوما شديدا على جميع الخلق فمن عنده طعام يخشى أن يطعم منه خوفا من نفاذه فيحتاج كما يحتاج غيره ، وهنا يكون الشح والحرص ويقل الإطعام ، مبالغة في بيان الفضل حتى إن جزاء الإنسان الذي يطعم في ذلك اليوم يكون من جنس العمل فإن الله يفرج عقبته في الآخرة كما فرج عقبة المحتاجين واليتامى والمساكين في ذلك اليوم .

قال ابن عاشور : (وجه تخصيص اليوم ذي المسغبة بالإطعام فيه أن الناس في زمن المجاعة يشدد شحهم بالمال خشية امتداد زمن المجاعة والاحتياج إلى الأقوات ، فالإطعام في ذلك الزمن أفضل ، وهو العقبة ودون العقبة مساعد متفاوتة) (١) .

* وعبر عن وقت وزمن المجاعة باليوم مع أنها قد تستمر أياما وشهورا أو سنينا خاصة مع الجفاف والقحط وقلة الموجدة لأنها في شدتها واستمرارها وتواصلها كأنها يوم ، ولأنها تذكر في الناس بعد ذلك باليوم فيتحدث عنها الناس باليوم فيقولون : اذكر يوم المجاعة أو يوم المسغبة لأن من عادة العرب التعبير عن أوقات الشدة وأوقات الفرج بالأيام .

النوع الخامس : يوم الموت

إذا كان الناس يطلقون على الأحداث المشهورة عند ذكرها لفظ اليوم فإنه لا حدث أشهر عند الناس من الموت لأنه أمر يعترف به المؤمن والكافر والقاصي والداني ولأجل هذا لما ذكر الله الموت ووقته عبر عنه باليوم معرفا بالآلف واللام للدلالة على أنه معروف لدى الكافة في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوٓا۟

(١) - التحرير والتتوير ٢٧٤/١٦ وانظر : روح البيان ٢٦٦/١٧ .

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ^ط الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿ (الأنعام ٩٣) .

والآية الكريمة تعطينا تصويراً هائلاً مخيفاً لما يكون عليه الظالم المكذب بآيات الله في وقت الوفاة حتى إن الموت يأتيه غمرات تغمره وتغطيه فلا يستفيق منها ، وإذا الملائكة باسطو أيديهم ينتزعون الأرواح والروح تهرب وتتفرق في الجسد فينتزعونها انتزاعاً ، وقد صور الله لنا في القرآن بعضاً من هذه الأحوال التي تغمره في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الأنفال ٥٠-٥١) وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ ﴾ (محمد ٢٧) .

وصور لنا الرسول ﷺ جانباً من هذه الأحوال بقوله ﷺ : " وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أَخْرِجِي إِلَى سَخَطِ بْنِ اللَّهِ وَغَضَبِ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزَعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ - وفي رواية قَالَ : فَيَنْتَزَعُهَا تَنْقَطِعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ - فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ

ريحٍ جيفةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ " (١) .

* والمقصود باليوم في الآية وقت الموت وساعته حين تحضره الملائكة فإنها تبشّره بغضب الله وسخطه وتبشّره بالعذاب عذاب الذلة والصغار والهوان بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وجاء لفظ اليوم معرّفاً للدلالة على العهد الكمالي وكأنه يقول لهم : هذا الذي يستحق أن يقال عنه اليوم لما فيه من الأهوال الجسام ، وغيره من الأيام لا تساوي بجانبه شيئاً بل إنهم ينسون في هذا اليوم بسبب ما يلاقونه كل ما كان في أيام حياتهم ولا ينشغلون إلا بذلك اليوم .

* وبرغم أن الموت يكون في لحظات قليلة إلا أن الله عبر بلفظ اليوم لأن تلك اللحظات هي بداية ليوم لا ينتهي أبداً وهو اليوم الآخر واستحق وقت الموت أن يعبر عنه باليوم لأنه يوم فاصل في وجود الإنسان حيث ينتهي العمل وينقطع التكليف ويخرج الإنسان من عالم الغيب إلى عالم الشهادة فيرى كل ما أخبر به من طريق الوحي عياناً وتبدأ مرحلة الحساب والجزاء في القبر ثم يبعث في يوم القيامة بنشأة جديدة ، فإما أن يريد باليوم وقت الإمامة وإما أن يريد به الوقت الممتد من تلك اللحظة وما بعدها إلى ما لا نهاية (٢) .

(١) - جزء من حديث طويل رواه البراء بن عازب عن النبي ﷺ رواه الإمام أحمد في المسند ٢٨٧/٤ والطبري في المسند ١٠٢/١ وابن أبي شيبة في المصنف ٥٥/٣ والطبري في تهذيب الآثار ٢١٢/٢ والبيهقي في شعب الإيمان ٤٦٢/١ وغيرها وانظر تفسير ابن كثير ٢١٤/٢-٢١٥ والدر المنثور ٤٥٤/٣ والترغيب والترهيب ١٩٦/٤-١٩٧ وقال الحافظ المنذري : هو حديث حسن رواه محتج بهم في الصحيح .

(٢) - انظر : تفسير الكشاف ٤٣/٢ وأبي السعود ١٦٣/٣ والنسفي ٣٣٥/١ .

* والدليل على أن اليوم ممتد من وقت الموت إلى ما لا نهاية قوله تعالى في شأن الموت وما بعده : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۚ ۝ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۚ ۝ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٍ وَشَهِيدٌ ۚ ۝ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكُشِفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝ ﴾ (ق ١٩ - ٢٢) .

فالآية ربطت وقت مجيء الموت وسكرته بالنفخ في الصور وما يتبعه من حشر وسوق وشهادة وحكم وتأنيب حتى إن الإنسان ليبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا بعد أن كشف الغطاء عنه . والله أعلم .

المبحث الثالث

يومُ القيامةِ

تمهيد :

وهو الغالب الذي جاء عليه لفظ اليوم في القرآن مطلقا ، ويأتي معرفا مجردا عن الوصف والإضافة للدلالة على العهد حيث يسبقه ما يدل عليه وكأنه هو اليوم وحده وما سواه من الأيام لا قيمة لها بجانبه لأنه يوم البقاء والخلود أما سائر الأيام فقد فُتيت وانقطعت ومضت إلى غير رجعة ، ولما كان الأمر كذلك صح تعريفه بالعهد لأنه هو وحده الموجود على الساحة إلى ما لا نهاية ، ومن اللافت للنظر في القرآن الكريم أن أغلب الآيات التي جاء الحديث عن يوم القيامة فيها معرفا كان الحديث عنها عن الكافرين المكذبين ، وقليل منها عن المؤمنين ، وكان الله يقول لهم : هذا هو اليوم الحقيق بأن يذكر وأن يعرف وأن يقال عنه يوم ، وذلك في مقابل إنكارهم وتكذيبهم المستمر وسخرتهم الدائمة .

* ومن الآيات التي جاء فيها معرفا مع سبق الإشارة إليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل ٢٧) والإشارة هنا إلى ما يكون فيه من خزي وسوء وشر على الكافرين يراه أهل الحق وأصحاب العلم الذين كانوا يؤمنون به ، وإنما يأتي الكلام على ألسنتهم إعلانا بفرحهم بتحقيق موعود الله لهم بما هم فيه من الخير ، وزيادة الفرح وهم يرون الخزي والذلة والصغار على وجوه الكافرين المعاندين .

* ومنها ما أشير به إلى اليوم على أنه يوم الحساب ويوم العدل حتى

إن الله يكل حساب المرء لنفسه يقينا بعدل الله وأنه يوم لا ظلم فيه على الإطلاق ، لأن كل شيء مسجل في الكتاب بدقة وأمانة ، ومن ثم يدعى كل إنسان إلى كتابه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء ١٤) وقال تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجمعة ٢٨) .

* وجاء ذكر اليوم ظرفا معبرا عن تخطيط الظالمين وتحيرهم وضلالهم في ذلك اليوم لسابق ضلالهم وتخطيطهم في الدنيا برغم أن الله قد كشف الغطاء عن أسماعهم وأبصارهم لدرجة التعجب من شدة سماعهم وقوة بصرهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ط لَا يَكُنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (مريم ٣٨) .

* وجاء ذكر اليوم في مقام الترهيب وتخويف الكافر من نسيانه وإهماله في نار جهنم فلا يذكره الله بخير ولا برحمة لأنه سبق ونسي آيات الله التي جاءت على لسان الرسل وفي طي الكتب ، فإذا ما تعجب لتبدل حاله من الرؤية والبصر في الدنيا إلى العمى والظلمة في الآخرة قيل له : إن الجزاء من جنس العمل ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ (طه ١٢٦) وقال تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (الجمعة ٣٤) .

* وإنما يقال لهم ذلك نظرا لوضوح كل شيء وعدم خفاء أي شيء منهم عن الله ، ولذا جاء ذكر اليوم ظرفا لما يعبر عن شدة الظهور وعدم

الخفاء في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ ﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ (غافر ١٦-١٧) .

* وجاء ذكر اليوم أيضا في مقام تصوير مدى الإهانة التي تلحق بالكافرين في شدة جوارهم وارتفاع صيحاتهم بسبب شدة العذاب الذي يحل بهم وبمترفيهم ، وإنما خص المترفين بالذكر زيادة في النكال والخزي لأنه إذا ظهر المترفون وهم يعذبون ويتيقن الناس أنهم لا سند لهم ولا ظهير ولا ناصر رغم ما كانوا عليه في الدنيا فإنه ينقطع رجاء كل متأمل فيهم نصرة أو إنقاذ ، وهم برغم الصياح والجوار لا يلتفت إليهم أبدا ولا يُغاثون ولا يُفرج عنهم ما هم فيه من كرب وشدة ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ۝ ﴾ لَا تَجْرُوا الْيَوْمَ ۚ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصَرُونَ ﴿ (المؤمنون ٦٤-٦٥) .

* ويأتي اليوم أيضا بذكر صورة من صور الندم والعذاب الذي يحل بالكافرين لدرجة أنهم من شدة العذاب يدعون على أنفسهم بالثبور والهلاك والفناء ، فيزيد الله من التهكم بهم وإيلاهم بالسخرية منهم فوق ما هم فيه من عذاب جهنم فيقال لهم : لا تلبوا في دعائكم هلاكا واحدا بل اطلبوا الكثير وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ ﴾ (الفرقان ١٤) .

* ويأتي اليوم ظرفا للنداء عليهم بالتمايز والانفراد عن المؤمنين

لأنهم لا كرامة لهم عند الله ولا قيمة ولا وزن في قوله تعالى : ﴿ وَامْتَرُوا
الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴾ (يس ٥٩) .

* وينظر الناظر إلى الكافرين المستكبرين الذين تجبروا في الأرض
بغير الحق وتعالوا على خلق الله بنعمة الله فإذا هم في غاية الذلة والصغار
والهوان ، تراهم مستسلمين لأمر الله لأنهم أيقنوا أن الحكم لله وأنه لا ناصر
لهم ولا ولي من دونه يمكن أن ينفعهم أو يدفع عنهم ، قال تعالى : ﴿ بَلْ
هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (الصفافات ٢٦) .

* فإذا حاولوا أن يعتذروا ويعترفوا بما قدموا وبتقصيرهم بغية النجاة
فإن الله يرد عليهم في ذلك اليوم المشار إليه بأنه لن يقبل منهم اعتذار لأن
زمان العمل والاعتذار والتوبة ولى وانتهى ، أما اليوم فهو يوم الجزاء على
العمل ، قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ۚ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التحريم ٧) .

* فإذا حاولوا الإنكار ختم الله على أفواههم وأنطق الله جلودهم
وأيديهم وأرجلهم فنتطق بعملهم السيئ ، ثم هم يعرضون على النار فيرونها
عيانا وحقيقة واقعة لا شك فيها ولا ريب ، ثم يقحمهم الله فيها فإذا دخلوها
لحقهم التوبيخ والتبكيت والتأنيب على ما سبق منهم من تكذيب فيقال لهم :
هذه هي النار فاصلوها حتى تصدقوا بها ، ومهما صدقوا فلن يفيدهم
التصديق لأنه قد انقضى زمن التصديق والتكليف قال تعالى : ﴿ هَذِهِ

جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٢٤﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٢٥﴾

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٣-٦٥﴾ .

* ويذكر اليوم معرفا ويشار به في نهاية المطاف بعدما صور الله ما يحدث لهم فيه بأنه هو اليوم الذي كانوا يوعدون به في الدنيا فلم يصدقوا ولم يلتفتوا ولم يرعوا عما كانوا فيه من غي وضلال وإفك قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج ٤٤) .

* ويذكرهم الله تعالى باليوم وهم أحياء في الدنيا بأنهم سيتقدمون يوم القيامة وأنهم إذا كانوا اليوم متآلفين على الكفر متحابين في الضلال متناصرين على العناد والباطل فإن ذلك لن ينفعهم يوم القيامة إذا اشتركوا في العذاب وأدخلوا نار جهنم حيث لا ينفع أحد أحدا ولا ينجي كبير صغيرا ولا يتحمل صغير عن كبير ، لأن كلا من الصغير والكبير والرئيس والتابع مرهون بعمله ومجزى عن نفسه ، ولا ينفع حميم حميما وكل له عذاب ينفرد به فوق العذاب الذي يشتركون فيه ، قال تعالى : ﴿ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرٌ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف ٣٩)

وقال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴾ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنَّ

﴿٣٦﴾ غَسِيلٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ (الحاقة ٣٥-٣٧) .

*** هذه صورة اليوم في جانب الكافرين ، أما في جانب المؤمنين فإن الصورة مختلفة تمام الاختلاف فإنهم يخرجون من قبورهم في ذلك اليوم مطمئنين يعرفون إلى أين يحشرون لسابق إيمانهم من ناحية ولأن الملائكة تستقبلهم بالبشارة من ناحية أخرى ، وقد ذكر الله ذلك مرتبطا

باليوم في قوله تعالى : ﴿ يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الزخرف ٦٨)

* وهناك في موقف العرض وفي ذلك اليوم ينعم الله عليهم بالنور يسعى أمامهم وعن أيمنهم فيسيرون في نور الله يوم القيامة مصحوبين بالبخارة الكريمة ينفردون بالنور عن المنافقين حتى إن المنافقين من فرط فزعهم يتوسلون إليهم أن يمهلوهم وينتظروهم ليسيروا في نورهم بعد أن انقطع نورهم بسبب نفاقهم وعودتهم إلى الظلمات في الدنيا ، وهيهات فلكل إنسان عمل ولكل إنسان جزاء ، وكل له من النور بحسب عمله الصالح ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١٠) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ (الحديد ١٢-١٣) .

* وإنما منحهم الله ذلك النور وأنعم عليهم بالفرحة والسرور لأنهم قدموا من الخوف والعمل في الدنيا ما استحقوا به السلامة والنجاة من ظلمات الآخرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُوبًا قَمَطِرًا فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (الإنسان ١١) .

وكانت النهاية العظيمة في ذلك اليوم الفوز العظيم بسبب صبرهم وتحملهم المشاق والصعاب في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (المؤمنون ١١١) .

وكانت النهاية الطيبة في ذلك اليوم هي الاشتغال بالنعيم والتفكه
والسرور والمتاع الخالد هم وأزواجهم ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
فَنِيهِونَ ﴿٥٨﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٩﴾ هُمْ فِيهَا
فَنِيكُهُمْ وَمَا يَدْعُونَ ﴿٦٠﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (يس ٥٥-٥٨) .

*** والفائدة من تعريف اليوم وإطلاقه في كل تلك الآيات المعبرة
عن المواقف والأحوال المختلفة هي الدلالة على الكمال في الصفة كأنه إذا
قُيِّمَت الأيام برز من بينها يوم القيامة باعتبار أنه وحده اليوم الذي يصح أن
يطلق عليه اليوم ، وما دونه من سائر الأيام فإنها لا تقارن به ، ويكون
المعنى : هذا هو اليوم ولا يوم سواه ، وذلك لأن كل الأيام سواه عدم وفناء
أما هو فيوم البقاء والخلود بلا انتهاء ولا انصرام .

وجاء لفظ اليوم المراد به يوم القيامة معرفاً موصوفاً بالآخر في مقابل
الدنيا ، أو نكرة معرفاً بالإضافة التي تبرز لنا جانباً من الأسماء التي أطلقت
على يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال وأحوال ، ومن ثم يمكن تناول
الحديث عن يوم القيامة في مطلبين كما يلي :

المطلب الأول : أسماء وأوصاف يوم القيامة

المطلب الثاني : أوصاف وأهوال يوم القيامة

المطلب الأول

أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم

وأهم هذه الأوصاف مرتبة على حسب عدد مرات ورودها في القرآن الكريم ما يلي :

الاسم الأول : يوم القيامة

جاء مضافا إلى القيامة ليعرف اليوم بيوم القيامة في سبعين موضعا من القرآن الكريم ، وسمي بذلك لقيام الناس فيه من قبورهم بعد البعث لرب العالمين كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ (١) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (المطففين ٤-٦) .

وفيه يقوم الأشهاد الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ويشهدون حال كل إنسان من كان في الخير ومن كان في الغم والخزي ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٢) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (غافر ٥١-٥٢) .

وفيه يقوم الحساب فيحاسب كل إنسان بما قدم وما عمل ، قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم ٤١) .

وفيه يقوم الروح وتقوم الملائكة صفا بين يدي الملك بلا كلام قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (٣) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ ﴾ (النبا ٣٨-٣٩) .

* وقد ذكر الله القيامة في القرآن الكريم وبها سميت سورة كاملة

سورة القيامة ، وللدلالة على عظمة هذا اليوم وتقريره في نفوس البشر أقسم الله به في القرآن الكريم على ما يكون فيه من حساب وجزاء واختلاف في أحوال الناس ومواقفهم يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ (القيامة ١) وجاء القسم بهذا اللفظ للدلالة على شدة وضوح أمره وظهوره لدى كل عاقل وكل مفكر ومتأمل حتى إنه من فرط ظهوره وشدة وضوحه لا يحتاج إلى القسم ، لأن نفي القسم من أبلغ القسم لما فيه من الدلالة على وضوح عظمة ما يقسم الله به وعليه وهو يوم القيامة هنا ، فإن العقل السليم لا يمكن إلا أن يهتدي إلى حقيقة أنه لا بد من البعث والحساب والجزاء وهذا مقتضى العدل الذي خلق الله الدنيا عليه ، وإلا أصبح كل شيء في الحياة بلا قيمة .

* وذكر اليوم بهذا التعريف " يوم القيامة " فجاء ظرفاً لما يكون فيه من أهوال وأحوال مختلفة باختلاف أفعال العباد وأعمالهم وما يترتب على الأعمال من حساب وجزاء ، ولأن ذكر يوم القيامة بهذا الاسم كان أكثر الأسماء في القرآن الكريم فقد غلبت به التسمية على بقية الأسماء يليه في ذلك التسمية باليوم الآخر ثم بقية الأسماء كل يشتهر على قدر وروده في القرآن الكريم .

* وجاء ذكر يوم القيامة مقترناً بأحوال مختلفة منها ما يخص المؤمنين ومنها ما يخص الكافرين ، ومنها ما يشير إلى بعض الأحداث التي تكون فيه بصفة عامة كالميزان والصراط والحكم والفصل وغيرها ، لكن الملاحظ أن ذكر يوم القيامة في كل آيات القرآن جاء مقترناً بالمكلفين وأعمالهم ومآلهم ، ولم يرد هذا الاسم في بيان ما يكون بين يدي الساعة من علامات أو أحداث كونية إلا في آيات سورة القيامة فحسب إجابة على سؤال الإنسان الكافر عن مواعدها ، وبالتالي يجيبه الله بذكر الأحداث التي

تسبقها في قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ ﴾ ﴿١﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٢﴾ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ﴿٣﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٤﴾ وَجُمِعَ الشَّشَشُ
وَالْقَمَرُ ﴿٥﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُءُ ﴿٦﴾ (القيامة ٥-١٠) .

* فذكر يوم القيامة هنا ليس ظرفا لهذه الأحداث وإنما يأتي بعدها
دلالة على أنها تسبقه ، أما في كل الآيات التي جاء فيها ذكر يوم القيامة فقد
جاءت ظرفا لأحوال تخص المكلفين فحسب ، وذلك لأن اللفظ يدل على قيام
الساعة وخروج الناس من قبورهم بالفعل فهم في تلك الحال في موقف
العرض على الديان ، والتعبير بالقيامة هو التعبير المناسب لتوصيف تلك
الحالات كما يلي :

أولا : الدلالة على ملك الله وقدرته يوم القيامة

حيث ذكر الله تعالى أنه يطوي السماء والأرض فتكون في قبضته يوم
القيامة دلالة على القهر والقوة والسلطان ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ
حَقَّ قَدْرِهِ ۚ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتُ
بِئَمِينِهِ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر ٦٧) وقد جاء في
تفسير هذه الآية : " جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : " يَا
مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ وَالشَّجَرَ
عَلَى إصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالْثَرَى عَلَى إصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إصْبَعٍ فَيَقُولُ : " أَنَا
الْمَلِكُ " فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قرأ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا
قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتُ بِئَمِينِهِ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا

بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنَّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَرِيدًا ﴿١٥٩﴾ (النساء ١٥٧-١٥٩)

* ومنها ما جاء في شأن اليهود والنصارى وما قذف الله في قلوبهم من العداوة لبعضهم في الدنيا وإلى يوم القيامة ، فبعد أن ذكر اليهود ذكر النصارى في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة ١٤) .

ومثلها ما نزل في شأن اليهود خاصة حيث يلقي الله في قلوبهم البغضاء لبعضهم البعض بسبب أنهم يتبعون أهواءهم وشهواتهم فيتفرقون عن الحق حتى إنهم لشدة اتباعهم الهوى والشهوات لا يزيدهم ما جاء به الرسول ﷺ من رسالة الحق إلا طغيانا وكفرا حسدا لرسول الله وللمسلمين ، قال تعالى : ﴿ وَلَيَرِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَتُرِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَالَّذِينَ يَبْنِيهِمُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ (المائدة ٦٤) .

ومثلها ما جاء فيهم أيضا من أن الله يسلط عليهم في الدنيا من يسومهم سوء العذاب بسبب كفرهم وعنادهم وجحودهم بآيات الله عقابا لهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَأَذَّنْ وَإِذْ رَبُّكَ عَلَيْهِمْ كَلِمَتٌ ۖ وَإِلَى الْقِيَمَةِ يَوْمِ سَوْءِ يَسُومُهُمْ ۚ الْعَذَابُ ۚ ﴾ (الأعراف ١٦٧) وهذا يدل على أنهم سيظلون يعاندون الحق إلى يوم القيامة وسيظل المسلمون يسلطهم الله عليهم

فيحاربونهم ويذيقونهم ألوانا من العذاب في الدنيا بالقتل والأسر وضياع الأموال ، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
 " تَقَاتِلُكُمْ الْيَهُودُ فَتَسْلُطُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَأَيْتُ فَاقْتُلْهُ "

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولَ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْغَرَقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ " (١) .

فإن قيل : إن اليهود هم المسلمون على المسلمين وهم الذين يسومون إخواننا في فلسطين اليوم وبالأمس سوء العذاب حيث يقتلون ويحبسون ويكسرون العظام ويهدمون البيوت ويسلبون الأرض ويدمرون الأرض والأموال ، وهذا مخالف لما جاء في الآية ؟

قلت : إن هذا وإن كان واقعا اليوم فإنه بسبب ضعف المسلمين وتهاونهم وتخاذلهم في الدفاع عن مقدساتهم وأعراضهم ، وإني لعلّ يقين أن ذلك لن يستمر طويلا وإن وعد الله أت لا محالة وأراه أقرب مما نظن ونتحيل حيث لاحت بشائر الفرج وبوادر النصر ، وسيتحقق وعد الله إن شاء الله

* ثم من يقول : إن المسلمين رغم ذلك لا يسومونهم سوء العذاب وهذا الذي يفعله رجال المقاومة البواسل في الأرض المحتلة يقض مضاجعهم ويجعلهم في رعب دائم وخوف مستمر ، ولا يفسر هذا الرعب إلا ذلك البطش الشديد الذي يرتكبونه في حق المسلمين ، فلا يفعل ذلك إلا

(١) - الحديث بروايتيه في صحيح مسلم ٢٢٣٩/٤ كتاب التوبة : باب لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْمَيِّتِ مِنَ الْبَلَاءِ .

من كان خائفا مذعورا ، وأمرة ذلك ما بينونه حول دورهم ومستوطناتهم من أسوار يسمونها الجدار العازل ينزلون بها عن المسلمين في محاولة لدفع ذلك العذاب الذي جلبوه لأنفسهم باحتلالهم الأرض ، ليس ببعيد عنا ما حدث لهم من قهر وتكليف في معركة العاشر من رمضان ، وما جرعته إياهم مقاومة الأبطال في لبنان عنا ببعيد حيث اندحروا يجرون أذيال الخيبة والهزيمة .

* وأيضا فإن الصورة تختلف برغم أن الأيام دول وأن الحرب سجال وذلك أن كل جراحة للمسلمين إنما هي أمانة كرامة وعزة وكل قتل شهادة ينال بها المسلم الجنة ، أما جراحاتهم فعذاب وألم وأما موتهم فإلى النار ، وهم يعرفون ذلك جيدا ويدركون قيمة الحياة الدنيا فهي الأعلى والأثمن لأنهم يدركون أنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار ولذلك تراهم حريصين على الدنيا أكثر من أي أحد ، ومهما كانت إصابة الواحد منهم بسيطة إلا أنها تتحول إلى نكبة وعذاب وألم لا نهاية له ، وسيأتي يوم يتحقق فيه وعد الله فتلفظهم الأرض ويمقتهم الحجر والشجر ولا يجدون ملجأ ولا ملاذا ، وعلى هذا ينبغي أن يكون إيمان المؤمن وإلى هذا ينبغي أن يسعى ويعمل ، وقد قال الله عن أسلافهم في القرآن الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ^ط وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ^ط وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿ (الحشر ٢) وها هم اليوم يظنون أيضا أنهم مانعتهم حصونهم وطاقرائهم ودباباتهم وصواريخهم وغواصاتهم من الله وظن ضعاف الإيمان من المسلمين أنهم لن يخرجوا ولن يقدر المسلمون على

إخراجهم ، وجنود الله هي هي وها هو قد سلط عليهم الرعب أمانة للمؤمنين وعبرة لمن أراد أن يعتبر ، وما زال الله إلى اليوم وإلى يوم القيامة يسلط عليهم من جنده من يسومهم سوء العذاب .

* ومنها ما جاء في ذكر القرى الظالمة وما قرره الله عليها من العذاب أو الهلاك والدمار في الدنيا وقبل يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (الإسراء ٥٨) .

* ومنها ما جاء في تصوير تفاهة الكافر وشدة ضلاله حتى إنه يدعو من دون الله من لو ظل يدعو إلى يوم القيامة فإنه لا يلتفت إليه ولا يسمع له ولا يدري به فضلا عن كونه لا يستجيب له ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴾ (٥) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (الأحقاف ٥-٦) .

* ومنها ما جاء في معاندة إبليس واستكباره ورغبته في إغواء بني آدم حتى إنه طلب أن يمهله الله إلى يوم القيامة ليقوم فيهم بالإفساد والإضلال ظنا منه أنه بقدر على ذلك ، وقد خاب والله ظنه فلا يتبعه إلا من كتب الله عليهم الشقاء من أمثاله ، أما المؤمنون الصادقون فلا سلطان له عليهم ولا حيلة له إليهم باعتراف اللعين وذلك لتمسكهم بحبل ربهم عز وجل قال تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتِنِّي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَآخُتِنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٦٢) .

* ومنها ما جاء في تذكير الناس بنعمة ربهم عليهم بتسخير الليل والنهار ودورانهما على الخلق بنظام ثابت يسمح للناس بالحركة والراحة فتستمر حركة الحياة بلا نصب ولا خلل ولا تعب ، وذلك بأن يطرح عليهم السؤال التالي ليتفكروا في آلاء الله ويحمدوا الله على ما وهبهم وما هيا لهم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ۖ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ ۖ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ (القصص ٧١-٧٣) .

* ومن ذلك ما جاء في مقام التهكم والسخرية من الكافرين الذين يظنون أن الناس في الموت سواسية وأن الكل سيموت ولا رجعة ولا حساب ولا جزاء ، وأن المسلمين في ذلك كالمجرمين ، فأبطل الله كلامهم بأنهم يقولون هذا الكلام بغير مستند من كتاب منزل ، ولا أعطاهم الله عهدا إلى يوم القيامة وأباح لهم أن يحكموا من خلاله بما شاءوا أو يقولوا ما أرادوا ، وليس لهم شريك يخبرهم من دون الله وليس لهم اطلاع على الغيب فيخبروا من خلال ما يعرفونه ، قال تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمُنٌ عَلَيْنَا بَلِغْتُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ ﴾ (القلم ٣٩) .

الصورة الثانية : أن يأتي يوم القيامة في مقام ذكر العذاب الذي يحل بالمكذبين في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك ما جاء في اللعنة التي حلت على

عاد قوم هود في الدنيا والآخرة في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَّا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود ٦٠).

* ومنها ما جاء في المصير الذي حل بفرعون وقومه من عذاب ولعنة في الدنيا بسبب اتباعهم إياه ، وما ينتظرهم من عذاب ولعنة في يوم القيامة بسبب جرأته على الله وكفره بآياته ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۚ يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ۚ ﴾ (١٧٨) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ بِئْسَ الزَّيْفُ الْمَرْفُودُ ﴾ (هود ٩٧-٩٩) .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۚ ﴾ (١٧٩) وَأَتَّبِعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (القصص ٤١-٤٢) .

* ومن ذلك أيضا ما جاء في وعيد اليهود بسبب مخالفتهم نصوص العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم بألا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم فتوعدهم الله بالخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمُ اسْتِزَارٌ تُفْئِدُوهُمْ وَهُوَ مَحْرَمٌ عَلَيْكُمْ ۚ إِخْرَاجُهُمْ أَفْئُوتٌ مِّنْكُمْ يَبْعَثُ الْكِتَابُ

وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿البقرة ٨٥﴾ .

* ومن ذلك انتفاء وجود من يدافع أو يجادل عن المنافقين يوم القيامة لأن الحق يومها سيكون واضحاً جلياً ولا يستطيعون أن يلبسوا على أحد أو يخدعوا أحداً من الناس ، كما حدث في قصة بني أبيرق الذين بيتوا الشن وغدروا ببيت من المسلمين وسرقوا منه الدرع والدقيق فلما انكشف أمرهم وضعوا المسروقات في بيت رجل من اليهود أو رجل من المسلمين وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يبرئهم بين الناس وهو لا يعلم بأمرهم وكاد رسول الله أن يفعل ذلك حتى فضحهم الله وتوعدهم بالعذاب في الآخرة ، قال تعالى يخاطب رسوله ﷺ : ﴿ هَاتِئْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (النساء ١٠٩) .

* ومن ذلك تبكيت الكافرين والظالمين وتوبيخهم بسبب افتراءهم الكذب على الله وزعمهم أن الله حرم عليهم أشياء لم يحرمها الله وأحل لهم أشياء حرمها الله ، فكيف بهم إذا جاعوا يوم القيامة ورأوا باطلهم عياناً وأيقنوا بأن ما ذكره الله في الدنيا هو الحق ؟ فماذا يكون شأنهم وحالهم في تلك الساعة ؟ قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿يونس ٥٩-٦٠﴾ .

* ومن ذلك ما يصيب الكافرين المجادلين في الله من خزي في الدنيا وما يصيبهم يوم القيامة في موقف العرض ثم بعده في النار من عذاب الحريق بسبب ذنوبهم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ۝ ﴾ (الحج ٨-١٠) .

* ومنها ما جاء في المقابلة بين صورة الكافرين وتوادمهم واجتماعهم على نصره الباطل ومخالفة الحق في الدنيا بينما يأتون يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا لما رأوا من الحق بعد فوات الأوان وبعد دخولهم نار جهنم وساعت مصيرا ، هناك أدركوا أنهم اتبعوا بعضهم بعضا على الباطل فانقلب المودة إلى عداوة وخسران وندم قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝ ﴾ (العنكبوت ٢٥) .

الصورة الثالثة : أن يأتي ذكر يوم القيامة في مقام الدعاء بالنجاة والخير يوم القيامة أو ذكر شيء طيب يكون للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، كما جاء من دعاء المؤمنين في تسبيحهم وصلاتهم أن يرفع الله عنهم الخزي والهوان يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعَادَ ۝ ﴾ (آل عمران ١٩٤) .

* ومن ذلك ما ذكره الله من أمر الزينة والطيبات من الرزق فقد أباحها الله للمؤمنين في الدنيا وأمرهم بالتمتع بها وعاب على من يحرم ذلك على نفسه فهي مباحة لهم في الدنيا وهي خالصة لهم دون الناس يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ يَبْنِيْٓءَآدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴾ (٣١-٣٢) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللّٰهِ الَّتِيْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴿ (الأعراف ٣١-٣٢) .

الصورة الرابعة : أن يأتي يوم القيامة في مقام الحديث عن أمر واقع في الدنيا يثبتته الله ويؤكدته حتى لا ينكره الناس في الآخرة ، كما جاء في العهد والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم وهم في صلب آدم وأشهدهم الله على أنفسهم حتى لا يقع منهم إنكار أو جحد ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۗ شَهِدْنَا ۚ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غٰفِلِيْنَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (الأعراف ١٧٢-١٧٣) .

ثالثا : ذكر يوم القيامة ظرفا لما يحدث للناس كافة

حيث يرد لفظ يوم القيامة ظرفا لما يكون عليه الناس جميعا في ذلك اليوم بدون تفريق في الحدث بين مؤمن وكافر ، كذكر يوم القيامة ظرفا

ليبعث الناس جميعا من قبورهم بعد موتهم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعْمُوتُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿ (المؤمنون ١٥-١٦) * ومثله مجيء يوم القيامة ظرفا لجمع الناس فيه بعد بعثهم في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ لِيَجْمَعَ كُفُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٨٧) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ قُلْ لِلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لِيَجْمَعَ كُفُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ ۚ ﴾ (الأنعام ١٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجنات ٢٦) .

* ومنها ما يقابل الله به بين صاحب العمل الطيب الذي وعده الله وعدا حسنا على حسن عمله وطيب فعله فيأتي يوم القيامة ليلقى هذا الوعد الحسن ، وذلك الأبعد الذي ينال حظه في الدنيا ويأتي يوم القيامة فيحضر إلى النار بلا خير ولا عمل ، ليبين الله لنا بهذه المقابلة أن متاع الدنيا كله لا يساوي غمسة في نار جهنم يوم القيامة قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (القصص ٦١) .

* ومنها الإشارة إلى أن كل إنسان يأتي ربه يوم القيامة بمفرده ليس معه مال ينفعه ولا ولد يدفع عنه ولا ناصر يحميه ولا ولي يشفق عليه ، وقد جاء هذا في مقام الرد على الكافر الذي يزعم أنه سيكون له من المال

والولد يوم القيامة - إن كان هنالك قيامة - ما يدفع به عن نفسه يقول :
لَأُوتَيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا لَا وُلَدًا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن كُُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ
عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٤﴾ (مريم ٩٣-٩٥) .

* ومن ذلك الإشارة إلى تعلق كل إنسان بكتابه الذي يخرج به الله له يوم
القيامة وقد سُجِّلَ فيه كل عمله ، حيث ينادى على كل إنسان في موقف
العرض بأن يقرأ كتابه حتى يكون الحكم منه على نفسه بناء على ما يقرأ من
عمله الذي اكتسبه في حياته وسجلته عليه الملائكة ، قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ
إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا
﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء ١٣-١٤) .

* ومن ذلك أيضا أن الله يخبر العباد بأنه مطلع عليهم عليهم بأعمالهم
مهما كانت في خفاء أو علن وسيأتي الله بالأعمال يوم القيامة فينبئ بها الناس
في مقام الترغيب للمؤمن بأنه مهما عمل من صالح في خفاء أو سر فإن الله
سيظهره ويجزيه عليه خيرا ، وفي مقام الترهيب لمن يعمل السوء أيضا أنه
مهما عمل من سوء في خفاء أو علن فإن الله سيظهره ويبيده ويحاسبه عليه
يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة ٧) .

* ومن ذلك ذكر يوم القيامة مقترنا بوضع الله ﷻ لموازين الحق من أجل الحكم بين الناس ، وليعلم الناس أن العدل هو أساس الحكم والفصل في ذلك اليوم فلا ظلم لأحد من الخلق أبداً ، وليوقنوا بأنه لم يضع عليهم مثقال خردلة ، قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء ٤٧) .

رابعاً : ذكر يوم القيامة مقترنا بما يحدث للكافرين المحرمن فيه
حيث ذكر الله يوم القيامة مقترنا بأهوال وألوان من العذاب تنزل بالكافرين في وقت القيامة بين يدي رب العالمين وقبل دخولهم النار * ومن ذلك أن الله ﷻ توعدهم بالغضب والخصومة والإعراض عنهم في ذلك اليوم بسبب كتمانهم الحق وتركهم ما أنزل الله ابتغاء عرض زهيد من أعراض الدنيا ، ولعل أهل الكتاب هم المقصودون بذلك لأنهم هم الذين لديهم علم بالكتاب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ۖ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة ١٧٤) .

* ومثل ذلك الوعيد لمن يجترئون على أكل أموال الناس بالباطل فيحلفون الأيمان الفاجرة زورا وبهتاناً طمعاً في مغنم قريب وعرض حقير قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ۖ أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا

يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ (آل عمران ٧٧) وقد نزلت هذه الآية في خصومة بين رجل من المسلمين هو الأشعث بن قيس ؓ ورجل من اليهود

فعن عبد الله بن مسعود ؓ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ "

قَالَ : فَقَالَ الْأَشْعَثُ : " فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَلَاكَ بَيِّنَةٌ ؟ " قُلْتُ : " لَا " قَالَ : فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ : " احْلِفْ " قَالَ : قُلْتُ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا يَحْلِفُ وَيَذْهَبُ بِمَالِي "

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا

﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (١) .

* ومن ذلك وصف حالة بعثهم وقيامهم في هذا اليوم وهم يحملون الأوزار وما ارتكبوه من فضائح في الدنيا على ظهورهم يوم القيامة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران ١٦١) .

* ومثلها ما جاء في حملهم الأوزار على ظهورهم مقتربا بذكر يوم

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري في الصحيح كتاب الخصومات : بَابُ كَلَامِ الْخُصُومِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ وَمَوَاطِنُ أُخْرَى . انظر : ٨٣١/٢ و ٨٨٩ و ٩٤٨ و ٩٤٩ و ٩٥٠ و ٩٥١ و ١٦٥٦/٤ و ٢٤٥٢/٦ و ٢٤٥٨ و رواه مسلم ١٢٢/١ و ١٢٣ بَابُ وَعِيدِ مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٍ بِالنَّارِ .

القيامة وما يترتب على ذلك من خزي وسوء بسبب التوبيخ الذي يوجه إليهم حين يسألهم الله عن شركائهم المزعومين ، قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل ٢٥) وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ خُذْنَهُمْ وَيَقُولُ آيِنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ هُمْ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل ٢٧) وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ خَلِيدٍ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ (طه ٩٩-١٠١) وقال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَاهُمْ ۖ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴾ (العنكبوت ١٣) .

وقد جاء في معنى هذه الآيات ما يؤكد حمل الأوزار والذنوب بعبادتها وشخصها على الظهور وعلى الأعناق في موقف العرض يوم القيامة من حديث النبي ﷺ أنه استعمل رجلاً من الأسد يقال له ابن اللُتَيْبَةِ عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ : " هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أَهْدِي لِي " قَالَ : فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : " مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثَهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي لِي أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ

بَقَرَةٌ لَهَا خُورٌ أَوْ شَاةٌ تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتِي إِبْطِيهِ " ثُمَّ قَالَ : " اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ مَرَّتَيْنِ " (١) .

* ومنها أن البخيل يبعث يوم القيامة وقد طوقه الله بالمال الذي بخل به حول عنقه نارا ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (آل عمران ١٨٠) .

* ومنها ما جاء في توبيخ الكفار وعبادتهم الأوثان من دون الله مع أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تملك نفعا ولا ضرا ، حيث يتوعدهم الله أن هذه الأوثان تنبرأ منهم ومن عبادتهم لها يوم القيامة حتى يرتدعوا ويعودوا إلى رشدهم ويعبدوا الله الواحد إن أرادوا النجاة ، قال تعالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرَكُكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر ١٤) .

* ومن ذلك التأكيد على عدم قبول الفداء منهم مهما قدموا وأنهم ليس لهم في ذلك اليوم إلا العذاب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة ٣٦) وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ

(١) - متفق عليه رواه البخاري كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها : باب من لم يقبل الهدية لعلة ومواطن أخرى انظر : ٢٥٥٩/٦ و٢٦٢٤ و٢٦٣٢ ورواه مسلم ١٤٦٣/٣ كتاب الإمارة : باب تحريم هدايا العمال .

لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
(الزمر ٤٧) .

* ومنها ما جاء دلالة على الحالة التي يحشرون عليها يوم القيامة من
الصمم والبكم والعمى لأنهم لم يستخدموا أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم في
الدنيا فيما يفيدهم ويقربهم من الله فكان الجزاء من جنس العمل حيث
يحرّمهم الله من هذه الحواس وهم أحوج ما يكونون إليها في ذلك اليوم قال
تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَتُكْمًا وَضُمًّا ۚ ﴾ (الإسراء ٩٧)

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۚ ﴾ (١٢٦) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ
بَصِيرًا ۚ (١٢٧) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۚ ﴿ طه ١٢٤-١٢٦) .

* ومنها كذلك الدلالة على الصورة التي يحشرون عليها حيث إنهم
يبعثون ويحشرون إلى الله ووجوههم مسودة كأنما أغشيت قطعا من الليل
بسبب سوء أعمالهم وما عاينوه من حقيقة كل ما كانوا ينكرونه ويجادلون
فيه ، وذلك من باب الإهانة لهم وليفرح المؤمنون بما يرون من الخزي
والذلة والصغار على وجوههم ، وصورة الوجه خير معبر عما يكون فيه
المرء ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ

وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ (الزمر ٦٠)

* ومنها أنهم يأتون يوم القيامة أتفه ما يكون وأحقر بحيث لا يلتفت الله إليهم ولا يعيرهم أي انتباه ولا يقيم لهم وزنا لأنهم أحقر من جناح البعوض ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ (الكهف ١٠٥) .

وقد جاء في الحديث ما يؤيد هذا المعنى ويفسر ما جاء في الآية ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ "

وَقَالَ : " اقْرَءُوا : ﴿ فَلَا الْقِيَمَةَ يَوْمَ هُمْ يُقِيمُ زَنًا ﴾ " (١) .

* ومنها أنهم يأتون يوم القيامة وقد خسروا الخسران الأكبر لأنهم قد خسروا أنفسهم بما أوردوها مورد الهلاك والضلال بسبب سوء أعمالهم فأفحموها في نار جهنم ، ثم هم قد خسروا أهلهم أيضا لأنهم إن كان أهلهم في الجنة فقد عادوهم وأعلنوا منهم البراء ، وإن كانوا في النار معهم فإنه لا يشفق بعضهم على بعض وإنما يتلاعنون ويتلومون ويتحسرون وهل بعد ذلك خسران ! قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الزمر ١٥) وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ ۚ وَقَالَ

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري ١٧٥٩/٤ كتاب التفسير : باب سورة الكهف ، ورواه

مسلم ٢١٤٧/٤ كتاب صفة القيامة والجنة والنار : باب ١٤ .

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخُسْرَىٰ عَلَىٰ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ
 أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿ (الشورى ٤٤-٤٥) .

* ومنها أنهم يضاعف لهم العذاب يوم القيامة ويخلدون في هذا العذاب في خزي ومهانة وصغار وذلة بما ارتكبوه من آثام الشرك والزنا والقتل بغير حق وغيرها من الموبقات ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ ﴾ (الفرقان ٦٨-٦٩) .

* ومنها التهديد والوعيد للكافرين بأن الواحد منهم يُجرَّ ويسحب على وجهه إلى النار يوم القيامة فيرمى به في النار منكوسًا مغולה يداه إلى عنقه ، فأول شيء منه تمسه النار وجهه وهو لا يطيق دفعها عن وجهه للأغلال التي كُبلَ بها ووضعت في عنقه ويده^(١) قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (الزمر ٢٤) .

خامسا : اقتران يوم القيامة بالحكم والفصل بين الناس

حيث يذكر الله يوم القيامة ظرفا لوقوع الحكم بين الناس والفصل بينهم فيما اختلفوا فيه وفيما يؤول إليه أمر كل فريق ، كالفصل بين اليهود والنصارى والمشركين في زعم كل فريق أنه على الحق فيظهر الله يوم

(١) - انظر : تفسير الطبري ٢٣/٢١١ والقرطبي ١٥/٢٥١ وابن كثير ٤/٥٢ .

القيامة حقيقة كل فريق ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (البقرة ١١٣) ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (يونس ٩٣) .

* ومن ذلك الفصل بين المختلفين في السبب من بني إسرائيل حيث أحله بعضهم وحرمه البعض الآخر حسبما جاء في قصة القرية التي كانت حاضرة البحر واعتدوا في السبب فاصطادوا السمك فيه مع أنه قد حرم عليهم ، واختلف الناس تبعاً لذلك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النحل ١٢٤) .

* ومن ذلك الفصل بين أهل الحق من بني إسرائيل وأهل الباطل حيث اختلفوا في الدنيا إلى فرق ومذاهب شتى بعد أن آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة وأنعم عليهم بالطيبات رزقا حلالا مباركا فيه قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (السجدة ٢٥) وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ^٤ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿ (الجاثية ١٧) .

* وكذلك الفصل بين المؤمنين والكافرين في يوم القيامة في قوله
تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ^٥ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿
(البقرة ٢١٢) .

* ومثله ما جاء في الفصل بين الطوائف المختلفة التي تزعم كل
طائفة منها أنها على الحق ، وذلك لبيان أن القيمة ليست في الاسم وإنما في
اتباع الحق أيا كان ذلك الذي يتبعه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ^٦ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ (الحج ١٧) .

* ومن الفصل بين المؤمنين والكافرين في يوم القيامة إظهار الحق
ودفع الاختلاف كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ (النحل ٩٢) ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿ (٢٨) اللَّهُ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿
(الحج ٦٨-٦٩) .

* وكذلك الفصل بين المؤمنين والمنافقين والحكم بينهم يوم القيامة
لأنهم يخالطون المؤمنين في الدنيا ولا يُعرف أمرهم ولا يُدرى بهم وهذا

من بشارة الله للمؤمنين ووعيده للمنافقين ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَلَن تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝ ﴾ (النساء ٤١) .

* ومنها ما جاء في الخصومة بين أهل الحق وأهل الباطل حيث يقضي الله بينهما كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِثْمٌ مِّمَّنْ ۚ ﴾ (الزمر ٣٠-٣١)

* ومن الفصل بين المؤمنين والكافرين ما بينه الله ﷻ من مصير كل واحد في مقام التنبيه إلى الجزاء حتى يعتبر المعتبرون ويعرف كل إنسان طريقه وعمله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۚ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ (فصلت ٤٠) .

* ومن ذلك الفصل بين الآباء والأبناء والأقارب وذوي الأرحام بسبب اختلاف أعمالهم في الدنيا بحيث لا ينفع والدٌ ولا ينفع ولدٌ والداء ولا يدفع قريب عن قريب ، قال تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ (المنحنة ٣) .

فإذا كان الأقارب من رسول الله ﷺ لا ينتفعون بقرابته وقد أكد أنه لن

يغني عنهم من الله شيئاً فإن كافة القرابة أولى بعدم الانتفاع ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال : " يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مَا شِئْتُ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً " (١) .

**** ويلاحظ في الآيات السابقة كلها أن الأحداث التي ذكرت كلها مرتبطة بالقيام بين يدي الله في موقف العرض والحساب ، وكأن التعبير بيوم القيامة فيها كلها لما فيها من إشارة إلى القيام والأحداث التي تكون في ذلك القيام بخلاف الآيات التي يعبر فيها باليوم الآخر ويوم الحساب وغيرها ، كما يلاحظ أنه لم يرد في هذه الآيات كلها ما يشير إلى نعيم المؤمنين ولا توفيتهم أجرهم إلا في آية واحدة جاء ذكر توفية الأجر عرضاً في سياق الحديث عن عموم الموت لكل نفس في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران ١٨٥) .

* وكان الله تعالى خص لفظ يوم القيامة بما يكون في موقف العرض من فصل بين الناس ومن توبيخ وتبكيه وخزي للكافرين حتى لما ذكر

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري ١٠١٢/٣ كتاب الوصايا : باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب . ورواه مسلم في المقدمة باب في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ١٩٢/١ .

دعاء المؤمنين بلفظ يوم القيامة كان عبارة عن الاستعاذة بالله من الخزي والمهانة ومن ثم كان ذكر اليوم مضافا إلى القيامة ومعرفا بها ملائما لكل ما جاء في الآيات ومناسبا للفظ القيام المستفاد من لفظ القيامة . والله أعلم .

الاسم الثاني : اليوم الآخر

ومن أسماء يوم القيامة ما جاء معرفا موصوفا بالآخر فهو اليوم الآخر لأنه لا يوم بعده ، واليوم الآخر هو الوقت الذي لا حد له وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع ، وإنما سمي بالآخر لتأخره عن الأوقات المنقضية ، ولأنه آخر الأيام المحدودة فلا حد وراءه ، أو هو الوقت المعهود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ^(١) وسمى بالآخر لتأخره عن الدنيا ، ويراد به ما يكون في مقابل الحياة الدنيا ، وكأنما جعل أمر الإنسان في يومين ، وكانت الدنيا وهي دار العمل هي اليوم الأول وكانت الآخرة وهي دار الجزاء هي اليوم الآخر الذي لا ينتهي .

وقد جاء ذكر اليوم الآخر في ست وعشرين آية من القرآن الكريم ، منها أربع وعشرون آية جاءت في مقام الحديث عن الإيمان ، ومنها آيتان فقط جاءت في مقام رجاء الخير في اليوم الآخر ، وتفصيل ذلك كما يلي :

أولا : ذكر اليوم الآخر في مقام الإيمان

حيث جاءت الآيات القرآنية تتناول مفردات الإيمان وأركانه ، وجاء غالب الآيات مقتصرًا على الإيمان بالله واليوم الآخر فحسب ، وجاء بعضها مع هذين بذكر الإيمان بالملائكة والكتب والنبيين ، وإنما جاء الإيمان باليوم الآخر قرين الإيمان بالله لأن في الإيمان بهما إحاطة بجانبين الإيمان أوله وآخره ، وذلك لأن حاصل المسائل الاعتقادية يرجع إلى مسائل المبدأ وهي

(١) - انظر : تفسير النسفي ١٧/١ والبيضاوي ١٦٠/١-١٦٢ وأبي السعود ٤٠/١ وروح المعاني ١٤٥/١ وروح البيان ٥٥/١ .

العلم بالصانع وهو الله تعالى وصفاته وأسمائه ، ومسائل المعاد وهي العلم
بالنشور والبعث من القبور والصراط والميزان وسائر أحوال الآخرة ،
ولأن الإيمان بالله هو مبدأ الاعتقادات كلها لأن من لم يؤمن برب واحد لا
يصل إلى الإيمان بالرسول ولا بالملائكة ولا بأي ركن من أركان الإيمان ،
فالإيمان بالله هو الأصل وبه يصلح الاعتقاد وهو أصل العمل ، والإيمان
باليوم الآخر هو الوازع والباعث في الأعمال كلها وفيه صلاح الحال
العملي ، ولأن ثمرة اتباع الأمر والنهي وثمره المخالفة إنما تظهر في الدار
الآخرة ^(١) فالذي يؤمن بالله يعمل بأمره والذي يؤمن بالآخرة يحسن العمل
ويرجو الثواب ويخشى العقاب ، وذلك يستوجب أن يؤمن ببقية أركان
الإيمان الأخرى .

وقد جاء ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر على وجوه مختلفة من السياق
والمقصد من الآيات وبيان ذلك كما يلي :

(أ) - اليوم الآخر في مدح المؤمنين

وذلك أن الله ﷻ بين لنا في القرآن الكريم أن الناس يختلفون في
تسمية الفرق وأصحاب الملل فهناك اليهود وهناك النصارى والصابئون
والمجوس وغيرهم ، وبين الله أن هذه التسميات كلها لا قيمة لها ولا وزن
عند الله وإنما الأساس الذي هو مدار القبول هو الإيمان بالله واليوم الآخر
وما يستلزمه ذلك الإيمان من عمل الصالحات وترك السيئات والمنكرات ،
قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيَّةَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا

(١) - انظر : تفسير النسفي ١٧/١ والبيضاوي ١٦٢/١ والبحر المحيط ٢٣٠/٢ والتحرير

والتنوير ١٠١/١ وروح البيان ٥٥/١ .

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة ٦٢﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة ٦٩) .

* المشهور في تفسير الآيتين الكريمتين أنهما في الطوائف التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ وقد ذكر الله منهم ثلاثة : اليهود والنصارى والصابئين حيث تبين الآيتان الكريمتان أن أساس الإيمان المقبول منهم والمؤدي إلى الفلاح والفوز في الآخرة هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والمقصود باليهود فيها أتباع موسى عليه السلام في زمانهم وقبل بعث المسيح عليه السلام ، فلما بعث عيسى عليه السلام وجب عليهم الإيمان به ، وكذلك النصارى في زمانهم وقبل بعثة النبي محمد ﷺ فلما بعث الله محمدا ﷺ كان الإيمان به حتماً ولازماً على جميع البشر ، أما الصابئون فهم قوم مدار مذاهبهم على التعصب للروحانيين واتخاذهم وسائلهم ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بأعيانها والتلقي منها بذواتها فزعت جماعة منهم إلى هياكلها ، فصائبة منهم مفرعها السيارات من النجوم وهم عبدة الكواكب ، وصائبة نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أحد شيئاً وهم عبدة الأصنام ، وكل من هاتين الفرقتين أصناف شتى مختلفون في الاعتقادات والتعبدات ، وقيل : إنهم ليسوا بعبدة أوثان وإنما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة ، وقيل : هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء مثل يحيى عليه السلام ، وقيل : إنهم يقرون بالله تعالى ويقرءون الزبور ، وقيل : هم قوم بين اليهود والمجوس ، وقيل : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، وقيل : هم طائفة من أهل الكتاب ، وقيل : هم قوم شبيه دينهم بدين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مهبط الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح

الطَّلُوعِ وفيهم أقوال شتى .

وأصل لفظ الصابئين مأخوذ من الطَّلُوعِ والظُّهورِ ، من قولهم : صَبَأَ نَابُ البعير ، إذا طلع ، وقيل : إن الصابئ هو الخارج من شيء إلى شيء ، فسَمَّى الصابئون بهذا الاسم ، لخروجهم من اليهودية والنصرانية ، وقيل : إنه مأخوذ من قولهم : صبا يصبو ، إذا مال إلى الشيء وأحبه وذلك موافق لما جاء في قراءة نافع من السبعة ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ في الآية الأولى وقرأها ﴿ وَالصَّابُونَ ﴾ في الآية الثانية (١) .

قال ابن عاشور : (ووجه الاختصار في الآية على ذكر هذه الأديان الثلاثة مع الإسلام دون غيرها من نحو المجوسية والدهريين والزندقة أن هذا مقام دعوتهم للدخول في الإسلام والمتاب عن أديانهم التي أبطلت لأنهم أرجى لقبول الإسلام من المجوس والدهريين لأنهم يثبتون الإله المنفرد بخلق العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك ، فلذلك اقتصر عليهم تقريباً لهم من الدخول في الإسلام ، ألا ترى أنه ذكر المجوس معهم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (الحج ١٧) لأن ذلك مقام تثبيت للنبي ﷺ والمسلمين) (٢) .

وقد امتدح الله طائفة من أهل الكتاب الذين أدركوا نبوة محمد ﷺ وآمنوا به وقاموا الليل تهجدا وتلاوة لآيات الله من القرآن الكريم وقاموا

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ١٠٤/١ - ١٠٥ والمحرر الوجيز ١٥٦/١ - ١٥٧ وتفسير الماوردي ٥٥/١ والتفسير الكبير ٩٦/٣ - ٩٨ وروح المعاني ٢٧٨/١ - ٢٧٩ والقراءة المذكورة في حجة القراءات ١٠٠ والسبعة ١٥٨ والتيسير ٧٤ .

(٢) - التحرير والتنوير ٣٢١/١ .

يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى وصفهم الله بالصلاح قال تعالى
 ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ
 ① يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ② وَمَا يَفْعَلُوا
 مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ③ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ④ ﴾ (آل عمران ١١٣-
 ١١٥).

* والمشهور عند المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار
 أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن سعية وأسيد بن
 سعية وزيد بن سعية وغيرهم وذلك أنهم لما أسلموا واتبعوا رسول الله ﷺ
 قال اليهود : ما آمن بمحمد ﷺ إلا شرارنا فأنزل الله الآيات ردا عليهم
 ومدحا لأولئك الذين عرفوا الحق فاتبعوه (١)
 والمعنى أن أهل الكتاب ليسوا سواء فهؤلاء الذين يحسدونكم على
 دينكم من أهل الكتاب والذين يضرونكم بما يتآمرون ويمكرون والذين
 يحرصون على قتالكم ويشجعون الناس عليه لأنهم يكفرون بآيات الله
 ويعصون أمره فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وغضب الله عليهم ولعنهم
 هؤلاء فريق والذين يتلون كتاب الله من الذين آمنوا منهم برسالة محمد ﷺ
 لأنهم قد عرفوا الحق فاتبعوه وآمنوا به فريق آخر ، ولهذا لن يخيب الله
 سعيهم وسيضاعف لهم الأجر ، حيث قال رسول الله ﷺ :
 " ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ

(١) - انظر : تفسير ابن كثير ٤٤٤/١ والبغوي ٣٤٣/١ والبيضاوي ٨٠/٢ والنسفي ١٧٣/١
 والماوردي ٢٥٣/١ وزاد المسير ٤٤٢/١ والتسهيل ١١٦/١ والتفسير الكبير ١٦٤/٨.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَادَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ^(١).

* وقد ذكر الله تعالى طائفة من أعمال أهل الكتاب وخاصة اليهود وبني إسرائيل في زعمهم أنهم قتلوا المسيح وفي أكلهم الربا وقد نهوا عنه وفي أكلهم أموال الناس بالباطل وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وبين ما أعهده الله لهم من العذاب الأليم بسبب ظلمهم وبعدهم عن الحق وإنكارهم رسالة النبي محمد ﷺ ، ثم امتدح الله في مقابل ذلك الراسخين في العلم منهم وهم الذين آمنوا برسالة النبي ﷺ من أهل الكتاب السابق ذكرهم مرة أخرى بأنهم يعرفون الحق ويؤمنون به فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله وظهر أثر هذا الإيمان في أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويتبعون شعائر الدين في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْقَائِمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء ١٦٢) ^(٢).

* وقد خص الله من أركان الإيمان الإيمان بالله واليوم الآخر فقط لأن هذين الركنين هما أساس الإيمان ، فهما يدلان على المبدأ والمعاد ويدفعان إلى العمل بكل ما جاء به المرسلون ، فمن آمن بالله وآمن بالآخرة وما فيها من الحساب والجزاء أيقن أن عليه أن يطيع الله لأنه الخالق وهو الإله وله

(١) - الحديث رواه البخاري في كتاب العلم : بَابُ تَعْلِيمِ الرَّجُلِ أَمَّتَهُ وَأَهْلَتَهُ ٤٨/١ .

(٢) - انظر : تفسير البغوي ٤٩٨/١ والقرطبي ١٣/٦ وابن كثير ٥٨٥/١ والدر المنثور

٧٤٤/٢ والتسهيل لعلوم التنزيل ١٦٤/١ وغيرها .

أن يأمر وينهى ويكلف ويخفف ، ومن طلب الجنة استقام على الأمر ومن خاف النار ابتعد عن كل ما نهى الله عنه ، وأساس ذلك أن يؤمن بالرسل والكتب والملائكة والقدر وأن يستقيم على أمر ربه

* وحتى لا يظن إنسان أن الإيمان متوقف على الإيمان بالله واليوم الآخر فحسب فإن الله ذكر هذين الركنين في جملة من الأركان التي لا يقبل عمل إلا بها منها ما هو اعتقاد قلبي ومنها ما هو عمل بدني ومالي قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآَنَ السَّبِيلِ وَالسَّابِقِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة ١٧٧) .

وكذلك جاء أمر الله واضحا في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء ١٣٦) حيث أمر الله المؤمنين بأن يكون إيمانهم كاملا بالإيمان بالله ورسوله وكتابه المنزل على رسوله ﷺ والكتب المنزل من قبل ثم بينت الآية أن من يكفر بأي ركن من أركان الإيمان فقد كفر كفرا صريحا ولا يقبل منه شيء .

ولما كان أساس الإيمان هو الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر لأنهما

يجمعان كل الإيمان ويحيطان بكل الأركان لا جرم لخص إبراهيم عليه السلام
دعوته واختصرها في هؤلاء الذين يجمعون في إيمانهم بين هذين الركنين
لأنهما يجمعان في طيهما كل الأركان ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة ١٢٦) (١) .

(ب) - اليوم الآخر في ادعاء المنافقين

ولما كان الإيمان بالله واليوم الآخر متضمنًا الإيمان بكل الأركان
الواجب الإيمان بها ، ولكثرة ما ذكرها الله في القرآن وذكرها رسول الله
ﷺ مقتصرة على هذين الركنين حاول المنافقون خداع رسول الله ﷺ
والمسلمين فاختصروا قولهم في ادعائهم الإيمان على أنهم يؤمنون بالله
وباليوم الآخر من باب التلبيس على المخاطبين والسامعين ، وكأنهم يقولون
: إنا نؤمن بما أمر به القرآن الكريم في كثير من آياته وكلامنا مثل كلام
القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة ٨) .

* ولما كان مقصدهم بهذا القول التعمية على رسول الله ﷺ
والمؤمنين صفعهم الله ﷻ في التعقيب على قولهم بنفي الإيمان عنهم تماما
فهم إن كانوا قد استخدموا لفظ الفعل الماضي في قولهم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾
والفعل الماضي يدل على وقوع الفعل ولو مرة واحدة ولكنه لا يدل على
الثبوت ، بدليل أنهم في كل مرة إذا لقوا الذين آمنوا ذكروهم بهذا القول

فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ ولكن حينما أبطل الله إيمانهم وكذب قولهم ونفى عنهم ما نسبوه لأنفسهم وما ادعوه من الإيمان جاء النفي بما يدل على ثبوته وعدم وقوع الإيمان منهم أصلا فعبر بالاسم المصحوب بالباء الداخلة على المنفي من باب التأكيد على نفي الصفة تماما فقال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ والتعبير بالاسم يدل على الثبوت ، والمعنى أنهم لم يكونوا مؤمنين في أي وقت من الأوقات ، وما كلامهم إلا مجرد قول باللسان لا حقيقة له في القلب ، وإلا لو كان لديهم شيء من الإيمان لظهر أثر ذلك في سلوكهم وأعمالهم ، ولكن قلوبهم قد امتلأت بالريب والشك والنفاق مما أدى إلى اختلال سلوكهم في الحياة .

(ج) - أثر الإيمان باليوم الآخر على سلوك المؤمن

من كل ما سبق يتضح لنا أن الإيمان باليوم الآخر له أثر مهم في سلوك المسلم لأنه يعرف أن الله سيحاسبه وسيجزيه على كل ما قدم من خير أو شر في ذلك اليوم الذي لا نهاية له ولا حد له ، ومن ثم نجد الله ﷻ في القرآن الكريم وهو يخاطب المؤمنين بأنواع التكاليف المختلفة يذكرهم بالإيمان بالله واليوم الآخر فقط من بين سائر الأركان ، لأن الإيمان بالله أصل والإيمان باليوم الآخر دافع إلى العمل بما في التذكير به من ترغيب في الاتباع وترهيب من المخالفة ، وقد جاء التذكير بهما في عدة أمور :

١- في أحكام الطلاق والعدة

وذلك أن الطلاق أمر مكروه ومؤثر على النفوس تأثيرا سلبيا لأنه يؤدي إلى بث الكراهية وإثارة الضغائن والأحقاد في النفوس ، وهو ما يؤثر سلبا على وحدة الأمة وتماسك المجتمع ، لأن الله يريد للأمة أن تكون قوية بتماسكها وترابط أفرادها ، فإذا كان الزواج بناء فإن الطلاق هدم لذلك

البناء ، ولهذا كان الطلاق والتفريق بين الرجل والمرأة أحب شيء عند إبليس وأعظم نصر يمكن للشيطان أن يحققه ، كما جاء في الحديث عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنَزَلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : " فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا " فَيَقُولُ : " مَا صَنَعْتَ شَيْئًا "

قَالَ : " ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : " مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ " قَالَ : " فَيَذْنِبُهُ مِنْهُ وَيَقُولُ : " نَعَمْ أَنْتَ فَيَلْتَزِمُهُ " (١) .

* ولأجل هذا أيضا كان الطلاق مكروها مع إباحته ، وكان أبغض الحلال عند الله ، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ " (٢) .

* ومن هنا كثر تذكير الله تعالى عباده من الرجال والنساء على حد سواء بالإيمان بالله واليوم الآخر في تعامل بعضهم مع بعض في الحقوق والواجبات ، حتى لا يخرج المسلم والمسلمة عن اتباع أمر الله إلى اتباع الهوى وحتى لا ينساق أي منهما وراء حقه وضغينه فيزداد الضرر الواقع على الأفراد وعلى المجتمع ، والله يريد أن يحصر الضرر الناشئ عن الطلاق في أضيق نطاق ، وذلك لا يكون إلا حين يتعامل الرجل مع المرأة وأهلها وحقوقها تبعا لأمر الله فيكون عمله طاعة يقصد بها وجه الله ويخلص فيها لله فتأخذ المرأة حقها مهما بلغ تبعا لأمر الله وليس نكابة في

(١) - الحديث رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار : باب تحريش الشيطان وبعثه سَرَايَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ ٢١٦٧/٤ .

(٢) - الحديث رواه أبو داود في سننه ٢٥٥/٢ وابن ماجه في سننه ٦٥٠/١ والبيهقي في السنن الكبرى ٣٢٢/٧ وانظر : شرح النووي ٦١/١٠ وفتح الباري ٣٥٦/٩ و٣٦٢ و٣٧٨ وتفسير ابن كثير ٥٦٤/١ والقرطبي ١٤٩/١٨ والدر المنثور ٦٦٥/١ .

الرجل ، وكذلك يأخذ الرجل حقه كاملا غير منقوص طاعة من المرأة لأمر ربها وليس نكايه في المرأة ، فإذا استقام المجتمع على هذا كان الضرر محصورا في حجه دون تشعب ولا تفرع ، ولذلك كثر في سورة الطلاق ذكر النقوى والأمر بها ولقت نظر المخاطبين إلى ثمراتها حتى يراقبوا الله في هذه القضية الحساسة من أجل السلامة المنشودة ومن أجل إغاضة إبليس وأعدائه رجاء الفوز بالآخرة في طاعة الله .

* وقد جاء التذكير بالإيمان بالله واليوم الآخر في قضية الطلاق ثلاث مرات في ثلاث آيات ، واحدة في خطاب النساء والثانية في خطاب الرجال والثالثة في خطاب الجميع رجالا ونساء

أما الآية الأولى فقد جاءت في تذكير المرأة المطلقة أن من لوازم إيمانها بالله واليوم الآخر أن تكون أمينة صادقة في كشف حقيقة ما في رحمها فلا يجوز لها أن تكتم من ذلك شيئا لأنها إذا كتمت شيئا لا تستحق مسمى الإيمان لما في ذلك من ضرر بالغ على الرجل في دفع نفقة زائدة عن الحد المشروع ، أو في انتهاء حقه في إرجاع المرأة إلى حياة الزوجية إذا عاجلت بادعاء انتهاء المدة قبل انتهائها ، وربما يكون في الكتمان خلط للأنساب كما كانت بعض النساء يفعلن في الجاهلية يكتمن ما في الأرحام من حمل لتلحقه برجل آخر مكيدة في الرجل الذي طلقها أو طلبا لعزة مزيفة عند اقترانها برجل جديد ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة ٢٢٨) .

قال الشوكاني : (قيل : المراد به الحيض ، وقيل : الحمل ، وقيل : كلاهما ووجه النهي عن الكتمان ما فيه في بعض الأحوال من الإضرار بالزوج وإذهاب حقه ؛ فإذا قالت المرأة : حضت وهي لم تحض ذهب بحقه من الارتجاع ؛ وإذا قالت : لم تحض ، وهي قد حاضت ألزمته من

النفقة ما لم يلزمه ، فأضرت به ، وكذلك الحمل ربما تكتمه لتقطع حقه من الارتجاع وربما تدعيه لتوجب عليه النفقة ، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فيه وعيد شديد

للكائمات وبيان أن من كتمت ذلك منهن لم تستحق اسم الإيمان (١)

* ويظهر أثر هذا التحذير واضحا جليا في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ

يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة ٢٣٢) حيث

جاء التذكير بذلك دفعا لهوى النفس وحظها من الأنفة والكرامة الأمر الذي قد يؤدي إلى إلحاق الضرر بالغير ، وقد جاءت هذه الجملة في سياق نهى الأولياء عن منع من تحت ولايتهم من النساء من العودة إلى أزواجهن ولو بنكاح جديد بعد انقضاء عدتهن خاصة إذا كان الرجل يهوى المرأة وتهواه المرأة ، وينبغي أن تغلب المصلحة ويُجنب هوى النفس وحظها من الأنفة والعزة انسيافا لأمر الله إن كان الولي يؤمن بالله واليوم الآخر ويريد أن يلقي الله مخلصا له في عبادته واتباع أمره ، وعليه أن يتبع الشرع الحنيف ولا يتبع الهوى لأن فيه مضرة عليه وعلى من حوله معاً ، والله يقول في أول الآية : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ

أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝

* وسبب نزول الآية خير توضيح لما أقول ، فقد روي عن معقل بن

يسار ﴿ أَنهَا نَزَلَتْ فِيهِ قَالَ : " زَوَّجْتُ أَخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا فَقُلْتُ لَهُ : " زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتُهَا ثُمَّ جِئْتُ تَخْطُبُهَا لَا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا " وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ فَقُلْتُ : " الْآنَ أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ " قَالَ : " فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ " وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ : " فَحَمِي مَعْقِلٌ مِنْ ذَلِكَ أَتَقَالُ : " خَلَّى عَنْهَا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا ثُمَّ يَخْطُبُهَا ! " فَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ فَتَرَكَ الْحَمِيَّةَ وَاسْتَقَادَ لِأَمْرِ اللَّهِ (١) .

* ومفهوم الآية أنه لا شيء أَدْفَعُ لِلْحَمِيَّةِ وَلَا لِلْأَنْفَةِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ تَذَكُّرِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ وَعَلَيْهِ أَنْ يَنْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَيُطِيعُ وَيَتَّبِعُ وَلَا يَخَالَفُ رَجَاءَ الثَّوَابِ وَخَوْفَ الْعِقَابِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلِهَذَا تَرَكَ مَعْقِلٌ ﷺ الْحَمِيَّةَ الَّتِي غَلِبَتْ عَلَيْهِ وَالْأَنْفَةَ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَرْفُضُ عَوْدَةَ أُخْتِهِ إِلَى زَوْجِهَا السَّابِقِ وَانْقَادَ لِأَمْرِ اللَّهِ فَظَهَرَ أَثَرُ التَّذَكُّيرِ جَلِيًّا وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ قَوْلُهُ : " فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ : " سَمِعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً " ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ : " أَزَوَّجَكَ وَأَكْرَمُكَ " (٢) .

* أما التذكير بالإيمان بالله واليوم الآخر فقد جاء للرجال وللنساء

(١) - الحديث رواه البخاري في كتاب الطلاق : بَابُ ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ فِي الْعِدَّةِ وَكَيْفَ يُرَاجِعُ الْمَرْأَةُ إِذَا طَلَّقَهَا وَاحِدَةً أَوْ ثَنَيْنِ ١٦٤٥/٤ و ١٩٧٢/٥ و ٢٠٤١ .

(٢) - هذه الزيادة من رواية الترمذي في سننه ٢١٦/٥ وقال : حديث حسن صحيح .

عامة في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ ﴾ (الطلاق ٢) حيث نزلت هذه الآية بالوعظ للرجال وللنساء

وللمجتمع كله على حد سواء في التعامل مع مسألة الطلاق حيث جاءت

تعقيباً على عدة أحكام وردت في الآية السابقة منها للرجال : أن يطلقوا

النساء لعذتهن حتى لا يضيقوا عليهن ولا يضرهن ، وأن يبقوا عليهن في

بيت الزوجية مع النفقة المقررة شرعاً طوال فترة العدة ولا يخرجوهن من

تلك البيوت ، وأن يراجعوا أنفسهم عند مشاركة العدة على الانتهاء فإما أن

يمسكوا أزواجهن بالمعروف وإما أن يفارقوهن أيضاً بالمعروف .

كذلك من الأحكام المقررة على النساء ألا يفارقن بيت الزوجية ولا

يخرجن منه ، وما عليهن من الصديق في إحصاء العدة والأمانة فيها .

وعلى المجتمع والأقارب أن يقوموا للشهادة خالصة لوجه الله بغير

تحيز أو ميل لأحد الطرفين على حساب الآخر مهما كانت درجة القرابة أو

المحبة لأن الإشهاد على الطلاق والرجعة أمر مشروع ، وقد وعد الله

الصادقين المتبعين لأمر الله المتجردين من الهوى والأنفة والحمية وحظ

النفس أن يبذل الله الأحوال وأن يفرج عنهم كل هم ويخرجهم من كل ضيق

وأن يجعل لهم من أمرهم يسراً ، وأن يكفر عنهم سيئاتهم ويعظم لهم أجرهم

، ونعمت البشارة لمن استقام على أمر ربه ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا

طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا

تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ

حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ

يُخْرِدُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

فَارْقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ
ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾
(الطلاق ١-٣) .

* وقد خص الله بالوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأن المؤمن هو الذي ينتفع بذلك كما سبق في قصة معقل ، وليكون في الآية حث على المسارعة إلى الاتباع كأن الله يقول : انظروا إلى هذه الأوامر وتلك النواهي المعبر عنها بحدود الله تعظيما لشأنها وانظروا أين أنتم من الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإن علامة الإيمان أن تكونوا وقافين عند حدود الله وأن تنفع فيكم الموعظة بكل ما سبق ذكره ، وفيها تعريض بمن يخالف أيضا حيث يشعره الله أن إيمانه ناقص وعليه أن يتدارك أمره ويبحث عن خطئه فيعود عنه إلى الحق والصواب طمعا في اكتمال الإيمان ورغبة في ثواب الرحمن للوصول إلى أعالي الجنان .

٢ - في أحكام الصدقات والنفقة

وذلك أن الصدقات والنفقات إخراج للمال وبذله في وجوه الخير وهذا لا يقتصر على المنفق وحده وإنما يتعدى أثره إلى المجتمع من الفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل وغيرهم ممن حث الله تعالى على الإنفاق عليهم ، وقد يتعدى الإنفاق ليعود أثره على الأمة كلها والمجتمع بأسره حينما يكون الإنفاق في سبيل الله كالإنفاق على الجهاد وعلى مصالح المسلمين المختلفة كبناء معاهد العلم والمساجد والمستشفيات ودور الإيواء وغيرها من المصالح ، وهنا تتشابه المصالح بين المنفق والمنفق عليه وقد

يلقى المنفق بعض الجفاء من المنفق عليه أو من المجتمع وربما لا يقدّر حق التقدير أو حسب ما يتوقع ويريد ، ومن هنا يأتي تذكير الله للمنفق بالإيمان بالله واليوم الآخر ليكون دافعا له إلى بذل المال ابتغاء وجه الله لا ينتظر ثناء ولا محمداً لأن الله هو الذي يأمره بذلك أولاً وعليه أن يسمع ويطيع ، ولأن الله يدخر له أجر ذلك الإنفاق بتضعيف الأجر وعظيم المثوبة ثانياً ، فبين الله أن من أماره هذا الإيمان ولوازمه أن يقصد العبد وجه ربه ، وأن يقطع تعلقه بنفسه من لحظة خروجها من يده ، وأن يبتعد عن كل ما يحبطها من منّ أو رياء أو تفاخر وتظاهر أو طلب ثناء أو تقدير أو محمداً من الخلق .

* ومن هنا سمي البذل نفقة لأن لفظ النفقة مأخوذ من النفوق وهو النفاد والانتهاء ، يقال : نفقت الدابة يعني ماتت ، ومنه النفق وهو الفتحة في جوف الأرض يكون لها مخرجان ينفذ منها الإنسان ، وكان الله بهذه التسمية يلفت نظر العباد إلى أن المال إذا خرج من أيديهم في وجوه الخير فكأنه نفق منهم ولم يعد له وجود ولم يعد له أثر عندهم ومن ثم لا يكون لهم كبير تعلق به لأن الله أخذه عنده يُثَمِّرُهُ ويربيه ويضاعفه حتى تكون القمة مثل الجبل العظيم كما جاء في الحديث ، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ بالإخفاء في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فقال : " وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ " وفي رواية : " حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ " (١) .

وهذا من باب المبالغة في الإخفاء إخلاصاً لله تعالى حتى كأنه يريد

(١) - متفق عليه رواه البخاري في كتاب الزكاة : باب صدقة السرّ ومواضع أخرى . انظر : ٢٣٤/٢ و ٥١٦ و ٥١٧ و ٢٤٩٦/٦ و رواه مسلم ٧١٥/٢ كتاب الزكاة : باب فضل إخفاء الصدقة .

ألا تعلم إحدى يديه ما تتفق اليد الأخرى ، وقد جاء في هذا المعنى حديث آخر في الثلاثة الذين يحبهم الله ﷺ ومنهم رجل حرص على إخفاء الصدقة وخالف فيها جمع الناس ، قال رسول الله ﷺ : " ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ يَسْأَلَهُمْ بِقَرَابَةِ بَيْنِهِ وَبَيْنَهُمْ فَمَنْعُوهُ فَتَخَلَّفَهُمْ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَظِيمَتِهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالَّذِي أَعْطَاهُ ، وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النُّومُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدِلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُءُوسَهُمْ فَقَامَ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي ، وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقُوا الْعَدُوَّ فَأَنْهَزُمُوا فَأَقْبَلَ بَصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ " (١) .

* ومن هذا المنطلق امتدح الله عبادَه المنفقين ابتغاء وجه الله وربط بين صدقهم في الإيمان وصدقهم في النفقة وبين أن الإيمان بالله واليوم الآخر يدفعهم إلى بذل المال وإنفاقه قربة لله وابتغاء دعوة تلحقهم من رسول الله ﷺ حتى أكد الله صدقهم بتأكيد قبولها منهم والتأكيد على أنها قربة لهم تحقق لهم الدخول في رحمة الله تعالى وترفعهم لأعلى الدرجات فقال تعالى ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ۖ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة ٩٩) .

* وقد جاءت هذه الآية في مقابل ما ذكره الله من حال بعض الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون مغرماً وعداوة للمؤمنين يتربصون

(١) - الحديث رواه النسائي في السنن الكبرى ٤١٤/١ و ٤٤/٢ و ٢٩٨/٤ والترمذي في سننه ٦٩٧/٤ وقال : حديث صحيح ، وابن خزيمة في صحيحه ١٠٤/٤ و ١٠٥ وابن حبان في صحيحه ١٣٧/٨ و ١٣٨ وأحمد في مسنده ١٥٣/٥ والحاكم في مستدركه ٥٧٧/١ .

بالمؤمنين الدوائر فإن الله يجعل من نفقتهم حسرة عليهم وتدور الدوائر بالسوء والشر ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة ٩٨) .

* وكما امتدح الله الصادقين المخلصين في النفقة بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وأن ثمرة هذا الإيمان ظهرت في حسن مقصدهم وجميل تصدقهم فإن الله تعالى في المقابل بين أن إرادة الرياء والسمعة والرغبة في المباهاة والتظاهر وانتظار الثناء والمحمدة أمارة لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن الذي يفعل ذلك لا يلتفت إلى ثواب ولا إلى عقاب يكون في الآخرة وإنما هو يريد الثمرة العاجلة الدنيئة في الدنيا وهذا علامة على أنه لا يلتفت إلى الله ولا يؤمن به ، وإنما انساق وراء الشيطان فاتخذة لنفسه قرينا فأصله وأبعده عن رحمة ربه وبئس القرين ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة ٢٦٤) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (النساء ٣٨، ٣٩) .

* وقد جاء في تفسير الآيات من أحاديث الترغيب في الصدق والإخلاص والترهيب من الرياء والسمعة الشيء الكثير مما يطول شرحه

ولكن الذي أقف عنده هو الربط الواضح بين الإيمان بالله واليوم الآخر وقضية الإخلاص في التوجه والابتعاد عن المن والأذى والرياء ليكون تذكيرا للمؤمن أن ينفق ماله لله ويعرض عن كل غرض دنيوي من محمدة أو ثناء أو سمعة ، وحسبه أن الله به عليم وعلى عمله مطلع ولبذله ونفقته مشاهد ، وهل فوق ثناء الله ومشاهدته ورؤيته لعمل عبده شيء !

* وعلى العبد أن يعلم أن من أماره إيمانه بالله واليوم الآخر ألا يؤدي الناس بصدقته فيمن على الأفراد فيؤذيهم ويكسر قلوبهم بنعمة الله وفضله ، وليس بما يملك ولا بما عملت يده ، فإن كسر نفس المؤمن عند الله ذنب عظيم كما أن جبر خاطر المحتاج ومواساته لله أعظم عند الله أجرا وأرفع منزلة وعلامة على صدق الإيمان بالله واليوم الآخر .

٣ - في أحكام الجهاد والقتال

ولما كان أمر الجهاد عظيما بما فيه من المصالح والمنافع التي تعود على الأفراد والمجتمعات من تحقق الأمن والأمان وما يعود على المؤمنين من النصر والغنائم والمكاسب الجمة في الدنيا ولما فيه من حفاظ على الحرمات والأعراض وضممان لأداء شعائر الدين في طمأنينة وبسر وسلامة ، ولما فيه في مقابل ذلك من جراح وقتل وإتلاف للأموال التي تتفق في إعداد المجاهدين وغيرها من الأذى الذي قد يصيب المسلمين ، لأجل هذا كله ربط الله الجهاد بقضية الإيمان بالله واليوم الآخر وذكر الله بهذين الركنين فحسب دون بقية أركان الإيمان لما فيهما من الحث والتشجيع والدعوة إلى الإقدام على الجهاد ببذل النفس والمال حيث ينال العبد رضا ربه عليه وينال في الآخرة الثواب الأعظم والمنزلة الأسمى .

وقد تجلّى هذا الربط بوضوح في مسألتين :

الأولى : أن من دوافع المؤمنين إلى الجهاد والقتال عدم إيمان العدو

بِالله واليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
﴿ (التوبة ٢٩)

والثانية : أن نفس الدافع هو الذي يحفز المؤمنين للخروج إلى القتال
فلا يتراخي المؤمن ولا يتوانى ، لأن خروجه واستعداده للقتال حتى لو كان
في خروجه إتلاف لنفسه وماله إنما هو أمانة الإيمان بالله واليوم الآخر ،
وفي المقابل فإن التقاعس والقيود وعدم النشاط إلى الخروج إنما هو علامة
على انتفاء الإيمان بهذين الركنتين العظيمين بالله واليوم الآخر ، وبالتالي
فإن القلب إذا خلا من الإيمان بالله واليوم الآخر امتلأ بالشك والريب فلا
يستطيع ذلك المتعاس من ربه أبدا ، قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ * وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (التوبة ٤٤-٤٥) .

وعلى هذا فقد ظهر أن الإيمان بالله واليوم الآخر كان سببا لقتال من
لم تتحقق فيه هذه الصفة من الكفار ومن الأعداء من أهل الكتاب المعاندين
لرافضين لانتشار دعوة الحق الواقفين في طريقها ، وكان الخروج للقتال
كذلك علامة على صدق المؤمن في إيمانه بالله واليوم الآخر .

* وقد غاب الله على من افتخروا بخدمتهم لبيت الله الحرام من سقاية
الحاج وتنظيف البيت الحرام وعمارته وظنوا أنهم قد فعلوا ما لم يفعله أحد

ولا يصل إلى مرتبتهم غيرهم ، فبين الله تعالى أن ذلك لا يمكن أن يتساوى مع الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله ، فربط الله بين الإيمان بالله واليوم الآخر مع الجهاد في سبيل الله دلالة على أنه لازم من لوازم الإيمان وأماره من أماراته ، فمن امتنع عن الجهاد فقد امتنع عن الإيمان ، ومن لم يجاهد فكأنه لم يؤمن ، قال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (التوبة ١٩) .

قال الطبري : (وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت ، فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله ، لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية) (١) .

* والآية كما كانت ردا على المشركين في افتخارهم بأنهم يقومون في خدمة البيت ويرون بذلك أنهم أفضل الناس أعمالا فإنها كذلك جاءت ردا على كل من يقعد عن الجهاد من المسلمين ويرى أنه يلتزم عملا في خدمة البيت الحرام يتميز به ويرتفع فقد قال النعمان بن بشير ؓ : " كُنْتُ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ : " مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ " وَقَالَ آخَرُ : " مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ " وَقَالَ آخَرُ : " الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ " فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ : " لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَقْنِيئُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ "

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا " (١) .

وليس هناك ما يمنع أن تكون الآية قد نزلت ردا على المشركين وعلى أقوال المؤمنين أو يكون رسول الله ﷺ قرأها عندما ذكر عمر رضي الله عنه ذلك لرسول الله ﷺ ، فإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، وقد خاض العلماء وولوا في الجمع بين الروايتين (٢) ولكن المهم هنا هو الحديث عن الإيمان بالله واليوم الآخر وبيان أن الجهاد في سبيل الله من لوازمه وأن ذلك من أرفع الأعمال وأعظمها عند الله ﷻ .

٤ - في ولاية أهل الإيمان دون الكفار

وهو قريب من الكلام السابق عن الجهاد لأنه إذا كان الإيمان بالله واليوم الآخر دافعا يدفع المؤمن إلى قتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر فإن الإيمان يدفعه إلى عدم ولاية ونصرة من لا تتحقق فيه صفة الإيمان من باب أولى ، لأنه إذا وجب عليه أن يقاتله لعدم إيمانه فقد وجب عليه أن يمتنع عن موالاته لذات السبب ، لأن ولاية المؤمن لا تكون إلا لله ولرسوله ولدينه وللمؤمنين ، وتلك من علامات الإيمان ولوازمه ومقتضياته ، ولهذا نفى الله في خطابه للنبي ﷺ وللمؤمنين أن يوجد من يجتمع في قلبه إيمان بالله واليوم الآخر مع موالة من يعادي الله ورسوله والمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ

(١) - الحديث رواه مسلم في كتاب الإمارة : باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ١٤٩٩/٣

(٢) - انظر : تفسير القرطبي ٩١/٨ و٩٢ وابن كثير ٣٤٢/٢-٣٤٣ وغيرهما .

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿ (المجادلة ٢٢) .

قال الزمخشري : ﴿ لَا تَحْذُ ﴾ من باب التخيل ، خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين ، والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملاسته ، والتوصية بالتصليب في مجانية أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم ، وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوا إِبَاءَهُمْ ﴾ وبقوله : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ وبمقابلة قوله : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ بقوله : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالة أولياء الله ومعاداة أعدائه ، بل هو الإخلاص بعينه ^(١) .

وقال سهل التستري : (كل من صح إيمانه فإنه لا يأنس بمبتدع وإيجابيه ولا يؤاكله ولا يشاربه ولا يصاحبه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عزة في الدنيا وعرضاً أذله الله بذلك العز ، وأفقره الله بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب) ^(٢) .

٥ - فِي عِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ

حيث جعل الله من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر ومن أماراته عمارة المساجد مع الصلاة والزكاة وغيرها من أعمال التوحيد والعبادة رداً

(١) - الكشف ٤٩٦/٤ وانظر : روح المعاني ٣٧/٢٨ .

(٢) - تفسير التستري ١٣٣/٢ وانظر : روح البيان ١٩٢/١٥ .

على المشركين الذين أقصاهم الله عن المسجد الحرام بسبب نجاسة الشرك المتأصل فيهم ، لأن المساجد لا تعمّر إلا بالإيمان ، والذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يجوز له أن يقوم بالمسجد أو عليه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا

يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (التوبة ١٨) .

* وإذا كان المسجد في الآية التي نكر الله فيها أنه ما كان للمشركين أن يعمروا المساجد يراد به المسجد الحرام ، وعمارته بالحج والعمرة وأداء الشعائر ، فإن المسجد هنا في هذه الآية قد اختلف الناس في معناه والمراد بعمارته ، فإن أريد بالمساجد مواضع السجود من المصلى فعمارته تحتمل ثلاثة أوجه : بالمحافظة على إقامة الصلاة أو بترك الرياء أو بالخشوع والإعراض عما ينهى ، أو ذلك كله .

* وإن أريد بالمساجد بيوت الله تعالى المتخذة لإقامة الصلوات ، فعمارته تحتمل ثلاثة أوجه : أن يعمرها بالإيمان ، أو تكون العمارة بالزيارة لها والصلاة فيها أو يرغب في عمارة المساجد من بنائها واتخاذ السرج فيها وتنظيفها والقيام على راحة المصلين فيها لقول النبي ﷺ :

" إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ

: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية "

وفي رواية : " يَلْزَمُ " وفي أخرى : " يَتَعَاهَدُ " (١) .

(١) - الحديث رواه ابن ماجه في سننه ٢٦٣/١ والترمذي في سننه ١٢/٥ و٢٧٧ وقال : حسن غريب ، والحاكم في المستدرک ٣٣٢/١ و٣٦٣/٢ وقال : صحيح الإسناد ، وابن حبان في صحيحه ٦/٥ وابن خزيمة في صحيحه ٣٧٩/٢ والدارمي في سننه ٣٠٢/١ وأحمد في مسنده ٧٦/٣ والبيهقي في السنن الكبرى ٦٦/٣ وعبد بن حميد في مسنده ٢٨٩/١ وغيرهم وانظر : تفسير الماوردي ٩٥/٢ والقرطبي ٩٠/٨ وأبي السعود ٥١/٤ والبيضاوي ١٣٦/٣ والنسفي ٨٢/٢ وابن عجبية ٣٨٩/٢ والتفسير الكبير ٨/١٦ وغيرها .

٦ - في اتّحاد الرأى ودفع الخلاف

وذلك لما في اتحاد الرأى من قوة المسلمين وتماسك المجتمع ، ولما في الخلاف من التنازع والفرقة المؤدية إلى الضعف والوهن وذهاب الريح والقوة ، ولذلك جعل الله من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر أن يرد المسلمون ما وقع بينهم من خلاف إلى الله وإلى رسوله ﷺ لأن في ذلك الردّ خيراً كثيراً وتأويلاً صائباً فإن الله أعلم بما شرع وما قضى ، ورسول الله ﷺ لا ينطق عن هوى ، وقد أمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وأولي الأمر فيهم على اختلاف بين المفسرين في المقصود بهم ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء ٥٩) .

* وإنما ذكرهم الله بالإيمان بالله ليتجردوا من الهوى والتعصب للرأي والانتصار للفكرة ، فما أدى إلى تناحر الفرق الإسلامية وإلى ما نعيش فيه من صراع وتطاحن وتقاتل إلا أن الناس تعصبوا للرأي وللمذهب وابتعدوا عن روح القرآن الكريم بسبب ضعف في الإيمان ، ولو تدبروا هذه الآية بصدق لتجرد كل واحد منهم من هواه وترك التعصب لفكره أو لمذهبه وحكموا القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ فيما بينهم بإنصاف واعتدال ففتح الله عليهم من العلم الشيء الكثير .

* وكذلك ذكرهم باليوم الآخر تخويفا وترهيبا من الحساب والجزاء الشديد على ذلك التعصب الممقوت الذي لا يؤدي إلا إلى مزيد من الفرقة وسفك الدماء وزيادة ضعف الأمة وانحطاطها .

٧ - في إقامة الحدود

وخص الله منها ما كان أثره على المجتمع خطيرا وهو الزنا لما يسببه في المجتمع من انحلال خلقي من ناحية وتفسخ عرى المودة والألفة وبث بذور الشك في النفوس من ناحية ثانية ، وما فيه من انتهاك للأعراض والحرمان وما يستتبع ذلك من نفسي الأمراض والأوبئة التي تفتك بالمجتمع فتضعف حركة الحياة وتضعف الأمة وتبقى ذليلة باحتياجها لغيرها من الأمم في حاجة معيشتها ، ولذلك أكد الله تعالى على إقامة الحدود ليكون فيها ردع وزجر وتكامل لكل من يفسد في المجتمع ويعمل على إشاعة الفاحشة فيه ويسعى لانحلاله وتخريبه ، وربط الله ذلك بالإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ليعلم المجتمع كله أن الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي إقامة هذه الحدود ، وأن ذلك علامة وأمانة على الإيمان ، قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النور ٢) .

* وخص الإيمان بالله ليعلم الناس أن ذلك أمر الله وعليهم أن يطيعوا الله في أمره لأن من علامة الإيمان الاتباع والطاعة ، وخص اليوم الآخر للتنبيه على زوال الدنيا وفنائها وأن الخلق مقبلون على الله وأنه سيحاسب كل امرئ على تقصيره وتوانيه ، وأنه إذا ضاع الحد في الدنيا فلن يضيع يوم القيامة ، فمن ادعى الإيمان فليعمل ، ومن لم يعمل فلا سبيل له إلى ادعاء ذلك الإيمان وليفتش عن النقص الذي ألم به !

ثانيا : اليوم الآخر في مقام الرجاء

الرجاء مصدر ممدود من الأمل : وهو نقيض اليأس ، يقال : رجاء يرجوه رجوا ورجاء ورجاوة ومرجاة ورجاة أي تأمل فيه وتوقعه ورغب أن يكون له وترقب فيه الخير ، وفعل الرجاء معتمده الخير ويأتي بمعنى الخوف أيضا ^(١) ومن ثم يمكن تفسير ما جاء في القرآن من تعلق الرجاء باليوم الآخر في دعوة شعيب عليه السلام لقومه في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت ٣٦) .

وما جاء أيضا في خطاب الله للمسلمين بحسن التآسي برسول الله ﷺ وربط ذلك التآسي بالرجاء في الله ورجاء اليوم الآخر مع ذكر الله قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب ٢١) .

ومثله الدعوة إلى التآسي بإبراهيم عليه السلام والذين معه من المؤمنين الذين تبرعوا من قومهم وأهلهم لما كفروا بالله وأعلنوا لهم العداوة والمبارزة

(١) - انظر : النهاية ٢٠٧/٢ ولسان العرب ٢٠٩/١٤ ومختار الصحاح ١٠٠ .

بالبغضاء حتى يثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بالله وحده ، وعلى المسلمين أن يتعظوا بذلك ويتأسوا بهم في مقاطعة وعدم موالة من يعادي الله ورسوله ودينه ولو كانوا أقرب المقربين إليهم من الآباء والأبناء ومن دونهم في القرابة ، حيث قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ (الممتحنة ٦) .

ولما كان كل إنسان يوفى ما كسب في اليوم الآخر ، ولما كان أعظم ما يتمناه الإنسان ويرجوه أن يفوز بالجنة وأن يباعد به عن النار وأن ينال رضوان الله وتلك غاية تتطلع إليها القلوب وتتشوف لها النفوس كان من البلاغة أن يعبر الله بفعل الرجاء في المواطن الثلاثة ويتعدى به إلى اليوم الآخر مباشرة ، إما رجاء وأمل ورغبة في الخير الذي فيه ، وخصه بالذكر من باب المبالغة وكأن اليوم الآخر مقصور على ما فيه من خير ولذلك وجب على الإنسان أن يترجاه لأن الإنسان إذا من الله عليه بالنعيم فإنه لا يتناهى ذلك النعيم فكان رجاء العبد في النعيم هو عين رجائه اليوم لغلبة النعيم عليه .

* أو يكون المعنى من الرجاء خوف ذلك اليوم بخوف ما فيه من عذاب ونار لأنه يوم طويل لا نهاية له كما سبق ، وغمسة واحدة في نار جهنم تنسي أشد الناس رفاهية في الدنيا ما كان فيه من نعيم ومتاع في الدنيا ، ومن ثم فإن هوله لما كان شديدا وغالبا لمن لم يتأس بالأنبياء ويتبعهم في عمل الصالحات صح أن يتعدى بفعل الرجاء المشعر بالخوف إلى اليوم لعموم البلوى واستطارة الشر ، وذلك مثلما ذكر الله من قول المؤمنين : ﴿

إِنَّا خَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الإنسان ١٠) .

قال الألوسي : (أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا

اليوم من الأعمال ما تأمنون به غائلته ، أو الأمر بالرجاء أمر بفعل ما يترتب عليه الرجاء إقامة للمسبب مقام السبب ، وفي الكلام مضاف مقدر فالمعنى افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر ، وجوز أن لا يقدر مضاف وإرادة الثواب من إطلاق الزمان على ما فيه ، وقيل : الأمر برجاء الثواب أمر بسببه اقتضاء بلا تجوز فيه بعلاقة السببية .

وقال أبو عبيدة : الرجاء هنا بمعنى الخوف والمعنى وخافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله تعالى منكم إن لم تعبدوه (١) .

وأرى أن استعمال فعل الرجاء في الأمل والرغبة في حصول الخير أولى من استعماله في معنى الخوف وإن كان جائزا في اللغة لأن مقام الرغبة أليق بالتحبيب في الإيمان بالله وعبادته ، خاصة حينما يخاطب الله المؤمنين ويدعوهم إلى التأسى برسول الله ﷺ لأن المؤمنين يحبون رسول الله ﷺ ويحبون نبي الله إبراهيم ويحب الناس أن يقلدوا رسول الله ﷺ في كل ما جاء به حتى إنهم كانوا يكلفون أنفسهم من العمل ما لا يطبقون تقليدا للنبي ﷺ كما جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال :

" جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطًا إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا : " وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ " قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : " أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَاتَّقَاكُمْ لَهُ لِكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي

(١) - روح المعاني ١٥٧/٢٠ وانظر : تفسير أبي السعود ٣٩/٧ وفتح القدير ٢٠٢/٤ وروح

البيان ٢٥٨/١٠ والتسهيل لعلوم التنزيل ١١٦/٣ وغيرها .

فَلَيْسَ مِنِّي" (١) .

وفي حديث آخر أنهم كانوا يحاولون تقليد النبي ﷺ في مواصلة الصيام عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " لَا تُوَاصِلُوا " قَالُوا : " إِنَّكَ تُوَاصِلُ "

قَالَ : " إِنِّي لَسْتُ بِمِثْلِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِيَنِي " فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوَاصِلِ قَالَ : فَوَاصِلٌ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَيْنِ أَوْ لَيْلَتَيْنِ ثُمَّ رَأَوْا الْهَلَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

" لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَزِدْتُمْ " كَأَلْمُنْكَلٍ لَهُمْ " (٢) .

وفي حديث آخر عَنْ حُذَيْفَةَ ؓ قَالَ : " صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ فَقُلْتُ : " يَرْكُعُ عِنْدَ الْمِائَةِ " فَمَضَى فَقُلْتُ : " يَرْكُعُ عِنْدَ الْمِائَتَيْنِ " فَمَضَى فَقُلْتُ : " يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ " فَمَضَى فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتْرَسِلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُورَةٍ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِرُكُوعٍ رُكِعَ فَقَالَ : " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ " فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : " سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ " فَكَانَ قِيَامُهُ قَرِيبًا مِنْ رُكُوعِهِ ، ثُمَّ سَجَدَ فَجَعَلَ يَقُولُ : " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى " فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ رُكُوعِهِ (٣) .

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري في كِتَابِ النِّكَاحِ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ ١٩٤٩/٥ ورواه مسلم في كتاب النكاح : بَابِ اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ وَوَجَدَ مَوْنَةً . ١٠٢٠/٢ .

(٢) - الحديث رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : بَابِ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعْمُقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدْعِ ٢٦٦١/٦ ورواه مسلم في كتاب الصيام : بَابِ النَّهْيِ عَنِ الْوَاصِلِ فِي الصَّوْمِ ١٣٣/٣ .

(٣) - الحديث رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين : بَابِ اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ ٥٣٦/١ .

وفي كتب السنة أمثلة كثيرة في حسن تلمس الصحابة رضوان الله عليهم خطى الرسول وحسن التأسي به في كل أعماله وأقواله حبا ورغبة في التأسي به ، وعليه فمقام الترغيب أنسب مع الحب ، فيكون الرجاء أملا في أن يلقوا رسول الله ﷺ على الحوض يوم القيامة ، وطمعا في رحمة الله وغفران الذنوب ودخول الجنات والتلذذ برضا الله ورؤية وجهه الكريم ، وهذا ما أراه ألصق بالمؤمنين المخاطبين في الآيتين ، ولو حملنا عليه آية شعيب عليه السلام كان أجمل وأحسن ، وإن كان معنى الخوف فيها واضحا جليا بسبب أنهم كانوا يكذبونه ويعاندونه . والله أعلم .

الاسم الثالث : يوم الدين

جاء اليوم مصدقا إلى الذين ليُعرف يوم القيامة بيوم الدين ، وذلك لما فيه من المجازاة ، والدين بالكسر العادة والشأن ، يقال : دانه يدينه ديناً بالكسر أي أدله واستعبده فدان أي فصان ذلك شأنه له ، والدين أيضا الجزاء والمكافأة يقال : دانه يدينه ديناً أي جازاه يقال : " كما تدين تدان " أي كما تجازي تجازي بفعلك وبحسب ما عملت ، ومنه الديان في صفة الله تعالى ، والمدين العبد والمدينة الأمة كأنهما أدلهما العمل ، ودانه بمعنى ملكه ومنه سمي المصر مدينة لأنها تجمع الناس وتحتويهم فكانها تملكهم ، والدين أيضا الطاعة تقول : دان له يدين ديناً أي أطاعه ، ومنه الدين والجمع الأديان ، ويقال : دان بكذا ديانة فهو دين ، وتدين به فهو متدين ، ودينه تدبينا وكله إلى دينه ^(١) وإذا طبقنا هذه المعاني اللغوية على يوم الدين تبين لنا أن المراد به يوم المحاسبة حيث يحاسب الله كل إنسان على عمله ، وهو يوم الجزاء لأن الله يجازي فيه كل إنسان ، ويوم القهر والغلبة لأن الله

(١) - انظر : المحيط في اللغة ٣٦٠/٢ ولسان العرب ١٦٨/١٣-١٧٠ والنهاية ١٤٨/٢

يغلب فيه جميع الخلق ويقهرهم فلا اختيار لأحد في شيء .

وقد جاء تعريف يوم القيامة بيوم الدين في ثلاثة عشر موضعا من القرآن الكريم في مناسبات مختلفة يلاحظ فيها كلها أن الحساب والجزاء والقهر ملحوظ في سياقها حيث إنكار الكفار وبيان مفاجأتهم وما يلقونه في ذلك من الجزاء والعقوبة ، والآيات يمكن تصنيفها كما يلي :

أولا : الدلالة على مُلْك الله وقهره لجميع الخلق

بمعنى أن الله يجعل هذا اليوم يوم ملك وقهر يقهر فيه الظالمين المكذبين فيجمعهم ولا اختيار لهم ولا إرادة من أجل أن يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم ، ولذلك جاء ذكر اليوم في مقام المُلْك والمُلْك في قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاطحة ٤) وجاء بيان لبعض هذا المعنى في قوله

تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (الانفطار ١٧-١٩) .

وقد اختلفت القراءة في قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ ﴾ والمشهور فيها

قراءتان الأولى ﴿ مَلِكِ ﴾ بألف المد بعد الميم وهي من المُلْك بكسر الميم

، والقراءة الثانية ﴿ ملك ﴾ من المُلْك بضم الميم ، وكلتاها تكمل الواحدة

الأخرى ، فالله هو المالك وهو الملك ، والمُلْك هو القهر والتسلط على من

تتأتى منه الطاعة ، وما يكون تحت تصرف الإنسان وفي يده ، ويكون ذلك

باستحقاق وبغير استحقاق ، والله قد ملك الكون كله لأنه خالقه وهو

المتصرف فيه وملك يوم الدين بكل ما فيه من المخلوقات فلا ملك لأحد

يومها ، والمُلْك هو القهر على من تتأتى منه الطاعة ، ومن لا تتأتى منه ،

وهو بمعنى السيطرة ويكون ذلك منه باستحقاق ، فبينهما عموم وخصوص

من وجه (١) .

* واليوم هنا يراد به مطلق الوقت لأن الآخرة لا زمن فيها وإنما عبر عنها باليوم كما سبق على اعتبار أنها من الدنيا يوم آخر لا ينقضي وإضافة اليوم إلى الدين مع أن المراد به يوم القيامة ويوم الفصل ويوم الحساب وغيرها من التعريفات إشارة إلى أن نهاية المطاف في ذلك اليوم هي المجازاة والمحاسبة ، فلما كانت الغاية من قيام الناس من قبورهم وحشرهم ووقوفهم في ساحة العرض أن يحاسبوا ويجازوا على ما قدموا من خير أو شر صحت إضافة اليوم إلى ما يدل على ذلك من لفظ الدين الذي هو بمعنى الجزاء ، مع ما ذكر من المَلِك والمَلَك ليكون ترغيباً لكل من يعمل الصالحات أنه لا بد وأن يجازى بالخير على ما قدم فيقدم على عمل الصالحات مطمئناً أنه لن يضيع عليه شيء ، وليكون ترهيباً كذلك لكل من يعمل السوء أنه لا بد أن يأتي يوم يجازى فيه على ما قدم حتى يرعوي وينخلع من السوء ويلتفت إلى الجزاء فيستعد له بحسن العمل .

* وحتى يلفت الله أنظار العباد إلى ذلك المعنى فإنه استخدم فيه أسلوب التكرار مع السؤال المشعر بالتهويل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا

أَدْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿ ففي السؤال بهذه الصورة تهويل وتفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به ، ببيان أنه خارج عن دائرة دراية الخلق ؛ فعلى أي صورة تصوروه فهو فوقها وكيفما تخيلوه فهو أهم من ذلك وأعظم ، وذلك ليدفع الله العباد دفعا إلى التفكير في مدلول هذا اللفظ وتلك التسمية ليكون أرسخ للمعنى في أذهانهم

(١) - انظر : البحر المحيط ١/١٦٣-١٦٤ والقراءة بالمذ "مالك" لعاصم والكسائي والقراءة

بغير مذ "ملك" للباقيين ، انظر : الحجة في القراءات ٦٢ وحجة القراءات ٧٧ والتيسير

١٨ والسبعة ١٠٤ وإتحاف فضلاء البشر ١٦٣-١٦٤ .

وقلوبهم ، ومن ثم جاء الإجابة التي تقطع على العباد كل شك وتزيل عنهم كل ريب ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ فلا سلطان لأحد يومئذ إلا الله ، فإذا سمع المؤمن ذلك اطمأنت نفسه واستراح فؤاده ، وإذا سمع الكافر والظالم ذلك انخلع فؤاده وارتعدت فرائضه لما يتخيل من الأحوال في ذلك اليوم ولما يخاف من الجزاء على سوء ما قدم من عمل

يقول سيد قطب : (وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها ، كلية الاعتقاد بالآخرة . . والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة . ويوم الدين هو يوم الجزاء في الآخرة . . وكثيراً ما اعتقد الناس بالوهمية الله ، وخلقه للكون أول مرة؛ ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء . . والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ؛ فلا تستبد بهم ضرورات الأرض ، وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات ، ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود ، وفي مجال الأرض المحصور ، وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله ، في الأرض أو في الدار الآخرة سواء ، في طمأنينة لله وفي ثقة بالخير وفي إصرار على الحق ، وفي سعة وسماحة ويقين . . ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والרגائب والطلاقة الإنسانية اللاتقة ببني الإنسان ، بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية .

مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال ، وما تستقيم

الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمداً على العوض الذي يلقاه فيها . .

وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل ، فهما صنفان مختلفان من الخلق وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء . . وهذا هو مفرق الطريق . . أ. هـ

ثانياً : ما جاء في مدح المؤمنين ورغبتهم

وذلك أنه لما كان يوم الدين بهذه الصورة وفي هذه الحالة من التهويل والتفخيم لما يكون فيه من جزاء فإن الله امتدح عباده المؤمنين بأنهم يصدقون بذلك اليوم ، وقد جاء من قبل في أوصاف المؤمنين أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر وأنهم بالآخرة عامة يوقنون ، لكن الله يريد أن يمدحهم بأنهم يؤمنون باليوم عامة ويصدقون بكل ما يخبرهم الله عنه ، وأولى ذلك بالتصديق ما يكون فيه من جزاء يشعر عنه وصف اليوم بأنه يوم الدين وهذا التصديق يظهر أثره في حياتهم وفي تعاملهم مع بعضهم البعض ومع الناس على اختلاف مشاربهم وأحوالهم وأجناسهم بل ومع الكون كله كما جاء في وصف أعمالهم في سياق الآيات السابقة واللاحقة لقوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ (المعارج ٢٦) .

* ومن جميل ما جاء فيه التعبير بيوم الدين قول خليل الرحمن إبراهيم الذي جعل الله في حياته قولاً وفعلاً أسوة للمؤمنين وهو يدعو إلى عبادة ربه فيبثي عليه بصفات العظمة والملك والجلال ، وكان من جملة

هذه الصفات ما خلقه الله في القرآن الكريم من قوله : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ

يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (الشعراء ٨٢) .

وخص نبي الله يوم الدين بالذكر دون غيره من أسماء يوم القيامة أولاً ، وأنه يمكن أن تغفر الخطايا في الدنيا ثانياً لأن أثرها يتبين في يوم الدين ، يوم تبلى السرائر وينادى على كل إنسان للحساب والجزاء على ما قدم فيكشف عمله للناس ، أما الآن فالخطايا في خفاء وستر لا يعلم بها أحد ولأن في ذكر اليوم بهذا الاسم تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه على الذنوب إن لم تُغفر ، وهذا من باب الأدب مع الله من ناحية ولتعليم العباد ولفت أنظارهم إلى خطورة الذنوب والخطايا من ناحية ثانية (١) .

ثالثاً : الدلالة على دوام لعنة إبليس

وذلك أن إبليس - لعنة الله - لما عاند واستكبر وظن أنه يقدر على إغواء آدم وذريته طلب من الله أن يمهلّه ويؤخره إلى يوم يبعثون ، فرد الله عليه بأنه سيؤخره إلى يوم الوقت المعلوم بما في اللفظ من إبهام وتهويل كما سبق بيانه ، ثم طرده من رحمته ومن الجنة ومن الخير كله .

* وأوجب الله عليه اللعنة في الدنيا بطولها إلى يوم الدين ، وخص يوم الدين غاية لأنه أبعد ما يضربه الناس من وقت فهو وقت زوال الدنيا وانقطاع العمل فيها ، ولا وقت أبعد من ذلك ، وجاء الله بلفظ اللعنة مطلقة لتلحقه اللعنة من الله ومن الملائكة ومن الناس ومن خلق الله أجمعين في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى

يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الحجر ٣٥) ثم جاءت مضافة إلى الله لبيان شدتها والتهويل

(١) - انظر : تفسير أبي السعود ٢٤٩/٦ والكشاف ٣٢٥/٣ وابن عجيبة ٣٣٤/٤ .

من أمرها في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ (ص ٧٧-٧٨) .

* ومن يلاحظ التعبير عن يوم القيامة في حوار إبليس يدرك مدى الفرق في المعنى تبعاً لاختلاف حال المتكلم ، فإن إبليس لما سأل ذكر يوم القيامة بلفظ البعثة فقال : يوم يبعثون ، ويوم القيامة ، ولم يتطرق إلى ذكر يوم الدين ولا يوم الحساب ، لأنه يخشى ويخاف من هذين اللفظين وهما الدين الذي يدل على المجازاة والحساب الذي يدل على الشدة والهول لأنه يعرف أن حسابيه عظيم وجزاءه شديد ، فلما أجابه الله بالإمهال أكد له أنه سيمهله إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو لفظ ربما يشعره بوقت أجله أو بأنه يراد به يوم القيامة أو يوم فناء الدنيا ، وأبهمه الله عليه ليبقى في رعب وفي خوف فلا تسلم له حياته لحظة ولا يطمئن فيها ساعة .

* فلما حكم الله عليه باللعة الدائمة في الدنيا ذكر الغاية بما يشعر إبليس بمزيد من العذاب والخزي والنكال الذي ينتظره ، وما هو أشد من اللعة التي عاش بها في الدنيا فخص الحديث عن يوم القيامة بلفظ يوم الدين لأن الدين يشعر بالجزاء والمقاضاة ، وكأنه يقول : إن لعنتي مستمرة معك تلزمك في الدنيا تتقلب في دهرك ملعونا حتى يأتي اليوم الذي تجازى فيه على عملك السيئ بما هو أسوأ منه وما هو أشد من اللعة ، حتى لا يطمع إبليس في أن الله يمكن أن يخفف عنه لحظة واحدة ، وإنما سينتقل من شديد إلى أشد ومن لعنة إلى لعنة أكبر فيكون كالمستغيث من الرمضاء بالنار ، ليكون زيادة في النكال ولفتاً لأنظار المخاطبين بمصير إبليس حتى لا يتبعوه فينالهم ما يناله من اللعة وسوء الحساب .

قال الألوسي : (فيه إشعار بتأخير جزائه إليه وأن اللعة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ ، وفيه من التهويل ما

فيه ، وجعل ذلك غاية أمد اللعنة قيل : ليس لأنها تنقطع هنالك بل لأنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هي كالزائل وقيل : إنما غيًّا بذلك لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم فهو نظير قوله تعالى : ﴿ خُلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ (هود ١٠٧) .

وقال بعضهم : إن المراد باللعنة لعن الخلاق له ، لا لعنة الله تعالى عليه وذلك منقطع إذا نفخ في الصور وجاء يوم الدين دون لعن الله تعالى له وإبعاده إياه فإنه متصل إلى الأبد ^(١) .

رابعا : ما جاء في إنكار الكفار ومفاجأتهم ووعيدهم

وذلك أن الكفار اتبعوا الشيطان في غوايته إياهم فظلوا يماطلون ويعاندون ويسألون سؤال سخرية وإنكار عن موعد يوم القيامة وكيف يكون حتى حكم الله عليهم بالقتل واللعن والطرده من رحمة الله كما لعن إبليس قائدهم من قبل ، قال تعالى : ﴿ قَتَلَ الْحَارِثُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ

سَاهُونَ ۖ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلَّذِينَ ﴾ (الذاريات ١٠-١٢) .

* وسؤالهم هذا لا يعبر عن رغبة صادقة في المعرفة من أجل الاستعداد والعمل لذلك اليوم وخوفا مما فيه من حساب وجزاء ، وإنما هو سؤال تكذيب وإنكار بدليل أنهم حينما يتقحمون في النار يوم القيامة يسألون عن سبب دخولهم النار فيذكرون عدة أشياء ومنها أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين في حين أن الله امتدح المؤمنين من قبل بأنهم يصدقون به ، قال تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلَّذِينَ ﴾ (المدثر ٤٦) .

(١) - روح المعاني ٤٧/١٤-٤٨ وانظر : الكشاف ٥٤١/٢ والتفسير الكبير ١٩/١٤٦ وروح البيان ٦/٤٠٦ وتفسير ابن عجيبة ٣/٢٢٥ وغيرها .

* وقد أكدَّ الله هذا التّكذيب وبين أنه متجدد فيهم بتجدد الأيام وتوالي الزّمان ، فعبر بالفعل المضارع المشعر بالتجدد والحدوث حالا بعد حال مهما تبين لهم من الآيات ومهما أقيم عليهم من الحجج والبراهين ما يقطع بحقيقة ذلك اليوم ووقوعه لا محالة ، قال تعالى : ﴿ وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ (المطففين ١١) .

* ولما كان تكذيبهم مستمرا لدرجة أنهم أقنعوا أنفسهم بأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ووطنوا أنفسهم على ذلك جاء يوم الدين مفاجأة صاعقة لهم وكأنهم قد سمعوا به لأول مرة فينطقون من دهشتهم يدعون على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك لأنهم وجدوا الأمر حقيقة وشاهدوه عيانا في وقت لا ينفع فيه التصديق ولا يجدي معه الإيمان فيؤبخون ويؤيكتون ويقال لهم على سبيل التشفي والتكيل : هذا الذي كنتم به تكذبون ، فبماذا نفعمكم التّكذيب ؟ وبماذا عاد عليكم الإنكار قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ

زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ وَقَالُوا يَنْوِيلُنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿ (الصافات ١٩-٢٠) .

* والتعبير بإذا في قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ للدلالة على شدة المفاجأة وهول المباغثة ، وكأنهم ما كان لديهم أي توقع ولا فكرة وكأنه ما قيل لهم عن هذا اليوم أي شيء لأنهم كانوا في لجج من الخصومة والإنكار حتى استولى عليهم ذلك الإنكار وكانت مفاجأة شديدة حين يجد الواحد منهم نفسه قائما ينظر حوله فيرى ما كان ينكره حقيقة واقعة تبصرها العين وتسمعها الأذن ويعقلها الفؤاد أوضح ما تكون المعاينة .

* وقولهم : ﴿ يَنْوِيلُنَا ﴾ دال على شدة الحسرة والأسف على تكذيبهم

السابق فهي كلمة تقال عند شدة الخطب يستدعي بها الإنسان الهلاك على نفسه كأنه يقول : يا ويل احضر فهذا أوانك ، وإنما يقول الكافر ذلك لأن ما هو فيه أشد وأقوى من أن يتحملة ، ويا ليت الويل يحضرهم والهلاك إنما هو العذاب والخزي الدائم !

خامسا : ما يدل على مجازاة الكافرين

وهو المعنى الظاهر من لفظ الدين ووصف يوم القيامة وتسميته بهذا الاسم فإنهم لما بعثوا وفوجئوا بما كانوا ينكرونه وأخذتهم الدهشة بين الله لنا أنهم ينالهم من العذاب والنكال في ذلك اليوم ما يكون جزاء على هذا الإنكار وذلك التكذيب الذي أدى بهم إلى سوء العمل واليغي والظلم والعدوان على الناس بغير حق ، فذكر الله تعالى أنهم يعذبون بالسموم والحميم وأنهم يأكلون من شجر الزقوم ويشربون عليه من الحميم فيهيمنون في النار على وجوههم من شدة ما هم فيه من العذاب ، ثم عقب الله على ذلك العذاب ببيان أن هذا نزلهم وهذا هو الذي أعد لهم فقال تعالى : ﴿

هَبْذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (الواقعة ٥٦) وإنما خص يوم الدين بالذكر في هذه الآية للدلالة على ما فيه من الجزاء على سابق فعالهم السيئة وأعمالهم القبيحة ، وكأنه يقول : هذا نزلهم وما أعدّه الله لهم ليكون جزاء وفاقا في يوم الجزاء .

* وأكد الله ذلك أيضا بذكر ما يصيب الفجار من الجحيم والسعير وأنهم يصلونها يوم الدين يوم الجزاء ليشعر المخاطبين بقيمة العدل فאלله لم يفعل بهم ذلك تجبرا ولا قهرا ولا ظلما وإنما هو جزاء يعبر عنه وصف ذلك اليوم بيوم الدين ، ويشدد على ذلك الوصف بتكراره في صيغة سؤال يدعو إلى الدهشة والعجب ويثير في النفس صورا من التهويل والتفخيم لما يكون في ذلك اليوم من جزاء عادل لهؤلاء المكذبين المعاندين قال تعالى :

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (الانفطار ١٥-١٩) .

الاسم الرابع : يَوْمُ الْفَصْلِ

وقد سبق عند الحديث عن يوم القيامة وما يكون فيه من أهوال أن الله وصفه بأنه يوم يفصل الله فيه بين الخلاق بألوان متعددة من الفصل فهو فصل بين المؤمنين والكافرين عامة ، وفصل بين المؤمنين والكافرين في كل أمة من الأمم ، وفصل بين الفرق المختلفة التابعين لملة واحدة يزعم كل فريق أنه على الحق ، وفصل بين فرق اليهود وفرق النصارى وفصل بين المؤمنين والمنافقين ، وفصل حتى بين الحيوانات العجماوات بحيث يقتص لبعضها من بعض ، وفيه فصل بين الظالمين والمظلومين ، وفيه فصل بين كل من اختلف في أمر من الأمور .

* لأجل ذلك كله جاء ذكر اليوم مضافا إلى كلمة الفصل ومعرفا في ستة مواضع من القرآن الكريم ليعرف يوم القيامة بيوم الفصل وذلك لأن الله يفصل بين الخلاق عامة وبين المكلفين بصفة خاصة ، فيقضي بينهم ويفصل المؤمنين عن الكافرين والفجار عن الأبرار وبالجملة يفصل أهل الجنة عن أهل النار .

وقد جاء في حديث النبي ﷺ ما يشير إلى تلك الألوان المختلفة من الفصل عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَنَسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا :
" يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ "

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " نَعَمْ هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ ؟ " قَالُوا : " لَا " قَالَ : " وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ

ضوء ليس فيها سحاب؟ " قالوا : " لا "

قال النبي ﷺ : " فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا " ثُمَّ قَالَ : " يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ وَأَصْحَابُ كُلِّ إِلَهَةٍ مَعَ إِلَهَتِهِمْ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغَيْرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَانَتْهَا سَرَابٌ فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ : " مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ " "

قالوا : " كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيزَ ابْنِ اللَّهِ " فَيُقَالُ : " كَذِبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ ، فَمَا تُرِيدُونَ ؟ " قالوا : " نُرِيدُ أَنْ تَسْقِينَا " فَيُقَالُ : " اشْرَبُوا " فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ .

ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى : " مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ " فَيَقُولُونَ : " كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ " فَيُقَالُ : " كَذِبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ ؟ " فَيَقُولُونَ : " نُرِيدُ أَنْ تَسْقِينَا " فَيُقَالُ : " اشْرَبُوا " فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ فَيُقَالُ لَهُمْ : " مَا يَخْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ ؟ " فَيَقُولُونَ : " فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ الْيَوْمَ وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّمَا نُنْتَظِرُ رَبَّنَا " "

قال : " فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ : " أَنَا رَبُّكُمْ " فَيَقُولُونَ : " أَنْتَ رَبُّنَا ! " فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ فَيَقُولُ : " هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ نَعْرِفُوهُ ؟ " فَيَقُولُونَ : " السَّاقُ " "

فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ، وَبَيَقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسَمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدُ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ

بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ "

قُلْنَا : " يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْجَسْرُ ؟ "

قَالَ : " مَدْحَضَةٌ مَرَّلَةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفْلَاطِحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عَقِيفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا : السَّعْدَانُ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرُّكَّابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشِدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ : " رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يَصْلُونُ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا " فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

" اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ " وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَيَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ : " اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ " فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ : " اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ " فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَأَقْرَأُوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴾ فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ .

فَيَقُولُ الْجَبَّارُ : " بَقِيَّتْ شَفَاعَتِي " فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتَحِشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ : مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ ، فَيُخْرِجُونَ كَأَنَّهُمُ اللَّوْلُؤُ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : " هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَمُوهُ " فَيَقَالُ لَهُمْ : " لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ " (١) .

وجاء في رواية : " فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مُنَافِقٌ أَوْ مُؤْمِنٌ نُورًا ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبٌ وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِ ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ " .

وعن ابن عباس ؓ في قول الله ﷻ : ﴿ يَوْمَ لَا تُخْزَى اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ قال : " لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْمُوحِدِينَ إِلَّا يُعْطَى نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُطْفَأُ نُورُهُ ، وَالْمُؤْمِنُ مُشْفِقٌ مِمَّا رَأَى مِنْ إِطْفَاءِ نُورِ الْمُنَافِقِ فَهُوَ يَقُولُ : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ (التحریم ٨)

وفي الأثر عن أبي أمامة ؓ وقد خطب الناس بعدما دفنوا جنازة فقال : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ قَدْ أَصَبَحْتُمْ وَأَمْسَيْتُمْ تَقْتَسِمُونَ فِيهِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ وَتُوشِكُونَ أَنْ تَظْعَنُوا مِنْهُ إِلَى الْمَنْزِلِ الْآخِرِ وَهُوَ هَذَا - يُشِيرُ إِلَى الْقَبْرِ - بَيْتُ الْوَحْدَةِ وَبَيْتُ الظُّلْمَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ وَبَيْتُ الضِّيقِ إِلَّا مَا وَسَّعَ اللَّهُ ، تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَى مَوَاطِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّكُمْ لَفِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ حَتَّى يَغْشَى النَّاسَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فَتَبْيِضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ فَيَغْشَى النَّاسَ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ ثُمَّ يُقَسَّمُ النُّورُ فَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ نُورًا وَيُتْرَكُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَلَا يُعْطِيَانِ شَيْئًا ، وَهُوَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَتِ فِي سَحَرٍ لُجِّيٍّ

(١) - الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد : بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ ومواضع أخرى . انظر : ١٦٧١/٤ - ١٦٧٢ و ٢٧٠٦/٦ - ٢٧٠٧ .

يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بِعَظْمِهَا فَوْقَ بَعْضِ
 إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَنَّهُا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ
 ﴿النور ٤٠﴾ وَلَا يَسْتَضِيءُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ بِنُورِ الْمُؤْمِنِ كَمَا لَا يَسْتَضِيءُ الْأَعْمَى
 بِبَصَرِ الْبَصِيرِ ، يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا : ﴿ أَنْظِرُونَا نَقْتَسِسَ مِنْ نُورِكُمْ
 قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وَهِيَ الْخُدْعَةُ الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْمُنَافِقُ قَالَ
 اللَّهُ ﷻ : ﴿ تَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قُسِمَ
 فِيهِ النُّورُ فَلَا يَجِدُونَ شَيْئًا فَيَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ ضُرِبَ ﴿ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ
 بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴿
 نَصَلِّي بِصَلَاتِكُمْ وَنَعُزُّو بِمَغَارِكُمْ ؟ ﴾ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ
 وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿ تَلَّا إِلَى
 قَوْلِهِ : ﴿ وَيَسْ أَلْمَصِيرُ ﴾ (الحديد ١٣-١٥) " (١).

ففي هذه الأحاديث بيان للفصل بين الطوائف المختلفة من المسلمين
 واليهود والنصارى وعبداء الأوثان من جهة ، وبين المؤمنين والمنافقين من
 جهة ثانية وبين من يدخلون الجنة حسب تفاوتهم في الدرجات والمنازل من
 ناحية ثالثة ، وبين من يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة وبين من
 يقيمون فيها لا يخرجون من ناحية رابعة ، كل ذلك في يوم الفصل .

(١) - الأثر عن أبي أمامة وعن ابن عباس رواهما الحاكم في المستدرک ٤٣٤/٢ و٥٨٣ وقال
 عن كل منهما : صحيح الإسناد ، والطبراني في الكبير ١٢٢/١١ ونقلهما ابن حجر في
 فتح الباري ٤٥٢/١١ وانظر : مدارج السالكين ٣٥٧/١ .

وفي الحديث عن النبي ﷺ قَالَ : " لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ تَنْطَحُهَا " وفي رواية : " إِنَّ الْجَمَاءَ لَتُقَصُّ مِنَ الْقَرْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " وفي رواية : " يَقْتَصُّ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى الْجَمَاءُ مِنَ الْقَرْنَاءِ وَحَتَّى الدَّرَّةُ مِنَ الدَّرَّةِ " (١)

وفي الحديث النبوي الشريف صور كثيرة من صور هذا الفصل الذي يكون في يوم الفصل الذي كذب به الكافرون ففاجأهم الله به يوم يبعثون من قبورهم وينادى عليهم فيقال لهم : هذا يوم الدين لما ينتظرهم من الجزاء ثم يؤكد هذا القول بذكر وصف آخر ومسمى آخر لهذا اليوم بأنه يوم الفصل وذلك لما يقع فيه من الفصل بينهم وبين المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ (الصافات ٢١) .

* ولما كانت حجة الكفار التي تمسكوا بها أنهم يرون الآباء والأسلاف قد ماتوا ثم لا يرجعون فيقولون للنبي ﷺ وللمسلمين : إن كنتم صادقين في أن البعث حق فأتوا بآبائنا وأسلافنا حتى نصدقكم فكان ردُّ الله المفحم القاطع بأن ذلك آت وواقع لا محالة ولا ريب في يوم يفصل الله فيه بين الحق والباطل ويفصل بين التكذيب القائم على الظن والتخمين والتصديق القائم على العيان والمشاهدة ، ويفصل بين وقت العمل ووقت الجزاء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الدخان

(١) - الحديث رواه أحمد في المسند ٧٢/١ و ٣٠١/٢ و ٣٦٣ والطبراني في الأوسط ٣٣٥/٥ وهناد في الزهد ٣٠١/١ وذكره ابن كثير في التفسير ٨٩/٣ و ٤٦٧/٤ والسيوطي في الدر المنثور ٢٢٩/٣ و ٤٥٦/٨ والمنذري في الترغيب والترهيب ٢١٧/٤ وقال : رواه رواية الصحيح ، وروى مثله الحاكم في آثاره عن بعض الصحابة في المستدرک ٣٤٥/٢ و ٦١٩/٤ وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٤٠) وقال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ (المرسلات

٣٨) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ (النبأ ١٧) .

* فهذا اليوم هو الذي وقته الله للرسول وأمهل الكافرين إليه فلم يعاجلهم بالاستئصال في الدنيا حتى يكون الفصل بينهم وبين من يكذبهم وحتى يصور شدة ذلك اليوم وهول الفصل الذي يكون فيه كرر الله ذكر اليوم في صيغة سؤال يدعو إلى العجب ويثير في النفس عوامل التهويل من شأنه فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ ۖ لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِلَّتْ ۖ لِيَوْمِ

الْفَصْلِ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ (المرسلات ١١-١٤) .

الاسم الخامس : يوم الحساب

الحساب والحسابة : عد الشيء ، يقال : حسب الشيء يحسبه بالضم حسباً وحساباً وحسابة بمعنى عدّه ، ومنه أخذ الحسب وهو الشرف حيث يعددون مفاخر الرجل ومآثره ، ومنه أخذ الحساب بمعنى الشيء الكثير نظراً لاحتوائه على عدد كثير ، ومنه الحساب بمعنى القضاء والفصل والمحاسبة لأن المحاسب يعدد ويحسب ما يراد منه للحساب ، ومن هذا أخذت تسمية يوم القيامة بيوم الحساب ^(١) لأن الله يحاسب عباده فيعدّد عليهم أعمالهم صغيرها وكبيرها من أجل أن يجازيهم عليها ، فالحساب مرحلة تسبق الجزاء ، ولذلك كان هنالك حساب يسير للمؤمن بأن يعرض الله عليه عمله ولا يناقشه فيه وإنما من باب إظهار فضل الله عليه يوم القيامة ، كما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ ۖ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " مَنْ تُوقِشَ الْحِسَابَ عُدِّبَ "

(١) - انظر : لسان العرب ١/٣١١-٣١٣ ومختار الصحاح ٥٧ .

قَالَتْ قُلْتُ أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَوْفَ نَحَسِّبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾

قَالَ : " ذَلِكَ الْعَرَضُ " (١) .

وقد جاء تفصيل ذلك العرض والحساب اليسير عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرَّرٍ
الْمَازِنِيِّ رحمهما الله قَالَ : " بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رحمهما الله أَخَذَ بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ
فَقَالَ : " كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي النَّجْوَى ؟ "

فَقَالَ : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إِنَّ اللَّهَ يُذِنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ
كَفَّهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ : " أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا "

فَيَقُولُ : " نَعَمْ أَيُّ رَبِّ " حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ
قَالَ : " سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ " فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ،
وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ^ع

أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (هود ١٨) (٢) .

وهناك الحساب العسير للكافرين والفاجرين حيث يناقشهم الله الحساب
والأعمال بما في المناقشة من تبكيت وتأنيب وخزي ومذلة وصغار وهوان
* وقد جاء ذكر اليوم مضافا إلى الحساب ليعرف يوم القيامة بأنه
يوم الحساب مرتين في سورة واحدة في طلب المشركين استعجال نصيبهم
من العذاب أو من النعيم في الجنة قبل يوم الحساب من باب الاستهزاء
والسخرية واستبعاد أن يكون ذلك حقيقة في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا

عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (ص ١٦) .

(١) - الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق : بَاب مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ غُذِبَ ٢٣٩٤/٥ .

(٢) - الحديث رواه البخاري : كتاب المظالم : بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ ﴾ ٨٦٢/٢ و ١٧٢٥/٤ .

* والقَطُّ هو النصيب والحظ ، وقد قالوا ذلك لما توعدهم رسول الله بالنار يوم القيامة وبين لهم أن كل إنسان سيحاسب على ما قدم من خير أو شر فيجزى به ، سخرُوا من أمرين في الآية أولهما أن يكون هنالك بعث أصلاً وثانيهما أن يكون هنالك حساب ، فهم يذكرون يوم الحساب ليس اعترافاً به وإنما إنكاراً لليوم وإنكاراً لوقوع الحساب ، ولذلك تجرأ بعضهم على الله وطالبوه بتعجيل الحساب كما هنا وكما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال ٣٢) ولأجل هذا جاءت الآية التالية تطالب رسول الله ﷺ بالصبر على ما يقوله الكفار والتأسي بصبر الأنبياء على ما قالهم من أذى وفتنة وابتلاء (١) .

* وجاء أيضاً ذكر يوم الحساب في سياق ذم الكافرين فإنهم من كثرة ما سخرُوا من ذكر يوم القيامة وأنكروا وقوعه حتى كأنهم نسوه وتغافلوا عنه ، فبين الله تعالى أنهم لهم عذاب شديد على ما ارتكبوه من أعمال أدى بهم نسيان يوم الحساب إلى اقترافها ، لأن من يذكر يوم الحساب وما يكون فيه من نشر الأعمال وعرضها والمحاسبة عليها فإنه يعمل لذلك اليوم بخوف ورهبة فتقل سيئاته وتكثر حسناته ، أما من نسي فإنه لا يبالي بما يعمل ولا بما يقدم لأنه ليس في باله شيء ولا في قلبه رهبة ولا خوف من ذلك اليوم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص ٢٦) فالعذاب الشديد إما لضلالهم المترتب على النسيان وإما لنسيانهم يوم الحساب من باب المبالغة في تقبيح

النسيان .

قال أبو السعود : ﴿ بِمَا نَسُوا ﴾ بسبب نسيانهم ، وقوله تعالى : ﴿

يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ إما مفعولٌ لنسوا فيكون تعليلاً صريحاً لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعليّة ما يستتبعه ويستلزمه أعني الضلال عن سبيل الله تعالى فإنّه مستلزمٌ لنسيان يوم الحساب بالمرّة بل هذا فردٌ من أفرادِهِ ، أو ظرفٌ لقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامة بسبب نسيانهم الذي هو عبارةٌ عن ضلالهم ، ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذٍ عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان ، ومن لم يفتبه لهذا السرّ السريّ قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فإنّ تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر (١) .

** وقد جاء ذكر يوم الحساب بلفظ آخر يدل على شدة العذاب والتهويل من أمر ذلك الحساب حيث أسند له القيام في يوم البعث وكأن الحساب شخص قائم بذاته له إرادة وله قيام وحركة وهمة ونشاط وذلك من باب المبالغة في وقوع الحساب وتحقيق المحاسبة لكل شخص ، وذلك في دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم ٤١) .

* ومعنى يقوم أي يثبت ويتحقق ، واستعمال القيام فيما ذكر إما مجاز مرسل أو استعارة ، حيث شبه الحساب بشخص له إرادة وله قيام كما

يقولون : قامت الحرب وقامت السوق ، ويجوز أن يكون قد شبه الحساب
برجل قائم على الاستعارة المكنية وأثبت له القيام على التخيل ويجوز أن
يقع حذف المضاف فيكون المراد يوم يقوم أهل الحساب فحذف المضاف
وأسند القيام إلى الحساب ، كما يقال : ﴿ وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا

وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ (يوسف ٨٢) واليقين أنه لن يسأل القرية وإنما
يسأل أهلها ، ولن يسأل العير وإنما يسأل أصحابها ، والتقدير واسأل أهل
القرية وأصحاب العير فكذاك هنا : يقوم أهل الحساب وإنما قصد بهذا
الحذف التهويل من شأن الحساب (١).

الاسم السادس : يومُ الجمعِ

وجاء لفظ اليوم مضافا إلى الجمع ليعرف يوم القيامة بيوم الجمع
وسمي بذلك لأن الله يجمع فيه الأشلاء المتناثرة والأرواح المتتافرة ويجمع
فيه كل الخلائق في موقف العرض والحساب ، وقد جاء ذكر يوم الجمع في
آيتين من القرآن الكريم : قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ
وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشورى ٧) وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾
(التغابن ٩) .

* والآية الأولى توضح أن من أهم المقاصد التي أنزل عليها القرآن
هو تحذير الناس من يوم القيامة وما يكون فيه ، وتقرير حقيقة هذا اليوم
بأحواله في نفوسهم لتؤمن به قلوبهم فيستعدوا له بجوارحهم وأعمالهم .

(١) - انظر : روح المعاني ٢٤٤/١٣ واللباب ٥/١٠ وتفسير أبي السعود ٥٤/٥ والبيضاوي
٣٥٤/٣ والكشاف ٥٢٧/٢ والتفسير الكبير ١١١/١٩ وغيرها .

* وقد وصف الله اليوم الآخر في الآيتين بيوم الجمع لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين ، حيث ينكر الكفار البعث بحجة أن الآباء قد مضوا وأن الأسلاف قد رحلوا وما لهم بهم من معاناة تؤكد لهم رجوعهم ، ثم إنهم تناولوا في العناد وازدادوا في الضلالة ولجوا في غيهم وطلبوا من الرسول ﷺ أن يثبت لهم ذلك بأن يأتي لهم بآرائهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَقَائِلُونَ ﴾ (٣٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِغَابِئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿ (الدخان ٣٤-٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتْتُوا بِغَابِئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الجن ٢٥)

وكان رد الله عليهم في هذه المواطن وغيرها في غاية الإفحام وقوة الجواب بما يؤكد أنهم مجموعون هم وآباؤهم إلى ميقات يوم معلوم وذلك أن الله هو الذي يحيي وهو الذي يميت وهو الذي يجمع الناس إلى يوم القيامة لا ريب فيه .

* وفي تعدي الإنذار في الآية الأولى إلى يوم الجمع مباشرة مع أن الإنذار هو التخويف والمراد تنذره من العذاب في ذلك اليوم ، من باب المبالغة والتهويل من شأن ذلك اليوم ، حتى كأنه ينذرهم من اليوم بأسره لأن كل ما يكون فيه سيء بالنسبة لهم فلا يرجى لهم فيه خير ولا راحة وذلك أنه لما كان الحدث يعم اليوم كله خيرا كان أو شرا فإنه يصح تعدي الفعل إلى اليوم مباشرة ، ولما كان الشر الذي ينذرهم الله إياه مستطيرا في هذا اليوم وعاما في كل أحواله ومراحله بالغ في إظهار ذلك وجعل الإنذار من اليوم .

* ويأتي لفظ اليوم ولفظ الجمع مكررين في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ

تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ من باب التأكيد ولفت أنظار الناس إلى ذلك اليوم أولا وإلى ما يكون فيه من الجمع ثانيا ، وجاء لفظ الجمع في تعريف اليوم معرفا بتعريف العهد للتهويل والمبالغة ، كأنه يقول : الجمع الكامل المعهود الذي لا جمع مثله ولم يعرفه الخلق ولم يتصوروه ، وكأنه هو وحده الذي يطلق عليه لفظ الجمع ، ولا يقاربه في المعنى أي جمع آخر مهما بلغ في أعين الناس من كثرة كاثرة أو جموع هائلة ، وذلك ليكون الكلام أوقع في النفوس ويكون التأكيد أعظم في التقريع والتوبيخ وأشد في التهويل والترهيب ، وهذا أحد معاني يوم الجمع .

* ويسمى يوم القيامة بيوم الجمع أيضا لأن الله لا يجمع فيه الناس بأبائهم وأسلافهم وأزواجهم وذرياتهم فحسب وإنما لأنه يجمعهم بأعمالهم أيضا فيرى كل إنسان عمله حاضرا ويراه أهل المحشر ، والأدهى من ذلك أن يجمع الله فيه جميع الخلق من الإنس والجن والطير والوحش والدواب وغيرها من سائر المخلوقات ، والأشد منه هولا أن يكون ذلك الجمع في صعيد واحد والكل على مرأى ومسمع من الكل بحيث ينكشف الناس للناس ليعظم فرح الصالحين ويشتد خزي المكذبين المعاندين على رؤوس الأشهاد ، ويصور هول ذلك الجمع قول النبي ﷺ : " يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيَبْصِرُهُمُ النَّاطِرُ وَيَسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَتَذْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ ... الحديث " وفي رواية بزيادة " فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْمِلُونَ ... الحديث " (١).

(١) - الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء : باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ ١٢١٥/٣ والزيادة من سنن النسائي ٣٧٨/٦ .

وعن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام ٣٨) قالوا : " يَحْشُرُ اللهُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْبَهَائِمَ وَالْدَوَابَّ وَالطَّيْرَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَيَبْلُغُ مِنْ عَذْلِ اللهِ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَأْخُذَ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ نَطَحَتْهَا إِذَا فَرَعَ اللهُ مِنَ الْقِصَاصِ بَيْنَ الدَّوَابِّ قَالَ لَهَا : " كُونِي ثُرَابًا " فَتَكُونُ ثُرَابًا فَيَرَاهَا الْكَافِرُ فَيَقُولُ : " يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ثُرَابًا " ^(١).

* وهذا من أسرار تسمية يوم القيامة بيوم الجمع ، فإن الله يخزي الكافر ويذله على رؤوس الأشهاد والخلائق يوم يرى أنه أوضع وأقل من الحيوانات حتى إنه ليتمنى في ذلك اليوم أن لو كان في الدنيا كلبا أو خنزيرا أو فأرا ، وكان يأتي عليه هذا اليوم فيقال له : كن ترابا كسائر الحيوانات والبهائم والدواب ، ولكنه لن يدركها ولن ينالها أبدا فإن مصيره إلى النار ، وهنالك يسمعه المؤمن ويرى ذلك الجبار الذي كان يعذبه ويؤذيه ويتعالى عليه وهو يتصاغر ليكون في مرتبة أدنى وأحط وأقذر من أحقر الحيوانات كالكلب والخنزير وغيرها ، هناك يفرح المؤمن ويسرُّ وهو يرى الجبار المستعلي في هذا المشهد المهين وهو بذلك الخزي وتلك الذلة والمهانة ، وهنا ندرك قيمة التسمية بيوم الجمع .

* وقيل في سبب التسمية بيوم الجمع أن الله يجمع أهل السماء وأهل الأرض وقيل هو يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله وقيل لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم وقيل لأنه يجمع فيه بين كل نبي وأمه وقيل لأنه يجمع فيه

(١) - الأثران رواهما الطبري في التفسير ١٨٩/٧ و ٢٦/٣٠ والحاكم في المستدرک ٣٤٥/٢ و ٦١٩/٤ وابن كثير في التفسير ١٣٢/٢ و ١٤٩ و ٤٦٧/٤ .

بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي (١).

الاسم السابع : يوم البعث

وجاء مضافا إلى البعث ليوصف يوم القيامة بأنه يوم البعث ، وأصل البعث إزالة ما يحول بين الشيء وبين الحركة والانطلاق والتصرف ، ومنه أطلق البعث على الإرسال كبعث الرسل ، وأطلق على التنبيه والإيقاظ من النوم يقال : أُنْبِعثَ الشيءُ وَتَبِعَتْ : اندفع ، وَبَعَثَهُ مِنْ نَوْمِهِ بَعَثًا فَانْبَعَثَ بمعنى أَيْقَظَهُ وَأَهَبَّهُ ، ويقال : رَجُلٌ بَعَثَ أَي كَثِيرُ الْإِنْبِعَاثِ مِنْ نَوْمِهِ ، وَرَجُلٌ بَعَثَ وَبَعَثَ وَبَعَثَ : لَا تَزَالُ هُمُومُهُ تَوْرِقُهُ وَتَبْعَثُهُ مِنْ نَوْمِهِ وَالبعثُ : إثارةُ بَارِكٍ أَوْ قَاعِدٍ ، نقول : بَعَثْتُ البعيرَ فَانْبَعَثَ أَي أَثَرْتُهُ فَتَارَ . والبعث : الإسراع في المشي نظرا لزوال ما كان يقيدُه عن الحركة ، يقال : أُنْبِعثَ فِي السَّيْرِ أَي أُسْرِعَ (٢) .

ويطلق البعث كذلك على الإحياء من الموت والخروج من القبر فكأن الخلق في قبورهم كانوا مقيدين محبوسين فأرسلوا من حبسهم وقيودهم فاندفعوا وهبوا وقاموا بعدما أزيل عنهم ما كان يحول بينهم وبين القيام والانطلاق ، ولكن البعث المقصود هنا بعث مخصوص على وفق ما يريد الله من حشر الناس وجمعهم للحساب والجزاء يوم القيامة ، ومن هنا سمي يوم القيامة بيوم البعث والبعث هو أول مراحل يوم القيامة حيث يخرج الناس من قبورهم ويحييهم الله بعد موتهم .

وقد جاء ذكر يوم البعث مكررا في آية واحدة من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا

(١) - انظر : تفسير القرطبي ١٨/١٣٦ .

(٢) - انظر : لسان العرب ٢/١١٧ ومختار الصحاح ٢٣ .

تَعْلَمُونَ ﴿ (الروم ٥٦) .

وقد وضع الظاهر موضع الضمير في قوله : ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ وكان يمكن أن يقول : فهذا هو ، وذلك من باب التنويه إلى عظيم شأن ذلك اليوم ولفت الأنظار على ما فيه من ذكر البعث وقدره الله على إحياء الموتى ونشرهم من قبورهم ، وردا على إنكار الكفار وتكذيبهم بذلك اليوم أصلا ، وإنكارهم لوقوع البعث تبعا لذلك .

الاسم الثامن : يوم الحسرة

وجاء لفظ اليوم مضافا إلى الحسرة ليعرف يوم القيامة بيوم الحسرة والحسرة أشد التلطف على الشيء الفائت وشدة الندامة ، تقول : حسرت على الشيء من باب طرب حسرة فهو حسيّر ، وحسرتة غيره تحسيرا والتحسر أيضا التلطف ، ورجل محسّر بوزن مكسر أي مؤذى (١) .

* وسمي يوم القيامة بيوم الحسرة لشدة تحسر الناس وندمهم على ما سبق من تقريظ وتكذيب بيوم القيامة حين يعاينوه فينالهم فيه حسرة ما بعدها حسرة لأنها حسرة دائمة لا يفيقون منها ولا تنتهي ولا تزول ، ولما كانت الحسرة شديدة والخزي كبير والندم مستمر صرح أن يوصف اليوم بأنه يوم الحسرة لأن الحسرة عمت وقتهم كله من أول البعث إلى ما لا نهاية فهم يتحسرون في موقف العرض ويتحسرون عند الميزان ويتحسرون عن الحساب ويتحسرون وهم في نار جهنم .

* وقد جاء ذكر يوم الحسرة في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ

الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ (مريم ٣٩) .

وتعدى الإنذار إلى اليوم مباشرة والمقصود الإنذار بما يكون فيه من حسرة وندامة وعذاب ، وإنما تعدى إلى اليوم مطلقا كما تعدى من قبل إلى يوم الجمع للدلالة على عموم الحسرة في كل منازل ذلك اليوم من أول البعث حتى الحساب حتى إطباق النار عليهم ، وقد جاء في تفسير الآية ما يشير إلى سبب تحسرهم وذلك حين يذبح الموت ويعلن بالخلود في النار فتطبق عليهم النار وينقطع رجاؤهم في الرحمة والخروج ، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

" يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَنَادِي مُنَادٍ : " يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ " فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ

ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ :

" يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ "

ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) .

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قَالَ : " يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاسٍ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَاسْتَنْشَقُوا رِيحَهَا وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا نُودُوا : أَنْ أَصْرَفُوهُمْ عَنْهَا لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ، فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا رَجَعَ الْأَوَّلُونَ بِمِثْلِهَا ، فَيَقُولُونَ : " يَا رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِيَنَا مَا أَرَيْتَنَا كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا "

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري ١٧٦٠/٤ كتاب التفسير : سورة مريم بَابِ قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ ورواه مسلم ٢١٨٨/٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها : بَابِ النَّارِ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ .

قَالَ : " ذَلِكَ أَرَدْتُ بِكُمْ ، كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِالْعِظَائِمِ وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُحِبِّتِينَ تُرَاوُونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ ، هَبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي وَأَجَلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجَلُّونِي ، تَرَكْتُمُ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرَكُوا لِي ، فَالْيَوْمَ أَذِيقُكُمُ الْعَذَابَ مَعَ مَا حَرَمْتُكُمْ مِنَ النَّوَائِبِ " (١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ : " مَا مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ وَبَيْتٍ فِي النَّارِ وَهُوَ يَوْمُ الْحَسْرَةِ فَيَرَى أَهْلُ النَّارِ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ قَدْ أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ لَوْ آمَنُوا فَيَقَالُ لَهُمْ : " لَوْ آمَنْتُمْ وَعَمِلْتُمْ صَالِحًا كَانَ لَكُمْ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ فِي الْجَنَّةِ " فَتَأْخُذُهُمُ الْحَسْرَةُ ، وَيَرَى أَهْلُ الْجَنَّةِ الْبَيْتَ الَّذِي فِي النَّارِ فَيَقَالُ : " لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ " (٢) .

الاسم التاسع : اليوم الحق

حيث جاء اليوم موصوفاً بالحق في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾

فَمَنْ شَاءَ آخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿ (النبا ٣٩) ﴾ وسرُّ وصفه بذلك للدلالة على أحقية هذا اليوم بالحق لأنه الحقيقة الباقية الخالدة ، أما سائر الأيام فإنها تكون حقا في وقتها لكنها تمضي وتزول وتبقى أثرا بعد معاناة ولا يملك أحد لها إعادة ، فهو الأجدر بهذه الصفة التي تدل على الثبوت لأنه ثابت بلا انقطاع ولا زوال ولا تغير .

(١) - الحديث رواه الطبراني في الكبير ٨٥/١٧ وفي الأوسط ٣٣٦/٥ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٢٥/٤ وانظر : الترغيب والترهيب ٣٧/١ .

(٢) - الأثر رواه الحاكم في المستدرک ٥٤٢/٤ و٦٤١ وقال : صحيح على شرط الشيخين ورواه الطبراني في الكبير ٣٥٦/٩ وابن أبي شيبة في المصنف ٥١٢/٧ والطبري في التفسير ٨٧/١٦ وانظر تفسير ابن كثير ١٢٣/٣ والبغوي ١٩٦/٣ وزاد المسير ٢٣٣/٥ -

قال البرسوي : (أي الثابت المتحقق لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وذلك لأنه متحقق علما فلا بد أن يكون متحققا وقوعا كالصباح بعد مضي الليل .

وفيه إشارة إلى أنه واقع ثابت في جميع الأوقات والأحيان ولكن لا يبصرون به لاشتغالهم بالنفس الملهية وهواها الشاغل) (١) .

وقال ابن عاشور : (ومفاد اسم الإشارة في مثل هذا المقام التنبيه على أن المشار إليه حقيق بما سيوصف به بسبب ما سبق من حكاية شؤونه فلاجل جميع ما وصف به كان حقيقاً بأن يوصف بأنه اليوم الحق .

وتعريف اليوم بالألف واللام للدلالة على معنى الكمال ، أي هو الأعظم من بين ما يعده الناس من أيام النصر للمنتصرين لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم ويعطى كل واحد منهم ما هو أهله من خير أو شر فكان ما عداه من الأيام المشهورة في تاريخ البشر غير ثابت الوقوع) (٢) .

الاسم العاشر : يَوْمُ التَّغَابُنِ

وجاء مضافا إلى التغابن ليعرف به في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ

لِيَوْمٍ أَجْمَعٍ ۚ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن ٩) .

والتغابن مأخوذ من الغبن وهو النقص عامة وفي السلعة من ثمنها خاصة يقال : غبن فلان في سلعته إذا باعها بأبخس من حقها ، وغبن فلان فلانا إذا اشترى منه السلعة بأقل مما تستحق .

ولما كان رأس مال الإنسان في الحياة عمره حيث أوجده الله في الحياة لأجل مسمى وطلب منه أن ينجي نفسه من النار بما يعمل في هذا

(١) - روح البيان ٤٤٠/١٦ .

(٢) - التحرير والتتوير ٥٩/١٦ .

العمر وحيث أن العمر يمضي بالناس ولا يتوقف واليوم الذي يمضي لا يعود ولن يجد له الإنسان عوضا فإن اللحظة التي تمضي يبيعها الإنسان رغما عنه والناس فيها إما رابح من وراء لحظته وساعته ويومه وإما خاسر ، ولا وسط بين الأمرين ، لأنه لا بقاء لرأس المال ، ومن ثم قال النبي ﷺ :

" الطَّهْوَرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا " (١) .

نعم فمعتقها بما ربح من عمل أو موبقها بما خسر من رأس ماله الذي ضيعه سدى ، وبالتالي فإن الإنسان يأتي يوم القيامة بواحد من أمرين : فإما أنه قد أحسن البيع وأحسن مع الله التجارة فباع نفسه بما يضمن له الجنة ، وإما أنه ضيع وفرط ولم ينتهز فرصة الحياة وباع سلعته بما لا تستحق فصار مغبونا ، وقد نبه النبي ﷺ إلى ذلك حين قال :

" نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ " (٢) .

قال ابن حجر : (والغبن بالسكون وهو في البيع وبالتحريك وهو في الرأي ، وعلى هذا فيصح كل منهما في هذا الخبر فإن من لا يستعملهما فيما ينبغي فقد غبن لكونه باعهما ببخس ولم يُحمد رأيه في ذلك

قال ابن بطلال : معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغا حتى يكون مكفيا صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن

(١) - الحديث رواه مسلم في كتاب الطهارة : باب فضل الوضوء ٢٠٣/١ .

(٢) - الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق : باب ما جاء في الصحة والفراغ ولنا عيش إلا عيش الآخرة ٢٣٥٧/٥ .

يتترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه فمن فرط في ذلك فهو المغبون .

وأشار بقوله : " كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ " إلى أن الذي يوفق لذلك قليل

وقال ابن الجوزي : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعاً فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون فالفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل :

يَسْرُ الْفَتَى طَوْلُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ تَرَى طَوْلَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ

يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصْحَةِ يَنْوُءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيَحْمَلُ

وقال الطيبي : ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال فهو يبتغي الربح ، وطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ويلزم الصدق والحدق لئلا يغبن ، فالصحة والفراغ رأس المال ، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ومجاهدة النفس وعدو الدين ليربح خيري الدنيا والآخرة . وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان لئلا يضيع رأس ماله مع الربح (١) .

وسمي يوم القيامة بيوم التغابن لأن الإنسان المفرط يدرك فيه أنه ضيع سلعته وخسر رأس ماله وخسر نفسه ، والغبن على أنواع (٢) :

أولاً : غَبْنُ النَّفْسِ

وذلك أن الإنسان الكافر لما أخذ الله عليه العهد والميثاق نكث في

(١) - فتح الباري ١١/٢٣٠ .

(٢) - انظر تفسير الطبري ٢٨/١٢١-١٢٢ وتفسير القرطبي ١٨/١٣٦-١٣٨ والدر المنثور

١٨٣/٨ وفتح الباري ٨/٦٥٣ .

عهده مع ربه فباع آخرته واشترى دنياه فخسر دنياه وآخرته وخسر نفسه ، وكانت صفقته خاسرة حيث باع الغالي بالرخيص وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ١٢) وقال تعالى : ﴿ وَتَرْتُلَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخُسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ (الشورى ٤٥) ووصفهم الله بالخسران في آيات كثيرة .

ثانيا : غِبْنُ الْأَعْمَالِ

وذلك في الإنسان يعمل من الصالحات ما يشاء الله له أن يعمل ، ويتزود من الخير الشيء الكثير فيصلي ويصوم ويتصدق ويفعل الخير ، ويأتي بصحائفه وفيها الأعمال ، ولكنه لقلة عقله يحمل ذلك لغيره ويضيع عمله بما ارتكب في حق الناس من المظالم ، وهنا يكون العدل ، ولا بد من رد الحقوق واستيفاء المظالم ، ولعل هذا المعنى هو المناسب للتعبير بالفاعل من الغبن ، فإن التغابن مصدر للفعل تغابن ، وهو مفاعلة بين طرفين ، ولما كانت المظالم بين العباد متشابهة وقع التغابن بكثرة في يوم القيامة ، فكل من ظلم أخاه بأي لون من ألوان المظلمة يغبنه المظلوم بما يأخذه من حسنات أو بما يطرح عليه من سيئات ، وقد حذر النبي ﷺ من المظالم لأنها تأكل الحسنات فقال ﷺ :

" مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ دِيْنَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ

فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ^(١) .

والغبن أن تؤخذ الحسنة في مقابل المظلمة والإساءة ، لأنه لا تكافؤ بينهما فالمظلمة مضت وانتهت بانتهاؤها وقتها أو بانتهاؤها الدنيا أما الحسنة فتبقى للنعيم أبدا ، ولرب حسنة ترفع صاحبها في الدرجات العلا يوم القيامة ، والحسنة يوم القيامة في نظر العبد أغلى من الدنيا وما فيها ، ولكن الإنسان يبيعها بثمن بخس حين يضرب أخاه أو يشتمه ويسبه أو يعتدي على ماله أو غير ذلك من المظالم ، ولهذا وصف رسول الله ﷺ الذي يفعل ذلك بالمفلس فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

" أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ "

قالوا : " الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا بَرَّ لَهُ وَلَا مَتَاعَ لَهُ " .

فقال رسول الله ﷺ : " الْمُفْلِسُ مَنْ أُمِّيَ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ وَقَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا ، فَيَقْعُدُ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُعْطِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ " ^(٢) .

وأي غبن أعظم من أن يتعب الإنسان نفسه بالعمل في الدنيا فيجمع من الصلاة والصيام وفعل الخير ما شاء الله له ثم يضيعه في يوم القيامة في وقت هو في أشد الحاجة إليه ، فإذا به قد باعه رخيصا ، فقد باع ذلك الخير كله واشترى النار بما أسلف من مظالم ! .

وهناك غبن في الأعمال من لون آخر تحدث عنه القرطبي فقال :

(قال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف : رجل علم علما

(١) - الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق : باب الفصاص يوم القيامة ٢٣٤٩/٥ .

(٢) - الحديث رواه مسلم في كتاب البر والصلة : باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ ورواه أصحاب

فعمله وضيعه هو ولم يعمل به فشقى به ، وعمل به من تعلمه منه فنجأ به .
 ورجل اكتسب مالا من وجوه يسأل عنها وشح عليه وفرط في طاعة
 ربه بسببه ولم يعمل فيه خيرا وتركه لوarith لا نجاسة عليه فيه ، فعمل ذلك
 الوarith فيه بطاعة ربه ، ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد
 وعمل السيد بمغصية ربه فشقى (١) .

ثالثا : غِبْنُ الْمُؤْمِنِ لِلْكَافِرِ

حيث يحصل المؤمنون على الجنات بما قدموا من إيمان وخير ،
 ويحصل الكافرون على الخزي والنيران بما اشتروا من حياة رخيصة .
 دفعوا الآخرة الباقية ثمنها لها فاشتروا الضلالة بالهدى ، وبيان ذلك أن الله
 لما خلق الجنة جعل فيها متسعا لجميع الخلق لو آمنوا ، وكذلك لما خلق
 النار جعل فيها متسعا لجميع الخلق لو كفروا ، وبناء عليه فإن الله جعل لكل
 إنسان مقعدا من الجنة ومقعدا من النار ، وفي القبر بعد الموت يعرض على
 المؤمن مقعده من النار ليزداد فرحه بنعمة الله عليه أن أنقذه الله منه ،
 ويعرض على الكافر مقعده من الجنة لتزداد حسرته ويزداد غمه بما ضيعه
 من الخير في دنياه ، قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى
 وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ : " مَا
 كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟ " فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ،
 فَيَقَالُ : أَنْظِرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْذَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ "
 قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا " الحديث (٢) .

(١) - تفسير القرطبي ١٨/١٣٧ .

(٢) - الحديث رواه البخاري في الجنائز : بَابُ الْمَيِّتِ يَسْمَعُ خَقِّ النَّعَالِ ١/٤٨ و ٤٦٢ ومسلم
 في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه
 ٤/٢٢٠ .

ولما كان لكل إنسان مقعدان أحدهما في الجنة والآخر في النار ولما اقتضت مشيئة الله أن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير فإن مقاعد أهل الجنة في النار تبقى ومقاعد أهل النار في الجنة تبقى ، وهنا يكرم الله المؤمنين فيمنحهم الجنات ، ويزيد الله من غضبه على الكافرين فيهديهم النيران ، فكانه حدثت صفقة تبادل بين أهل الجنة وأهل النار وقد فاز المؤمنون وربحوا وخسر الكافرون والمنافقون وعذبوا .

خاصة إذا علمنا أن أهل النار أكثر عددا هنا يكون الغبن أعظم فقد جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال : " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا آدَمُ

فَيَقُولُ : " لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ "

فَيَقُولُ : " أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ " قَالَ : " وَمَا بَعَثَ النَّارَ ؟ "

قَالَ : " مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ " فَعِنْدَهُ يَتِيمٌ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ

كُلُّ ذَاتٍ حَمْلَ حَمْلِهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ "

قَالُوا : " يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ ؟ ! "

قَالَ " أَبَشِّرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا " قَالَ :

" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ "

فَكَبَّرْنَا فَقَالَ : " أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ "

فَكَبَّرْنَا فَقَالَ : " أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ "

فَكَبَّرْنَا فَقَالَ : " مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السُّودَاءِ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَبْيَضَ

أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءَ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَسْوَدَ " (١) .

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج

ومواضع أخرى . انظر : ١٢٢١/٣ و ١٧٦١/٤ و ٢٣٩٢/٥ ومسلم في كتاب الإيمان

باب قوله : يقول الله لأدم : أخرج بعث النار ٢٠١/١ .

فإذا كان أهل النار بهذا الحجم الهائل والأعداد الضخمة فإن ما أخذه المؤمنون من الجنان لشيء يفوق الوصف والحصص ، ولهذا نجد التعبير القرآني في الغالب حينما يبشر المؤمنين لا يبشرهم بالجنة مفردة وإنما يبشرهم بالجنات متعددة لأن لكل واحد ميراثا من الجنان لا يعلمه إلا الله ورثوها عن الكافرين الذين لم يدخلوها وهم يطمعون .

رابعاً : غِبْنُ التَّقْصِيرِ

وذلك حينما يرى المؤمن عظيم فضل الله وواسع كرمه وجزيل عطائه على القليل من العمل حينها يدرك أنه قد غبن نفسه بالتقصير في الإحسان والزيادة ، وفيما ضيعه من الأيام وكان يمكنه أن يتزود منها بالشيء الكثير وبالجملة فيوم القيامة هو يوم القطاف يجني فيه كل إنسان ما قدم ، ولما لم يكن هنالك فرصة للعودة إلى الحياة من جديد يكون الغبن أعظم لأنه لا فرصة لإدراك ما فات ولا للحقوق بركب أهل المقامات ، فاستحق أن يعرف التغابن بالألف واللام للدلالة على كمال الغبن وأن هذا وحده هو الحقيق بأن يطلق عليه يوم التغابن ، لأن ما دونه من غبن في الدنيا في أي أمر من أمور الحياة يمكن للمغبين أن يتدارك أمره وأن يصحح وضعه ويعمل ليربح في الآخرة في يوم يكون فيه العدل ويرفع عنه فيه الغبن .

الاسم الحادي عشر : يَوْمُ الْفَتْحِ

وقد جاء يوم الفتح في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (السجدة ٢٩) .

والمراد بالفتح الفصل في الخصومة بين المؤمنين والكافرين وأصله إزالة الشبهة وإزالة الإغلاق والإشكال كما جاء في آيات متعددة من القرآن الكريم ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بيوم الفتح يوم ينصر الله المؤمنين في الدنيا حتى ذهب بعضهم إلى أن المراد به يوم بدر وذهب

آخرون إلى أن المراد به فتح مكة ، لكن الراجح لدى جمهور المفسرين أن المراد به يوم القيامة لأنه اليوم الذي تزول فيه الشبهة ويحول فيه الإغلاق بوضوح كل شيء بحيث يراه الكفار عيانا فلا يستطيعون أن ينكروه لأنهم يقاسون فيه من الأهوال والعذاب ما كانوا منه في غفلة ما يجعلهم يعلنون أنهم كانوا في ضلال وينادون على الله أن يرجعهم إلى الحياة ليؤمنوا ويعملوا صالحا ، فهو اليوم الذي لا ينفع فيه الكفار بإيمانهم ، أما يوم فتح مكة فقد قبل الرسول ﷺ من الكفار وعفا عنهم وأمن أكثرهم وحسنت توبتهم وحسن إسلامهم (١) .

* وقد جاء يوم الفتح في الأمم السابقة يراد به عذاب الاستئصال الذي حلَّ بهم في نهاية المطاف لما كذبوا وعاندوا وسخروا من رسلهم ومن المؤمنين ولم يقبل منهم إيمان كما حدث مع فرعون ، أما في أمة محمد ﷺ فإن الله رفع عنهم عذاب الاستئصال وأمهلهم إلى يوم القيامة .

ويؤيد هذا ما رواه الطبري عن قتادة في سبب نزول الآية قال : قال الصحابة : " إِنْ لَنَا يَوْمًا يُوشِكُ أَنْ نُسْتَرْجِحَ فِيهِ وَنَتَنَعَّمَ فِيهِ "

فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : " مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " فَتَزَلَّتْ (٢) .

* ويشهد لذلك أيضا ما سبق هذه الآية من الدليل على البعث بعد الموت من إحياء الأرض بعد موتها بالمطر النازل من السماء وهو دليل مشاهد ذكره الله كثيرا في القرآن الكريم للرد على من ينكرون البعث والقيامة ، حيث جاء ضرب هذا المثل في سياق الحديث عن الفصل بين المؤمنين والكافرين في يوم القيامة وكأنه بمثابة الدليل على وقوعه قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

(١)- انظر : تفسير ابن كثير ٤٦٥/٣ والقرطبي ١١١/١٤-١١٢ وروح البيان ٤٨٣/١٠ .

(٢)- انظر : تفسير الطبري ١١٦/٢١ .

تَخْتَلِفُونَ ﴿ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ
الْجُرْزِ فَنَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿
(السجدة ٢٥-٢٧) .

الاسم الثاني عشر : يَوْمُ التَّلَاقِ

وقد جاء ذكر يوم التلاق ويراد به يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿
رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿ (غافر ١٥-١٦) .

والآية توضح أن من أعظم غايات بعثة الرسل أن ينذروا الناس يوم
التلاق كما جاء في تقرير يوم الجمع من قبل حيث جعل الله الغاية من
الوحي إلى رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم أن ينذر أم القرى ومن حولها ،
ومع أن لبعثة الرسل غايات أخرى غير ذلك لكن الله قصر المهمة في مثل
هذه الآية والآية التي بين أيدينا مبالغة في التأكيد على الإيمان بيوم القيامة
لأن الإيمان به سيفتح قلوب الناس للحق إما رغبة فيما عند الله من النعيم أو
رهبة وخوفا مما أعد في هذا اليوم من صنوف العذاب وأحوال الموقف .

وقد قلت من قبل : إن الإنذار تعدى إلى اليوم وليس إلى ما فيه من
مخاوف مبالغة في استطالة الشر واستطارته في ذلك اليوم حتى إنه يعم
اليوم كله على الكافرين بحيث لا يجدون لحظة واحدة يمكن أن يستريحوا
فيها مما هم فيه من كرب وعذاب ، فلما كان الخوف والشر مستغرقا اليوم
كله وكان اليوم لا ينقطع منه العذاب صح أن يسند الإنذار إليه .

والتلاق مصدر للفعل تلاقى الذي هو مأخوذ من اللقاء ، وسمي يوم

القيامة بيوم اللقاء لأن الناس يلقون فيه ربهم للحساب والجزاء أو لأن الله يلاقي بين المؤمنين والكافرين فيفتح بينهم ويفصل بينهم فيعرف كل فريق أين هو من الفريق الآخر ، أو لأن الله يلاقي فيه بين الأرواح والأجساد فيهب الناس من قبورهم للنعيم والعذاب ، أو لأن كل إنسان يلاقي عمله فيجمعه الله بعمله فيراه حاضرا بشخصه وهياته لا يغيب منه متقال ذرة أو لأن المظلوم يلاقي الظالم ، أو لأن المعبود من الأصنام والأوثان يلاقي العابد من البشر فيتبرأ بعضهم من بعض ، أو لأن الله يلاقي بين الخلائق كلها فيجمعها في صعيد واحد ليكون الهول الأكبر على الكافرين ، أو أنه اليوم الذي يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض لا يفصل بينهم فاصل ولا يسترهم عن بعضهم سائر ، أو أنه اليوم الذي يتلاقى فيه آدم بآخر فرد من ذريته ، وكلها أقوال صحيحة يشملها الاسم ^(١) .

وقد شرح الله المراد من ذلك التلاقي وهو أن يبرز كل إنسان بعمله مهما كان به مستخفيا في الدنيا ، حيث لا يخفى على الله شيء ولا يستطيع إنسان أن يستر من قبائحه شيئا ، وهذا يظهر للخلق كلهم عظمة قدرة الله وشدة قهره للناس أجمعين .

يقول سيد قطب : (وفي هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً ، ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا ، ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التي تشهد ذلك اليوم المشهود وتلتقي الخلائق كلها بربها في ساعة الحساب فهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي) أ.هـ .

الاسم الثالث عشر : يَوْمُ الْأَرْفَةِ

وقد جاء ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ

(١)- انظر : تفسير القرطبي ٣٠٠/١٥ وتفسير الطبري ٥٠/٢٤ وابن كثير ٧٥/٤ وفتح

الباري ٤٣٠/١٣ وزاد المعاد ٤١٥/١ وتفسير ابن عجيبة ٣٥٧/٥ وغيرها .

الْحَنَاجِرِ كَظَمِينَ^٤ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿ (غافر ١٨) .

وقد جاء ذكر اليوم على نفس السياق وبنفس أسلوب التعبير الذي جاء به ذكر يوم التلاق من تعدي الإنذار إليه مباشرة ، وكان الله ﷻ يكثر من ذكر الأوصاف التي يأتي بها الإنذار وكلها تجتمع على وصف ذلك اليوم من باب التهويل فما يكاد الإنسان يفكر في معنى يوم الجمع حتى يأتيه وصف آخر بأنه يوم التلاق ثم يأتيه وصف ثالث بأنه يوم الآزفة ، وهكذا تتوالى أسماء هذا اليوم في القرآن الكريم وكل اسم يأتي بوصف جديد وهول شديد ينضم إلى ما جاء في الأوصاف من قبله ، فلا يكاد العقل يستقر عند وصف حتى يصدمه الله بوصف آخر ليبقى عقل الإنسان في يقظة ويبقى فكره في عمل وبصيرته في تدبر واعتبار حتى ينجو من كل هذه المشاهد وتلك الأهوال .

والآزفة اسم من أسماء القيامة وهي من أَرْفَ بمعنى دنا واقترب ، والآزفة أبلغ من القرية لأن فيها فوق معنى القرب الدلالة على ضيق الوقت المتبقي فهي تعبر عن شدة الاقتراب حتى كأنها على وشك الوقوع ^(١) .

* وقد زاد الله من بيانها توضيحا حيث قال تعالى : ﴿ أَرْفَتِ الْآزِفَةُ

﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ (النجم ٥٧-٥٨) وما يزال الله في

القرآن الكريم يذكر الناس باقتراب الساعة ودنو العذاب حتى كأنه أمام العيون أو على مرمى البصر ليلفت أنظارهم ويوقظهم من غفلتهم حتى ينتبهوا إلى ما هم مقبلون عليه وما ينتظرهم في ذلك اليوم .

* ويصور الله ﷻ بعضا من حال المكذبين في ذلك اليوم حيث إن

(١)- انظر : تفسير أبي السعود ٢٧٢/٧ واللباب ٥٧٤/١٣ والكشاف ١٦٢/٤ والمفردات

للاغب ص ١٧ وغيرها .

القلوب من شدة الخوف لترتفع حتى تصل إلى الحناجر فيضيق بهم الحال ويصعب عليهم التنفس فلا الروح تخرج فيستريحون بالموت ولا هي ترجع إلى مكانها من الصدور مرة أخرى فيسهل عليهم التنفس ، وهو تعبير يوحي بشدة الضيق وتوالي الأهوال في ذلك اليوم حتى إنهم لا يلتقطون أنفاسهم لأنهم يتنقلون من هول إلى هول ومن فزع إلى فزع ، فإذا صور الله لهم أنهم ليس بينهم وبين الحال الموصوفة إلا وقت في غاية الضيق فكأنما يقول لهم : أدركوا أنفسكم فلم يعد لديكم المتسع فقد أزفت الساعة وأزف دخولكم النار .

الاسم الرابع عشر : يَوْمُ التَّنَادِ

وجاء ذكر هذا الاسم في خطاب مؤمن آل فرعون لقومه يحذرهم من غضب الله ونقمته إن هم أصروا على تكذيب نبي الله موسى عليه السلام في جملة من المواعظ الرقيقة التي تمس شغاف القلوب وكان من بينها قوله تعالى : ﴿ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (٣٣-٣٢) (غافر ٣٣-٣٢) .

والتناد اسم مقصور حذفت منه الياء ، وهو تفاعل من النداء فهو يوم يكثر فيه النداء من المؤمنين على الكافرين والمنافقين ومن نداء الصبيحة بالبعث والخروج ومن نداء الكافرين والمنافقين على المؤمنين تارة وعلى الملائكة تارة وعلى ربهم ﷻ تارة ثالثة ، ولهذا حملها كثير من المفسرين على ما جاء في القرآن من ذكر النداء بالبعث ، قال تعالى : ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (٤٢-٤١) (ق ٤٢-٤١) .

وهو يوم ينادى فيه على المشركين نداء خزي وصغار وذلة
 لأسباب مختلفة وقعت منهم ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ
 الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (الكهف
 ٥٢) وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
 تَزْعُمُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا
 أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص ٦٢-
 ٦٣) وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٤﴾
 فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (القصص ٦٥-٦٦)
 وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ
 أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا
 اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَرْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (غافر
 ١٠-١١) وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا
 مِنَّا مِنْ شَيْءٍ ﴾ (فصلت ٤٧) .

ومن نداء أهل الجنة على أهل النار أنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا
 فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ وذلك من باب السماتة وتأكيد صدقهم فيما
 كانوا يخبرونهم به في الدنيا من وقوع النعيم والعذاب حتى يقر الكفار
 ويشهدوا ، قال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا

مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۖ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿ (الأعراف ٤٤) .

ثم نداء أصحاب الأعراف حين يوبخون المستكبرين المتحزبين على الحق ويعيرونهم بسوء فعلهم وأنه ما أغنى عنهم جمعهم ولا استكبارهم على الحق في هذا اليوم شيئا ، قال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُوهُمْ بِسِمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿ ٤٨ ﴾ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿ (الأعراف ٤٨-٤٩)

ثم من نداء أهل النار على أهل الجنة يستغيثونهم ويطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله فيردون عليهم بما يزيدهم عذابا قائلين : إن الله حرهما على الكافرين ليزداد غمهم وتعضم حسرتهم قال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۖ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ (الأعراف ٥٠) .

وهذا نداء من المنافقين حينما ينقطع نورهم بسبب نفاقهم يصرخون على المؤمنين أن ينظروهم ليقبضوا من نورهم ويسيروا معهم فيه ، ثم يسألونهم عن سبب انقطاع ذلك النور عنهم ، فيجيبهم المؤمنون بالتوبيخ والشماتة وما فيه تأنيب وتبكيث ، قال تعالى : ﴿ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ

وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٥﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ (الحديد ١٤-١٥)

ثم من نداء أهل النار بعضهم لبعض يريد الضعفاء من الذين استكبروا أن يتحملوا عنهم شيئاً من العذاب ، ثم من نداء أهل النار لخزنة جهنم يسألونهم الدعاء ليخفف الله عنهم يوماً من العذاب ، ثم من نداء أهل النار على مالك خازن النار يسألونه أن يدعو ربه ليقضي عليهم فيرد عليهم بأنهم ما كانوا فيها لن يخرجوا منها أبداً ولن يموتوا ولن يخفف عنهم قال تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴾ (الزخرف ٧٧-٧٨) .

ثم من ندائهم على رب العزة ﷻ يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ، ويقولون ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ويقولون : ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، فكل هذه صور من صور النداء ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فلما كان النداء كثيراً غير منقطع في ذلك اليوم صح أن يوصف اليوم بأنه يوم التناد مبالغة في كثرة ما يقع من تناد القوم فيما بينهم .

* وقد جاء عقب الآية تصوير لحالة من صور التنادي يوم القيامة حيث بين لهم أنهم يولون مدبرين هاربين ولا عاصم لهم من الله فأين يذهبون ولا ملجأ من الله إلا إليه ! وقد روى فيها الطبري حديثاً يدل على أن المقصود بيوم التناد يوم النفخ في الصور ، حيث ينادي الناس بعضهم على بعض من نفخة الفزع فقد روى عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : " لَمَّا فَرَعَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيهِ شَاخِصٌ بَبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ " .

قال أبو هريرة : " يا رسول الله ، وما الصور؟ "

قال : " قَرْنٌ " قال : " وكيف هو؟ " قال : " قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ : الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَزَعِ وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعَقِ وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، يَا مُرُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، فَيَفْزَعُ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ فَيَدِيمُهَا وَيُطَوِّلُهَا فَلَا يَفْتَرُ وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَتُّوْلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ (ص ١٥) فَيَسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ فَتَكُونُ سَرَابًا ، وَتَرْجُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ (النازعات ٦-٨)

فَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ الْمَوْبِقَةِ فِي الْبَحْرِ تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ تُكْفَأُ بِأَهْلِهَا أَوْ كَالْقَنْدِيلِ الْمُعَلَّقِ بِالْعَرْشِ تَرْجُحُهُ الْأَرْوَاحُ فَتَمِيدُ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا فَتَذْهَلُ الْمَرَاضِعُ ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ ، وَتَشِيبُ الْوِلْدَانُ ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حَتَّى تَأْتِيَ الْأَقْطَارُ فَتَلْقَاهَا الْمَلَائِكَةُ فَتَضْرِبُ وُجُوهَهَا فَتَرْجِعُ وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ يَوْمَ النَّادِ ۖ ۝ يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مِمَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ ﴾ الحديث " (١) . والله أعلم .

(١)- انظر : تفسير الطبري ١٩/٢٠ و ٦١١/٢٤ والقرطبي ٣١٢/١٥ وابن كثير ٢٠٤/٣ و ٨٠/٤ والدر المنثور ٢٥٦/٧ وتفسير ابن أبي حاتم ٣٢٥٦/١٠.

الاسم الخامس عشر : يَوْمُ الْوَعْدِ

وقد جاء ذكر هذا الاسم في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴾ (ق ٢٠) .

يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ (ق ٢٠) .

والوعد فعل من وعد ، والوعد هو شيء يفرضه الإنسان في قابل الزمان لغيره خيراً كان أو شراً فيترجاه وينتظره ، والوعد كلمة تقال في الخير والشر ، ويغلب الوعد على الخير والوعد على الشر ، يقال : وعدّه خيراً وشراً ، وعداً وموعداً وموعدة وعدة ، وتواعدوا في الخير ، واتعدوا في الشر ، ويقال : اتعد أي وثق بعدتك ، ويقال : أرض وعدة وشجر وعد أي برجي خيرهما .

والميعاد : لا يكون إلا وقتاً أو موضعاً وهو وقت الوعد أو مكانه ، فإذا تعدى الفعل بالهمزة وقيل : أوعدته فهو بمعنى تهدّته .
والوعد : التهديد ، والتوعد : التهديد كالإبعاد ^(١) .

* ويوم الوعد أي اليوم الذي يتحقق فيه تهديد الله للكافرين ويقع فيه ما توعدهم الله به من العذاب والخزي والمذلة والهوان ، وإذا كان اليوم يوم تحقيق الوعد للمؤمنين والوعد للكافرين إلا أن الله اقتصر فيه على ذكر الوعد دون الوعد من باب التهويل والتخويف ، ولأن الخطاب متوجه في عمومته للكفار ولا يناسبهم إلا ذكر الوعد .

وأشير إليه بعد ذكر النفخ في الصور الذي يدل على يوم القيامة للدلالة على كمال الاعتناء به ، كأنه يقول : لما نفخ في الصور كان هذا وقت تحقق الوعد ، وكأنه لا شيء في ذلك اليوم غير هذا التحقيق لما

(١)- انظر : لسان العرب ٤/٤٦٢-٤٦٣ والمحيط في اللغة ١/١١٥ والمحكم لابن سيده

١/٣٢٠ والعين ١/١٣٢ ومختار الصحاح ٣/٣٠٣ والقاموس المحيط ١/٣٣٠ .

تهدهم الله به في الدنيا ، مع أنه يشتمل على أهوال وأشياء كثيرة لكنها لما كانت كلها بالنسبة للكافرين مما توعدهم الله بها في الدنيا صح أن يوصف اليوم بأنه يوم الوعيد ، إذ كل ما فيه للكفار شديد .

الاسم السادس عشر : يَوْمُ الْخُلُودِ

وقد جاء ذكر هذا الاسم في قوله تعالى : ﴿ آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ

يَوْمُ الْخُلُودِ ۖ ﴾ (ق ٣٤) .

والخلود هو البقاء والدوام وطول الإقامة ، يقال : خَلَدَ يَخْلُدُ خُلْدًا وَخُلُودًا : بَقِيَ وَأَقَامَ فِي الدَّارِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، ويقال : أَخْلَدَ إِلَى الشَّيْءِ أَيَّ رَكْنٍ إِلَيْهِ وَلَا زَمَهُ بِغَيْرِ مَفَارِقَةٍ ، ويوم الخلود هو يوم القيامة وسمي كذلك لخلود المؤمنين في الجنة وخلود الكافرين في النار (١) .

* والخطاب في الآية للمؤمنين من باب التكريم وإزالة كل ما ينغص عليهم النعيم ويكدر عليهم المتاع ، فإن الإنسان إذا كان في نعمة فإنه بين أغيار وأكدار ثلاثة : فهو يخاف أن يموت ويترك النعيم ، أو يخاف أن يبقى ويزول عنه النعيم ، أو يخاف أن يبقى ويبقى النعيم ولكنه يحال بينه وبين التمتع بحبس أو مرض أو أي عارض ، فجاء ذكر اليوم الذي أعد الله فيه الجنة بنعيمها للمؤمنين ونودي عليهم أن ادخلوها بسلام ولا تخافوا من أي منغص أو عارض يكدر عليكم النعيم لأن هذا اليوم هو يوم الخلود العام ، فهو خلود لكم فلا تموتون ، وخلود للنعيم فلا ينقطع وخلود في النعيم فلا يحال بينكم وبينه أبداً ، وهذا من أعظم التعبير لأنه يسر خاطر ويريح القلب ويطمئن النفس ، لأنه لما ذكر السلام أشار إلى ذلك بالخلود كأنه يقول

(١) - انظر : لسان العرب ١٦٤/٣ والمحكم لابن سيدة ٣١٩/٢ ومختار الصحاح ٧٧

والقاموس المحيط ٢٧٥/١ وأساس البلاغة ١٢١/١ .

: الخلود في السلام من كل سوء في كل جوانب المتاع والنعيم ، وقد سبق ذكر الحديث الذي يخبرنا عن ذبح الموت على السور بين الجنة والنار وينادى على الجميع : خلود فلا موت .

الاسم السابع عشر : يَوْمُ الْخُرُوجِ

وقد جاء ذكر هذا الاسم في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ

بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ (ق ٤٢) .

والمقصود أنه يوم يخرج الناس من قبورهم حيث يبعثهم الله ويحييهم وينشرهم من الموت وينادى عليهم بالخروج وذلك بعد الصيحة والنفخة الثانية التي يكون بها الإحياء وذلك تكملة للنداء السابق ذكره .

وقد أشار الله إليه بـ " ذلك " دلالة على كمال الاعتناء به وذكر الخروج خاصة دون البعث لأنهم لما احتوتهم الأرض وصاروا ترابا مختلطا بتراب الأرض جاء ذكر الخروج ليناسب إخراجهم منها بالبعث والنشور

المطلب الثاني

أوصاف وأحوال وأحوال يوم القيامة

جاء لفظ اليوم نكرة منونة موصوفا بصفات يعرف بها يوم القيامة ويفصل ما فيها من أحوال ، وجاء كذلك نكرة منونة بلفظ " يَوْمًا " في ستة عشر موطنا وكلها تشير إلى يوم القيامة وتحذر وتخوف الناس منه ، وجاء أيضا بمعنى الوقت وزمان يوم القيامة داخلا على الفعل المضارع ليكون ظرفا يصور بعض أحواله وأحواله في أكثر من خمس وستين آية من القرآن الكريم ، وجاء اليوم مشارا إليه بلفظ يومئذ ويراد به يوم القيامة في أكثر من ستين موطنا ، و " يومئذ " كلمة تشير إلى يوم معين سبق ذكره في الآيات القرآنية ، وتأتي لربط الحدث المصاحب لها باليوم المشار إليه ، ويمكن تصنيف هذه الآيات جميعها كما يلي :

أولا : الإشارة إلى بعض ما يحدث للكون بين يدي الساعة

جاء الحديث عن يوم القيامة ووقتها وما يكون فيها باشتقاقات مختلفة من لفظ اليوم ، وتشير في مواطن كثيرة إلى بعض ما يحدث من آيات قاهرة للخلق في مقدمات ذلك اليوم بحيث لا يستطيع أحد من الخلق ردها ، ومنها ما يكون في الأفراد حال الموت الذي هو أول أبواب الآخرة حيث يقول الله تعالى واصفا ضعف الإنسان وقلة حيلته وعدم قدرته على رد ما يراد به : ﴿

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٦٠﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٦١﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٦٢﴾ وَالْتَفَتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٦٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٦٤﴾ (القيامة ٢٦-٤٠) .

* ومنها ما يشير إلى الآيات العامة التي تكون بين يدي الساعة وهي العلامات الكبرى حيث لا يقبل إيمان من إنسان لم يكن قد آمن من قبل فقد انتهى زمن التكليف وبدأت مرحلة الحساب قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ

ءَايَتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ اانتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿ (الأنعام ١٥٨) .

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ
الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَٰكَ حِينَ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا
إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ " .

وفي رواية أخرى قَالَ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ
يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعَوْتُهُمَا وَاحِدَةٌ ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ
قَرِيبُ مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ
وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتَظْهَرَ الْفِتْنُ وَيَكْثُرَ الْهَرَجُ وَهُوَ الْقَتْلُ ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ
فَيَفِيضَ حَتَّى يُوْهَمَ رَبُّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ وَحَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ الَّذِي
يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ : لَا أَرَبَ لِي بِهِ وَحَتَّى يَنْطَاوِلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ ، وَحَتَّى يَمُرَّ
الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي مَكَائِهِ ، وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا
طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ يَعْنِي آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَٰكَ حِينَ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ

تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَّبَاعَانِهِ وَلَا
يَطُوبَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَحْتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ
السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيْطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ
فَلَا يَطْعُمُهَا " (١) .

(١) - الحديث منقو علىه رواه البخاري في كتاب الفتن باب خروج النار ومواطن أخرى

* ومنها ما يشير إلى أحداث تقع في الكون خاصة في الأرض والسماء حيث تتبدل الأرض وتتبدل السماء بصفة عامة قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ ﴾ (إبراهيم ٤٨-٤٩) .

* وقد خص الله الأرض وما فيها من الجبال ببعض الأحوال المرتبطة باليوم فهي ترتجف وتهتز حتى تتحول الجبال إلى كتيب أهيل لا يماسك شيء منها ببعضه ، وتسير بقدرة الله فتزول من أماكنها بعد أن كانت راسية تثبت بها الأرض حتى تكون كالصوف المنفوش الذي لا يمسك بعضه ببعض ، وتتجلى عظمة الآية من ناحية خفتها بعد أن كانت ثقيلة راسية راسخة ضاربة بأوتادها في الأرض ثم من ناحية سيرها وسرعة حركتها بعد أن كانت جامدة في أماكنها ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ

الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝ ﴾ (المزمل ١٤) وقال تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ ﴾ (٥) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا

﴿ ١١ ﴾ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝ ﴾ (النبا ١٨-٢٠) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ

يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ

الْمَنْفُوشِ ۝ ﴾ (القارعة ٤-٥) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا

﴿ ١١ ﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ۝ ﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾ (الطور ٩-١١) وقال

تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ وَجِئَئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۚ ﴾ (الفجر ٢١-٢٣)

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴾ (النازعات ٦-٩)

* أما السماء فهي تمور وتضطرب ، وتكون كالمهل وهو النحاس المذاب أو دردي الزيت العكر الذي يكون بعد الاستعمال الكثير أو القحيح والصدید ، دلالة على أنها تلاشت وذابت ولم يعد لها أدنى تماسك بعد أن كانت مشدودة إلى بعضها بقوة الله تعالى ، ثم هي بعد ذلك تطوى كما يطوى الكتاب ، وقد خص الله أفلاكها ببعض الآيات المرتبطة بذكر اليوم فقال تعالى : قال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْفُرُ ۖ كَلَّا لَا وَزَرَ ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۖ يُنْبِئُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ ﴾ (القيامة ٧-١٣) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعَدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۖ ﴾ (الأنبياء ١٠٤)

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۖ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۖ ﴾ (المعارج ٨-١٠) .

ويصعب تناول هذه الآيات بالشرح والتفصيل لأن ذلك سيخرج بنا عن موضوع الكتاب ، ولكن الذي أؤكد هنا هو ربط تلك الأحداث باليوم للدلالة على شدة هذا اليوم وأنه ينبغي على العاقل أن يستعد له بما يخفف عنه شيئا من تلك الأحداث والصور ، وإنما أشار الله باليوم والمراد الوقت للدلالة على الشدة ، ولأنها قد تقع في أي لحظة من ليل أو نهار ، وعلى المرء أن يستعد لها في كل لحظة . والله أعلم .

ثانيا : ذكر بعض المراحل التي يمرُّ بها الخلاق في هذا اليوم

حيث جاء ذكر اليوم باشتقاقاته المختلفة مرتبطا بأحداث مختلفة تعبر عن مراحل ذلك اليوم حيث لا يكون الناس مرحلة واحدة وإنما يمرون بمراحل متعددة تبدأ من النفخ في الصور ثم البعث ثم الحشر ثم العرض ثم الحساب والميزان ثم الجزاء وغير ذلك مما يكون في اليوم .

وقد أشير إلى اليوم زمنا للنفخ في آيات متعددة : فمنها ما يشير إلى تفرد الله بالملك مرتبطا بذلك الحدث قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي

الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام ٧٣) .

ومنها ما يشير إلى كمال القدرة وبيان أن النفخة واحدة لا تتكرر مع

ما يصاحبها من بعض الأحداث التي تقع يومها كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا

نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً

﴿ ١ ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ ۝ ٢ ۝ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۚ ۝ ٣ ۝

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ۚ وَنَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۚ ۝ ٤ ۝ يَوْمَئِذٍ

تُعْرَضُونَ لَا تَحْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۚ ۝ ٥ ۝ ﴾ (الحاقة ١٣-١٨) .

ومنها ما يشير إلى النفخ مرتبطا بجمع الخلائق وإبراز جهنم للناس

من باب التهويل والتفريع ، قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا

﴿ ١٠١ ﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿ ١٠٢ ﴾ ﴾ (الكهف ٩٩-١٠٠)

ومنها ما يربط بين النفخ والحشر وإبراز صورة الكافرين كما في

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا

﴿ (طه ١٠٢) ﴾

ومنها ما يربط بين النفخ وانتفاء القرابة وانقطاع النسب بحيث يكون

لكل إنسان شأنه كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ

بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون ١٠١) .

* ثم تشير الآيات القرآنية إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة النداء على

الخلائق ، قال تعالى : ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿ ١٠٣ ﴾ يَوْمَ

يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ (ق ٤١-٤٢) وقال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ ﴾ (القمر ٨) وقد جاء في التفسير أن

الله ﷻ يأمر إسرافيل فينادي في الخلائق من مكان قريب من صخرة بيت

المقدس فيقول : " يَا أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطَّعةُ وَاللُّحُومُ الْمُتَمَرِّقةُ

وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقةُ ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ " (١) .

* ثم تشير الآيات إلى أن الأرض تتشقق عن الخلائق فيبعثون من

(١) - هذا القول مروى عن قتادة ومقاتل وكعب الأحبار ، انظر : تفسير الطبري ١٨٣/٢٦

والقرطبي ٤٢/١٥ و ٢٧/١٧ وابن كثير ٢٣١/٤ والدر المنثور ٦١١/٧ والجلالين ٦٩٢

القبور ويخرجون إلى أرض المحشر فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ ﴾ (ق ٤٤) وقد جاء ذكر البعث مرتبطًا باليوم وما يصاحبه من خزي وكشف للأعمال السيئة ليفضح بها أصحابها بعد أن كانوا مستورين في الدنيا قال تعالى : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ (الأعراف ١٤) وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٦﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ (الحجر ٣٦-٣٨)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٧٩﴾ (ص ٧٩-٨١) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ (الشعراء ٨٧-٨٩)

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٣٦﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ (الضافات ١٤٣-١٤٤) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾ (المجادلة ٦)

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ (المجادلة ١٨)

وقال تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١٩﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠﴾

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (المطففين ٤-٦)

** وبعد البعث يكون الحشر الذي ربطه الله باليوم حيث يساق الناس بعد قيامهم من القبور إلى أرض الموقف وهي أرض المحشر ، وقد أشار الله إلى الحشر في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٢٢﴾

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (مريم ٨٥-٨٦) وهذا من تكريم الله

للمؤمنين وتنكيله ﷻ بالكافرين والمجرمين حيث يحشر المتقين وفدا والوفد كما قال المفسرون هم الوفد يأتون ركباناً ، حيث يحشرون إلى الله على ركائب لا يمشون وهذه الركائب اختلف فيها الناس فمنهم من يرى أن العمل الصالح يأتي للمؤمن في صورة مركب حسن طيب الرائحة فيركبه ، ومنهم من يرى أنهم يركبون الإبل ، ومنهم من يرى أنهم يركبون نوقاً رحالها الذهب وسرجها البواقيت وغيرها ، وكل ذلك من كلام كبار المفسرين من الصحابة والتابعين ، قال النعمان بن سعد رضي الله عنه :

" كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عَلِيٍّ رضي الله عنه فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ قَالَ : " لَا وَاللَّهِ مَا عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ يُحْشَرُونَ وَلَا يُحْشَرُ الْوَفْدُ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ وَلَكِنْ عَلَىٰ نَوْقٍ لَمْ تَرَ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا عَلَيْهَا رَحَائِلُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَرْكَبُونَ عَلَيْهَا حَتَّىٰ يَضْرِبُوا أَبْوَابَ الْجَنَّةِ " (١) .

(١) - الأثر رواه الحاكم في المستدرک ٤٠٩/٢ و ٦٠٩/٤ وقال : صحيح الإسناد ورواه أحمد في المسند ١٥٥/١ وفي فضائل الصحابة ٧١٦/٢ وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٧/٧

أما المجرمون فيحشرون ويردأ يعني عطاشا ظامئين قد جفت حلوقةم
من هول ما يرون .

* ثم تنتقل بنا الآيات في ذكر اليوم إلى موقف آخر بعد أن يحشر
الناس ويساقون حتى يجمعون في مكان واحد ومن هنا سمي اليوم بيوم
الجمع في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ (التغابن ٩) .

* وفي مرحلة تالية يذكر الله لنا قيام الحساب وهذا من باب المبالغة
في دقة الحساب وعدم تقويت أي عمل مهما قل أو دق ، وقد جاء ذلك في
قوله تعالى من دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم ٤١)

* ومن المراحل المهمة التي يقف لها الناس في ذلك اليوم مرحلة الميزان
حيث يقف كل إنسان للوزن حتى يتبين حاله ويعرف مصيره ، قال تعالى : ﴿
وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾
(الأعراف ٨-٩) وقد جاء ذكر الميزان في آيات متعددة من القرآن الكريم منها
قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ
مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء ٤٠) وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ

وهناد في الزهد ٨٤/١ وأبو نعيم في الحلية ٤١/١٠ والطبري في التفسير ١٢٦/٦-١٢٨
وانظر : تفسير ابن كثير ١٣٨/٣ والقرطبي ١٥٢/١١ والدر المنثور ٥٣٨/٥-٥٣٩
والجلالين ٤٠٥ .

لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ ﴿ (الأنبياء ٤٧) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿ ١١٠ ﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ ١١١ ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿ (المؤمنون ١٠١-١٠٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿ ١ ﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿ ٢ ﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿ ٣ ﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿ ٤ ﴾ (القارعة ٦-٩) .

وقد اختلف المفسرون في الموزون فمنهم من يرى أن الأعمال تشخص وتأتي بهياتها فتوزن ، ومنهم من يرى أن الصحائف والكتب هي التي توزن ، ومنهم من يذهب إلى أن الأشخاص هم الذين يوزنون ، ولكل منهم مستند من القرآن والسنة ، وليس هذا موضع التفصيل حتى لا يطول البحث ويخرج عن أصل مضمونه (١) .

* ثم تأتي مرحلة الفصل بين الناس ومعرفة مصير كل فريق حيث يفصل الله بين المؤمنين والكافرين وبين المتقين والفجار وبين الظالم والمظلوم وبين العبد والمعبود ، وبين السادة والأتباع ، وقد ربطها الله باليوم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ١ ﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿ (الدخان ٤٠-٤١) .

ثالثاً : بيان بعض أوصاف ذلك اليوم

حيث جاءت الآيات بذكر اليوم موصوفا ببعض الأوصاف أو مضافا إلى ما يوضحه ويزيده بيانا ، فهو يوم لا مرد له من الله ، ولا يستطيع أحد أن يحول دون وقوعه لأن الكل في قبضة الله وتحت ملكه وقهره وسلطانه قال تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ (الشورى ٤٧) وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾ (الروم ٤٣) وقال تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ (الشورى ٤٧) .

* وهو يوم مجموع له الناس في موقف العرض لن يفلت واحد منهم ولن يجد لنفسه مهربا ، وهو يوم مشهود لما فيه من الأهوال والأحداث ويقوم الأشهاد ويرى كل الناس عمل ومصير كل الناس فلا خفاء ولا مواراة لشيء من العمل أبدا ، وتكشف الخفايا وتبلى السرائر قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿ (هود ١٠٣) .

* وهو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا فداء ولا متاجرة ولن يجد الإنسان وسيلة ليشتري حسنة أو يبيع سيئة لأنه لا يملك أحد في ذلك اليوم شيئا ، وهو كذلك يوم لا خلة فيه ولا صداقة ولا صحبة يمكن أن يظن إنسان أنه سينتفع بها ، ولن يجد الإنسان من يشفع له إلا من أذن الله له

ورضى له قولا ، ولن يجد الإنسان في يده وسيلة غير العمل ، والله يقول
لنا هذا حتى نحسن العمل وندخر لأنفسنا ما ينفعنا وأن نترك كل ما لا فائدة
ترتجى منه يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا
رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (البقرة ٢٥٤) ومثله قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ (إبراهيم ٣١) قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا
تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾
(البقرة ٢٨١) .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ۚ ﴾ (١٨-١٩)
نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (الانفطار ١٨-١٩)

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة ٤٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة ١٢٣) .

* وهو يوم عظيم وكبير وشديد وأليم ومحيط بما فيه من العذاب فقد
جاء وصف اليوم بالعظيم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِن عَصَيْتُ رَبِّي

عَذَابِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ
 الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ (الأنعام ١٥-١٦) وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
 يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف ٥٩) وقوله تعالى : ﴿ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ
 إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس ١٥) وقوله تعالى
 : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 ﴾ (مريم ٣٧) وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾
 (الشعراء ١٣٥) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
 يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الزمر ١٣) وقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأحقاف ٢١) .

* وجاء وصف اليوم بأنه أليم في قوله تعالى : ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا
 اللَّهَ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (هود ٢٦) وقوله تعالى : ﴿
 فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ
 ﴾ (الزخرف ٦٥)

* وجاء وصف اليوم بأنه كبير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (هود ٣)

* وجاء وصف اليوم بأنه عقيم لا خير فيه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا

يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿ (الحج ٥٥) .

* وجاء وصف اليوم بأنه محيط في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بُخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ (هود ٨٤) .

وهذه الأوصاف كلها لليوم وهي في الأصل أوصاف للعذاب فهو
عذاب عظيم في حجمه وهيئته وبروزه من بين سائر ألوان العذاب ، وذلك
أن العظيم في معناها الحسي يقال لصاحب العظم الكبير فيقال : بعير عظيم
ورجل عظيم إذا كان عظمه كبيرا حتى إنه ليبرز ويبدو من بين سائر
الرجال وسائر الإبل ، ولما كان صاحب العظم الكبير بارزا وظاهرا من
بين أقرانه وأمثاله أخذ هذا المعنى وأطلق على كل شيء بارز في أمثاله
فيقال : خلق عظيم لمن كان متميزا في أخلاقه وبارزا بحسن خلقه من بين
أمثاله ، ويقال : عرش عظيم لما كان بارزا من بين العروش ومتفوقا عليها
وهكذا يوصف القرآن بأنه عظيم ومن أسماء الله الحسنى اسم العظيم .

وكذلك لما كان عذاب الآخرة متميزا وبارزا ومتفوقا على سائر
صنوف العذاب التي عرفها الناس وصفه الله بالعظيم ليلتفت الخلق إلى هذا
المعنى ، فكأنه يقول : هو عذاب لكن ليس كالذي عرفتموه أو سمعتم عنه
من العذاب لأنه مميز ومتفوق على كل ما عرفتم وما تصورتهم .

* أما وصف العذاب بأنه أليم ومعناه شديد الإيلام بحيث لا يتوقف
الإنسان عن التوجع منه والصراخ حتى لا يتصور إنسان أنه يمكن أن
يصبر عليه كما كان الناس يصبرون على ألوان العذاب في الدنيا ، فقد
صبر الأنبياء وصبر الصالحون على أشد ألوان العذاب وهو الإحراق بالنار
فربما يتوهم إنسان أنه يمكن أن يغالب الألم في ذلك اليوم بالصبر ولذلك

جاء هذا الوصف ليبين أنه في غاية الإيلام ولا طاقة لأحد على تحمله أبدا
* ثم وُصف العذاب بأنه كبير في مقداره دائما لا يصغر ولا يخف
حتى لو كان أدنى أهل النار عذابا ، فإذا كان العذاب في النار درجات على
حسب الأعمال فأقله يوصف بأنه كبير حتى في أدنى درجاته ، فقد قال
النبي ﷺ : " إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ
جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ وَالْقَمْقُمُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ
عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا " (١) .

* ثم وصف العذاب بأنه عقيم لأنه لا خير فيه على الإطلاق ولا
راحة ولا أنس ، وذلك أن الإنسان قد يعذب في الدنيا فيجد من يعينه على
الصبر والتحمل من تشجيع إنسان أو يلقي الله عليه النوم فتخف آلامه أو
يعطيه الله من القوة ما يتحمل بها صنوف العذاب أو يؤمل في الله أن يفرج
عنه فيخفف عنه الألم أو يتذكر موعود الله بالخير على الصبر فيصبر أو
يجد من يؤنسه ولو بكلمة تخفف عنه ، وهكذا فإن وجوه الخير التي يمكن
أن تصحب العذاب كثيرة أما عذاب الآخرة فلا شيء فيه من الخير على
الإطلاق فشبه بالمرأة التي لا تلد كناية عن انعدام الخير والرجاء فيه أبدا
وللدلالة على خلوه من أي أمل أو فرج .

* ثم وصف العذاب بأنه محيط لأنه يحيط بالمعذبين من كل
الجهات لا يكون في موضع دون موضع ولا مكان دون مكان ، فهو يصيب
الأكباد والقلوب وتشوى به الوجوه وتتضج به الجلود ويأخذ بالأسماع
والأبصار والأيدي والأرجل ، وهكذا هو محيط بالكيان كله .
* وإذا كانت هذه الأوصاف كلها للعذاب فإنها قد جاءت في الآيات

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري ٢٤٠٠/٥ كتاب الرقاق : باب صفة الجنة والنار
ورواه مسلم في كتاب الإيمان : باب أهون أهل النار عذابا ١٩٦/١ .

الكريمة أوصافا لليوم وليس للعذاب ومن يتأمل إعراب الآيات يدرك ذلك جيدا فإن العذاب جاء في أغلب الآيات منصوبا على أنه مفعول به للخوف وجاء مرفوعا في آية واحدة على أنه فاعل ليأتيهم وفي كل الآيات جاء مضافا إلى اليوم فجرَّ اليوم بالإضافة ثم جاءت الأوصاف كلها بالجر لتكون صفة للمجرور وهو اليوم ، وإنما انتقل الوصف من العذاب إلى اليوم للمبالغة في التهويل من صورة العذاب وللدلالة على استغراق العذاب اليوم كله بحيث لا تأتي على المعذبين لحظة لا يكون فيها العذاب بكل أوصافه المذكورة فاقترن العذاب باليوم واقترن اليوم بالعذاب بحيث لا يمكن التفريق بين الزمن والفعل حيث ينتفي الزمن لأنهم خالدون في هذا العذاب بدون انتظار يوم يمر أو يوم يأتي يكون لهم فيه الفرج أو التخفيف ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ

مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ (فاطر ٣٦)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَّضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ ﴾ (النساء ٥٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۗ ﴾ (الإسراء ٩٧) وقال

تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ (القارعة ١٠-١١) .

* وجاء وصف اليوم بأنه عسير لا يسر فيه ولا راحة في قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (القمر ٨) وقال

تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (المدرثر ٩-١٠) .

* وجاء وصف اليوم بأنه معلوم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّ

أَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الواقعة ٤٩-

٥٠) فهو معلوم بما أنزل الله فيه من الآيات التي تذكر أحواله وأهواله وما يكون فيه وما يكون قبله من الآيات وأقام الحجة على وقوعه بحيث لم يبق شبهة لجاحد ولا مستندا لمنكر

* وجاء وصف اليوم بأنه ثقيل لثقل ما فيه من أهوال وثقل الأوزار

التي يحملها الناس على أعناقهم وظهورهم قال تعالى : ﴿ إِنِّ هَؤُلَاءِ

يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٧) .

* وهو يوم شديد شره مستطير تتقلب فيه القلوب والأبصار وتعبس

فيه الوجوه حتى إنها من شدة عبوسها انتقل الوصف من الوجوه إلى اليوم

فقال تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ

وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۚ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (النور ٣٧)

وقال تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (الإنسان ٧) وقال

تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الإنسان ١٠) وذلك

من باب المبالغة في استطارة الشر وانتشاره في سائر مراحل ذلك اليوم .

رابعاً : التذكير ببعض الأهوال التي تقع في ذلك اليوم

حيث جاء ذكر اليوم نكرة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ،

وفائدة التعبير بالنكرة في كثير منها الدلالة على التهويل من شأن ذلك اليوم ومن ثم جاءت بعض الآيات بذكر بعض الأهوال التي يتعرض لها الناس في ذلك اليوم ، ومن أهم هذه الأهوال أن الله يُسَكِّتُ الألسنة وَيُنْطِقُ الجلود والأيدي والأرجل والجوارح فتشهد على أصحابها بسوء عملهم قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

يَوْمَ يَدْعِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿ (النور

٢٤-٢٥) وقد جاء تفسير ذلك فيما رواه أنس بن مالك قال :

" كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ : " هَلْ تَذَرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ "

قَالَ : قُلْنَا : " اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ "

قَالَ : " مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ : " يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ "

قَالَ : يَقُولُ : " بَلَى " قَالَ : فَيَقُولُ : " فَإِنِّي لَا أُجِيرُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا

شَاهِدًا مِنِّي " قَالَ : فَيَقُولُ : " كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ

شُهُودًا " قَالَ : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيَقَالُ لِرَكَابِهِ : انْطِقِي ، قَالَ : فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ

قَالَ : ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ قَالَ فَيَقُولُ : " بَعْدًا لَكُنَّ وَسُخْرًا فَعَنْكُنْ كُنْتُ

أُنَاضِلُ "

وفي رواية ثانية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالُوا : " يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ تَرَى

رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " قَالَ : " هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي

سَحَابَةٍ " قَالُوا : " لَا " . قَالَ : " فَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ

فِي سَحَابَةٍ " قَالُوا : " لَا " . قَالَ : " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ

رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا .

قَالَ : فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ : " أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أَكْرِمَكَ وَأَسَوِّدَكَ وَأَزْوَجَكَ وَأُسَخِّرَ

لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ ؟ " فَيَقُولُ : " بَلَى " قَالَ : " فَيَقُولُ : " أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي " فَيَقُولُ : " لَا "

فَيَقُولُ : " فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي "

ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ : " أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أَكْرَمَكَ وَأَسَوَّدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَحَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ " فَيَقُولُ : " بَلَى أَيُّ رَبِّ " فَيَقُولُ : " أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي " فَيَقُولُ : " لَا "

فَيَقُولُ : " فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي "

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ : " يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ وَبِئَنِّي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ "

فَيَقُولُ : " هَاهُنَا إِذَا " قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : " الْآنَ نُبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ "

وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخْدِهِ وَلَحْمِهِ وَعَظَامِهِ : " انْطَقِي "

فَتَنْطِقُ فَخْدُهُ وَلَحْمُهُ وَعَظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعَذِّرَ مِنْ نَفْسِهِ وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْحَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ ^(١) .

* ومن الأحوال التي تقع في ذلك اليوم أن ينفرد عقد القرابة والأبوة والبنوة والأمومة والأخوة من الكافرين الذين كانوا يتعصبون بها في الدنيا ويعتقدون أن فيها المنعة وفيها النجدة وفيها الأمان ، فيأتي الناس يوم القيامة وقد انقطع عنهم ذلك كله فلا يدفع والد عن ولد ولا يدفع ولد عن والد ، قال

(١) - الحديث رواه مسلم بروايته في كتاب الزهد وارقائق : باب ١ انظر :

٢٢٧٩/٤ و١٩٦/٢٢٨٠١ وقوله في الحديث : " أَيُّ فُلٍ " تضبط بسكون اللام وبضمها

وهي بمعنى فلان أو هي لغة في معنى فلان (انظر : فتح الباري ١/١٦٩ و٢٨/٧ وشرح

النووي ١١٧/٧) .

تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُقُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (لقمان ٣٣) .

* ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إنهم يفر بعضهم من بعض قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ وَكُلُّهُمْ يَوْمَئِذٍ مَسْفُورٌ ۚ ﴾ (نساء ١٢٥) .

وقد جاء في تفسير الآية عن عكرمة قال : " يَلْقَى الرَّجُلُ زَوْجَهُ فَيَقُولُ لَهَا : " يَا هَذِهِ ، أَيَّ بَعْلٍ كُنْتُ لَكَ ؟ " فَتَقُولُ : " نَعَمْ الْبَعْلُ كُنْتُ ! " وَتُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَتْ ، فَيَقُولُ لَهَا : " فَإِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكَ الْيَوْمَ حَسَنَةً وَاحِدَةً تَهَبِينَهَا لِي لَعَلِّي أَنْجُو مِمَّا تَرَيْنَ " فَتَقُولُ لَهُ : " مَا أَيْسَرَ مَا طَلَبْتَ ، وَلَكِنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أُعْطِيكَ شَيْئًا أَتَخَوَّفُ مِثْلَ الَّذِي تَخَافُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَلْقَى ابْنَهُ فَيَتَعَلَّقُ بِهِ فَيَقُولُ : " يَا بُنَيَّ ، أَيَّ وَالِدٍ كُنْتُ لَكَ ؟ " فَيُثْنِي بِخَيْرٍ ، فَيَقُولُ لَهُ : " يَا بُنَيَّ ، إِنِّي احْتَجْتُ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ حَسَنَاتِكَ لَعَلِّي أَنْجُو بِهَا مِمَّا تَرَى " فَيَقُولُ وَلَدُهُ : " يَا أَبَتَ ، مَا أَيْسَرَ مَا طَلَبْتَ وَلَكِنِّي أَتَخَوَّفُ مِثْلَ الَّذِي تَتَخَوَّفُ ، فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعْطِيكَ شَيْئًا " (١) .

قلت : التعبير بالفرار يوحي أنه لا يقف أحد لأحد حتى يكلمه ويسأله لأنه يترقب الخطر من وجوده أو الوقوف له ، خاصة إذا كان الكفر يجمع

بينهم وكأنه يرى أن وجوده معه أو بقرب منه شبهة يريد أن يدفعها عن نفسه أملا في أن ينجو بالفرار منه ، كما يفعل الناس في الدنيا يفرون من مقاربة أو مصاحبة من تحوم حوله الشبهات حتى لا يعير الواحد بأنه معه أو مثله ، على طريقتة ، فيرى الإنسان أباه يوم القيامة فيفر في أرض المحشر حتى لا يلقاه والعكس صحيح وهكذا مع كل الناس .

* ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد بل إن المجرم يتمنى يوم القيامة أنه يتمكن أن يفدي نفسه من العذاب ولو قدم أباه وولده وأمه وزوجه وقبي لته كلها فداء لنفسه ، فأج هول يكون في ذلك اليوم حتى يصل الأمر بالإنسان إلى هذه الدرجة من انتزاع العاطفة وقسوة القلب ! قال تعالى : ﴿

يُبْصِرُوهُمْ يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ ﴾ (المعارج

١١) قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (المدثر ٨-١٠) .

قلت : ومن عجيب التعبير في الآيتين أن الله يؤخر الأبناء في موقف العرض عند ذكر الفرار ويقدمهم عند معاناة العذاب ، وذلك لأن الإنسان في موقف العرض يعتقد أن له رصيذا عند بنيه فيؤخرهم في السؤال إلى نهاية المطاف لعله يجمع بعض الحسنات من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته ثم يأتي ولده فهو ضامن - في ظنه - أنه سيستفيد منه ، أو لأنه لما كان الولد هو الأعلى على النفس أخره في السؤال ، لكنه عند معاناة العذاب يتمنى أن يفلت بنفسه حتى لو قدم فداء لذلك أول ما يقدم فذلة كبده وهم بنوه ثم الأقرب فالأقرب كالأب والأم والأخ والزوج بل يتمنى الفداء ولو بأهل الأرض أجمعين ، وذلك هول يوم القيامة !

ومن الأهوال التي ذكرها الله ﷻ مرتبطة باليوم هو ما يحدث للناس

من فزع وأهوال تشد بالناس حتى تشيب الولدان وتذهل الأمهات فتضع
الحامل وتنسى المرضعة رضيعها ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ
كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ
سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج ٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا تَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ
الْأَسْمَاءُ مِنْقَطِرَةٌ يَوْمَ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ (المزمل ١٧-١٨) .

وقد سبق في الحديث أن ذلك يحدث عندما ينادى على آدم أن يخرج
بعث النار وبعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فهناك يشيب
الولدان والولدان أبعد ما يكونون عن المشيب لأنهم في مرحلة النمو
والتكوين ، وإنما لشدة الهول والفزع يشيبون ، وتسقط كل ذات حمل حملها
من هول الصدمة والفزع ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت

والتعبير بالمرضعة يظهر الهول الشديد لأن المرضعة وصف
للمرأة حال الإرضاع أي حيث يلتقم الصبي ثديها وهي تكون في هذه الحالة
في أشد أوقات الحنان والرأفة وشدة الالتصاق بولدها ومع ذلك فهي تذهل
عنه ولا تشعر به ولا تلتفت إليه وتنساه تماماً في غمرة الهول وشدة الفزع
فإذا كانت السماء قد تفتت وتصدعت وتشققت وهي في قوة التماسك
والبنيان وفي عظمة الخلق أكبر من كل شيء ، فكيف بالإنسان الذي لا يزن
بجانب الإنسان شيئاً ! ولهذا ذكر الله تشققها في سياق الحديث عن بعض
الأهوال والتي من بينها تنزل الملائكة ورؤية الناس لهم وهذا فيه من الهول
ما فيه ، وكذلك انقطاع الملك من أهل الدنيا ولم يبق لأحد ملك ولا سلطان
، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ

وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٦﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
مَّنْثُورًا ﴿٢٧﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٨﴾ وَيَوْمَ
تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَتُزَالِ الْمَلَكَةُ تَزِيلًا ﴿٢٩﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ
لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٣٠﴾ (الفرقان ٢٢-٢٦) .

حينها يدرك كل الخلائق أنه لا حيلة ولا شفاعة والكل يشخص ببصره
تجاه الرحمن فتخضع الأصوات ويتقرب الجميع ما يكون ولا أحد يعرف شيئا
عن شيء ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ
الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ﴿٣٠﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ
أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿ (طه ١٠٨-١٠٩) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ
يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (هود
١٠٥) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ
مَنْابًا ﴿٣٢﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ
الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ ﴿ (النبا ٣٨-٤٠) .

* وإذا بالخلق يسمعون النداء وإذا هو على المشركين يسألهم ماذا
فعلتم وقد جاءكم المرسلون بالحق وماذا كان جوابكم وردكم ، وقد توجه
بالسؤال من قبل إلى الرسل من باب تنكيك الكفار وإقامة الحجة عليهم
فيسأل الله الرسل ويقول لهم : ماذا أجبتهم من قبل الناس فيردون العلم إلى
الله ، وهنا يبهت الكافر ولا ينطق بكلمة واحدة لأنه لا يدري كيف يجيب

وقد عميت الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ جَمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة ١٠٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (القصص ٦٥-٦٦) .

* ومن الأهوال التي يلقاها الناس في ذلك اليوم ما يلقاه مانعو الزكاة من عذاب في موقف العرض بسبب ما بخلوا به من حقوق الفقراء والمساكين في أموالهم ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة ٣٥) .

وقد جاء في تفسير الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ " قِيلَ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَا بَلْ " .

قَالَ : " وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا وَمَنْ حَقَّهَا حَلَبَهَا يَوْمَ وَرَدَهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرِ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أَخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى

الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ

قِيلَ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ " قَالَ : " وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَطَحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرُ لَا يَفْقَدُ مِنْهَا شَيْئًا لَيْسَ فِيهَا عَقَصَاءٌ وَلَا جُلَحَاءٌ وَلَا عَضْبَاءٌ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطْوُهُ بِأُظْلَافِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أَخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ "

قِيلَ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْخَيْلُ " قَالَ : " الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ هِيَ لِرَجُلٍ وَزْرٌ وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ : فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وَزْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِبَاءً وَفَخْرًا وَنَوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ لَهُ وَزْرٌ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظُهُورِهَا وَلَا رِقَابِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدُ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٍ وَكُتِبَ لَهُ عَدَدُ أُرْوَاتِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٍ وَلَا تَقْطَعُ طَوْلُهَا فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرْقَيْنِ إِلَّا كُتِبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدُ أَثَارِهَا وَأُرْوَاتِهَا حَسَنَاتٍ وَلَا مَرَبَّهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلَّا كُتِبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدُ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ " . قِيلَ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْحُمْرُ " قَالَ : " مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الْحُمْرِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَادَةُ الْجَامِعَةُ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة ٧-٨) (١) .

* وقد سبق من الحديث في يوم الفصل أن الله يفصل بين المؤمنين

(١) - الحديث رواه مسلم في كتاب الزكاة : باب إثم مانع الزكاة ٦٨١/٢ - ٦٨٤ .

والمنافقين بأية الساق حيث يكشف الجبار ﷻ عن الساق فلا يبقى مؤمن بالله صادق في إيمانه إلا ويخر الله ساجدا ، ويأتي المنافق والمكذب ليسجد فيتصلب ظهره كأنه خشبة ولا يستطيع السجود فيخر على قفاه والجزاء من جنس العمل ، فقد كان الناس يدعونه إلى السجود في الدنيا فيأبى أو يأتي فيسجد رياء ومظاهرة للناس غير ملتفت إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (القلم ٤٢) .

* ومن الأهوال التي تكون في ذلك اليوم بروز النار للناس فيراها جميع الخلق فتخلع قلوبهم وينشد الجميع السلامة ويكون الدعاء في ذلك اليوم : اللهم سلم سلم ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ ﴿ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ (النازعات ٣٤-٣٦) .

وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا " (١) .

وقد ذكر الله تعالى أن النار إذا رأت أهلها من بعيد وقبل أن يدخلوها تغيطت وأخرجت زفيرا حارا تشوقا إلى تعذيبهم تريد أن تلتهمهم من شدة حنقها عليهم حتى إن الخلق كلهم ليخافون - مؤمنهم وكافرهم - من شهقة النار وزفيرها ، قال تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيطًا وَزَفِيرًا ﴾ (الفرقان ١٢) .

وقد جاء في التفسير ما يوضح ذلك عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيِّ ؓ فِي قَوْلِهِ :

(١) - الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها : باب فِي شِدَّةِ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ وَبُعْدِ قَعْرِهَا ٢١٨٤/٤ .

" سَمِعُوا لَهَا، تَغِيظًا وَزَفِيرًا " قَالَ: " إِنَّ جَهَنَّمَ تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا خَرَّ تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ، حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَيَجْتُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَيَقُولُ: رَبِّ لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي "

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ قَالَ: " إِنَّ الْعَبْدَ لَيَجْرُ إِلَى النَّارِ فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ شَهَقَةً الْبَغْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ ثُمَّ تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ " (١) .

خامسا : عرض صور اختلاف أحوال الناس في ذلك اليوم

ذكر الله يوم القيامة مرتبطا بتأكيد دراية الله وعلمه الكامل بجميع أعمال الخلاق صغيرها وكبيرها ، خيرها وشرها حتى يطمئن المؤمن لعمله أنه لن يضيع عند الله تعالى ، ويرتدع المجرم عن شره وقبيح عمله حتى لا يلقاه يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي

الصُّدُورِ ۖ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (العاديات ١١) .

* وحينها في ذلك اليوم يحشر الله الناس على اختلافهم بعد الزلزلة الكبرى وخروج الناس من القبور ليرى كل واحد منهم عمله ويحاسب عليه ، قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ۖ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۖ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۖ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾ (الزلزلة ١-٨) .

وقد أكد الله في القرآن الكريم بأسلوب القسم أنه لا بد من سؤال كل

(١) - الأثران رواهما الطبري في التفسير ١٨٧/١٨ وابن أبي حاتم في التفسير ٢٦٠/١٠

وانظر : تفسير ابن كثير ٣١٢/٣ .

إنسان عما هو فيه من نعيم ، وإن اختلف السؤال بين المؤمن والكافر كما سبق حيث يعرض الله على المؤمن نعمة الله عليه ويقرره بذنوبه ، أما الآخر فإنه سيسأل سؤال حساب وتبكيك ومهانة ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ

تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرُونَ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ (التكاثر ٥ - ٨) .

وقد جاء في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة ؓ قال : " خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَالَ : " مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ "

قَالَ : " الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ "

قَالَ : " وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا قَوْمُوا "

فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ مَرْحَبًا وَأَهْلًا فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَيْنَ فُلَانُ ؟ "

قَالَتْ : " ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا مِنَ الْمَاءِ إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ : " الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي "

قَالَ : فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ فَقَالَ : " كُلُوا مِنْ هَذِهِ " وَأَخَذَ الْمُدِّيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ "

فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمَا هَذَا النَّعِيمُ ! " (١)

(١) - الحديث رواه مسلم في كتاب الأشربة : باب جواز استنبأه غيره إلى دار من يشق برضاه بذلك ١٦٠٩/٣ .

* وقد سبق أن ذكرت اختلاف الناس في الحشر حيث يحشر المتقون والمؤمنون ركبانا فيقبلون كالوفود تستقبلهم الملائكة بالترحاب والبيشارة بينما يساق الكفرة والمجرمون عطاشا إلى جهنم ، وقد جمع الله بين حال الفريقين في يوم العرض وذكر بعض الأحداث المقترنة باليوم للدلالة على شدة ذلك اليوم على فئة وخفته ويسره على فئة أخرى مع أنه يوم واحد وإنما عبّر باليوم مضافا أو موصوفا بهذه الأحداث للدلالة على أنها تستغرق اليوم وللدلالة على أنه يوم لا ينتهي .

* فهناك ترى كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضرا أي حاضرا بشخصه وهيئته حتى الأقوال يصورها الله شخوصا تراها في ذلك اليوم وذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (آل عمران ٣٠) وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (الطارق ٩) .

حينها يفرح المؤمن ويستبشر بعمله ، ويبيض وجهه ويسفر من شدة الفرح والسرور ، وتظهر على وجهه النضرة وحينها في المقابل يود الكافر لو كان بينه وبين عمله الذي قدمه أمد بعيد ومسافة طويلة حتى لا يراه ولا يحاسب عليه ! وكيف يكون ذلك وهذا الكتاب يُعرض عليه فيه كل ما قدم فإذا رأى عمله السيئ اسودَّ وجهه من الحسرة والخزي وتعلو وجهه الغبرة والقترة والظلمة والسواد ، حتى لكان وجهه قد غطي بقطع من الليل المظلم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (آل

عمران ١٠٦-١٠٧) وقال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ ﴿١٠٦﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۖ ﴿١٠٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ ﴿١٠٨﴾ تَطْنُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۖ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (القيامة ٢٢-٢٥) وقال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٢٥﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَٰبِرَةٌ ﴿٢٦﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٢٧﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (عبس ٣٨-٤٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢٩﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣٠﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٣١﴾ فَذَكَرَ صُورًا مِنْ عَذَابِ الْكَافِرِينَ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٣٢﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٣٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الغاشية ١-١٠) .

* ومن ذلك أيضا ما ذكره الله من عداوة الأخلاء والأصفياء والأصدقاء والأصحاب يوم القيامة على عكس ما كانوا في الدنيا لأن صحبتهم ومودتهم كانت على الباطل فيتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا ، بينما الذين تلاقوا على الحق وكانت صحبتهم على تقوى الله يلقي بعضهم بعضا بالبشر والأكفة وزيادة المودة يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الزخرف ٦٦-٦٧) .

ومما ذكره الله من اختلاف حال الفريقين والتفريق بينهما مرتبطا باليوم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿٢﴾ وَأَمَّا

الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٤-١٦﴾
(الروم ١٤-١٦)

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرَّةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ تَحْكُمٌ
بَيْنَهُمْ ۚ فَأَلْزِمَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ ﴾ (الحج ٥٥-٥٧).

ومما ذكره الله من اختلاف أحوال الناس مقترنا باليوم ما ذكره الله من
نصرة أهل الحق وموالاتهم في الدنيا والآخرة في مقابل اللعنة التي تحل
بالكافرين الظالمين وما ينتظرهم من العذاب في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا
لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ
لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (غافر ٥١-
٥٢).

** وقد خص الله المؤمنين ببعض الأحداث التي ذكرها مقترنة
بذكر اليوم ، وخص الكافرين أيضا ببعض الأحداث التي ذكرها مقترنة
بذات اليوم ، وبيان ذلك كما يلي :

(أ) - بَعْضُ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ :

ومن ذلك أنهم يخرجون من قبورهم يسبحون الله ويحمدونه كما جاء
في بعض معاني قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٥٢) فعن ابن عمر ؓ قَالَ : قَالَ :

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَيْسَ عَلَيَّ أَهْلٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَشَّةٌ فِي قُبُورِهِمْ وَلَا فِي مَنْشَرِهِمْ وَكَأَنِّي بِأَهْلِ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُنْفُضُونَ الثُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَيَقُولُونَ :
" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ " (١) .

ومن ذلك أن الله يكرمهم في هذا اليوم فيؤتون كتبهم بأيمانهم ويوفون الحسنة بخير منها ويؤمنهم الله من فزع ذلك اليوم ، فإذا ما كانت سيئة فإنهم لن يقع عليهم ظلم أبدا ولو بمقدار الفتيل ، وذلك أن الملائكة تدعو الله لهم بأن يقبهم الله السيئات وأن يتولاهم برحمته ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ^ط فَمَنْ أَتَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِتِيلًا ﴾ (الإسراء ٧١) وقال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ (النمل ٨٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ ^ع

وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (غافر ٩)

* ومن ذلك أن الله ﷻ يمنحهم نورا يوم القيامة يضيء لهم ما بين أيديهم ومن خلفهم ومن حولهم ، ولسانهم يلح بالدعاء على الله أن يتم لهم نورهم وأن يغفر لهم الزلات ، وأن يكتب لهم الجنات ، فتأتيهم البشارة من قبل ربهم بأنهم قد قبلوا لأنهم قد صدقوا في عهدهم مع الله وعملوا الصالحات ، ولهم عند الله ألا يخزيهم الله أبدا ، ولهم أيضا عند الله الجنات

(١) - الحديث رواه ابن أبي حاتم في التفسير ١٦٥/٩ والطبراني في الأوسط ١٨١/٩ والبيهقي في شعب الإيمان ١١٠/١ والمزي في تهذيب الكمال ١٦٩/٩ والخطيب في تاريخ بغداد ٢٧٧/١ ٣٠٥/٥ و٢٦٥/١٠ وذكره ابن كثير في التفسير ٤٦/٣ و٥٥٨ والسيوطي في الدر المنثور ٣٠١/٥ وفي بعض طرقه ضعف .

التي طلبوها تجري من تحتها الأنهار ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الحديد ١٢) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا حُزْنَ اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحریم ٨) وقال تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائدة ١١٩) .

* كما تصور لنا الآيات موقفهم حين يلقون الله تعالى وكيف يقابلهم الله بالتحية ، أو أنهم يلقون بعضهم بعضا بالتحية ، وهي السلام بما يحمله من معنى الأمان والطمأنينة وزوال كل أسباب الخوف في ذلك اليوم وهي كثيرة ، فكانهم في سلام من الهول ومن الخوف ومن الفرع الأكبر ومن كل ما في اليوم من أهوال ومخاوف ، قال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب ٤٤) .

(ب) - بَعْضُ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ وَالْفُجَّارِ

وأول ذلك أن الله يبعثهم وهم في حالة جيدة من السمع والبصر حتى تكون الفضيحة عامة وحتى يكون الهول شديدا عليهم فلا يرون إلا ما يفرعهم ولا يسمعون إلا ما يخوفهم ولذلك تراهم في ضلال وتيه لا يعرفون ماذا سيفعل بهم وإلى أين يساقون ، قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ

يَأْتُونَنَا^ط لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ (مريم ٣٨) .

والشيء المؤكد أنهم مخجوبون عن الله ﷻ لأنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم في ذلك اليوم ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ (المطففين ١٥) .

ثم هم في ذلك اليوم في غاية الذلة والمهانة حتى إنهم من هول ما يرون وما يسمعون تتعقد ألسنتهم في حلقهم فلا ينطقون ولا يسمح لهم بالكلام ولا بالاعتذار مبالغة في المهانة والصغار ، قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ وَلَا يُؤْذُنُ هُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿ (المرسلات ٣٥) .

* فإذا فتنوا عن ناصر أو شفيع أو منقذ يجدون أنهم قد عاشوا على وهم وفي سراب ، وأنهم لم ينتفعوا بكل كيدهم الذي كانوا عليه في الدنيا وحينها يبحثون عن الشركاء فإذا وجدوهم تبرعوا منهم إلى الله وتبرأ الشركاء منهم فلا يجدون مفرا من التسليم لله رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الدخان ٤٠-٤١) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الطور ٤٦) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرِكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ^ط فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ^ط وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (النحل ٨٦-٨٧) .

* ومما جاء في هذا الأمر أنهم لا يجدون ناصرا ولا وليا ولا شفيعا فيقوم كل واحد بالجدال عن نفسه متبرئا من الآخرين ممن كانوا على طريقته وممن كانوا شيعة له في الدنيا وممن كان يستخدمهم في تحقيق مآربه ، وممن كانوا يدفعون عنه أو يدفع عنهم ، فقد انقطعت الخلّة وانقطعت الصلّة ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا

وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (النحل ١١١) .

* ومما ذكره الله من خزيهم مرتبطا بذلك اليوم أنه ينادى على الأنبياء للشهادة على أقوامهم ويقوم الرسول ﷺ شهيدا على أمته حينها يتندّم الذين عاندوه وعصوه وخرجوا عن طريق دعوته وساروا في دروب الشياطين ، ويتمنى الواحد منه لو تسوى به الأرض ، كما يقول العامة : " يا أرض انشقي وابلعيني " من شدة خزيهم ومن قبح جرمهم ، وهم مع ذلك لا يتمكنون من كتمان شيء لأن الذي يحاسبهم هو الله العليم ، قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۚ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ۚ اللَّهُ حَٰدِثًا ۝٤٢﴾ (النساء ٤١-٤٢) .

* ونأتي بعض الآيات لتتقل لنا صورة مما ينتظرهم من العذاب وما يحيق بهم من الخسران المبين ، وهل أحد أشد خسرانا ممن خسر نفسه وأهله يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَيَوْمَ

تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (الجنّة ٢٧) .

* وذلك العذاب هو عذاب النار الذي كانوا يستبعدونه نظرا

لاستبعادهم أن يكون هنالك بعث أو نشور بعد الموت ، فإذا هم يدفعون من أقبعتهم ويساقون كما يساق المجرمون إلى النار ، وإذا هم على النار يفتنون ويحرقون بسعيرها ولهيبها ، فإذا ما حاولوا الرجوع قُلبوا وطُرحوا ثم سحبوا في النار على وجوههم وينادى عليهم : ذوقوا عذاب النار وانظروا هل هي حقيقة أم وهم وسراب كما كنتم تدعون في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ ١٢٠ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٢١﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٢٢﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿الطور ١٣-١٦﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (هود ٨) .

وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ١٢٣ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٢٤﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿الذاريات ١٢-١٣﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر ٤٨) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا يَوْمَ يَوْمٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الصافات ٣٣) وفي سورة المرسلات تكرر عشر مرات قوله تعالى : ﴿ وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ ﴾ فليس لهم في ذلك اليوم إلا الويل والعذاب .

* وتصور لنا الآيات أنه مهما بلغ عدد المكذبين الذين يدخلون النار

من الكثرة فإن في النار ذلك اليوم متسعا وتنادي بالمزيد ، فقد خلقها الله وجعل فيها متسعا من الأودية والمفاوز وصنوف العذاب ما يكفي جميع البشر لو أنهم كلهم كفروا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود ١١٩) وفي ذلك اليوم ينادى عليها من باب التكيل بالكافرين وبيان أن ما أعد لهم من العذاب والنكال شديد وأنهم مهما بلغوا فهم حطام النار وحطبها ووقودها والعذاب فيها يغشاهم ويغطيهم ويأتيهم من كل اتجاه من فوقهم ومن تحتهم وهم في غمرات النار ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت ٥٥) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (ق ٣٠) .

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال : " اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا فَقَالَتِ الْجَنَّةُ : " يَا رَبِّ مَا لَهَا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ؟ " وَقَالَتِ النَّارُ يَعْني : " أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ "

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ : " أَنْتِ رَحِمَتِي " وَقَالَ لِلنَّارِ : " أَنْتِ عَذَابِي أَصِيبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُؤُهَا " قَالَ : فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ فَيُلْقَوْنَ فِيهَا فَتَقُولُ : " هَلْ مِنْ مَزِيدٍ " ثَلَاثًا حَتَّى يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَمْتَلِئُ وَيُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ : " قَطُّ قَطُّ قَطُّ " وفي رواية قال : " حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ثُمَّ تَقُولُ : " قَدْ قَدْ بَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ " وَلَا تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ

لَهَا خَلْقًا فَيُسَكِّنُهُمْ فُضْلَ الْجَنَّةِ " (١) .

ومن الأموال الخاصة بالكافرين والمرتبطة بذلك اليوم - وبعد معاينتهم العذاب عند الموت ويقينهم بأن ما سمعوه من النبي ﷺ هو الحق وليس غيره ، ثم بعد دخولهم في النار وتقلبهم في العذاب - ما يدل على شدة تحسّرهم وتندمهم حتى إنهم ليسألون الله الرجعة مع وعد بأنهم سيعملون غير ما قد سبق وعملوه في الدنيا على أمل أن يستجاب لهم ، ولكن أنى لهم ذلك وقد قُضِيَ الأمر ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۚ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ ﴾ (المؤمنون ٩٩-١٠٠)

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۖ ﴾ (الأحزاب ٦٦) .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۚ ﴾ (الأعراف ٥٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) - الحديث متفق عليه رواه البخاري في كتاب التوحيد : باب مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٢٤٥٣/٦ و ٢٦٨٩ و ٢٧١١ ومسلم في كتاب الجنة

وصفة نعيمها : باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢١٨٧/٤ .

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ حُبِّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴿٤٤﴾ (إبراهيم ٤٤) .

* وقد اكتفيت بذكر الآيات دون شرح ما فيها حتى لا يطول البحث ، وحتى يكون الكلام مقتصرًا على ما يتصل بالوقت الزمني وهو لفظ اليوم ، وإلا فإن في القرآن ما يصور أهوال يوم القيامة وأحوال الناس فيها ، وصور نعيم المؤمنين وصور عذاب الكافرين ما لا يمكن استقصاؤه هاهنا لأنه ليس له مجال في هذا البحث الخاص بالوقت والزمان ، وهذا ما أعتذر به وإن كانت الآيات تدعوني إلى الخوض في الشرح إلا أنني كبحت جماح نفسي حتى أقصر على ما عمدت إليه . والله أعلم .

سادسا : يَوْمُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَوْمُ الْكَافِرِينَ

وقد جاء ذكر اليوم نكرة مضافا إلى ضمير المخاطبين من المؤمنين في موطن واحد ، وجاء مضافا إلى ضمائر المكذبين بلفظ " يَوْمُكُمْ " على الخطاب في أربعة مواطن ، ولفظ " يَوْمُهُم " على ضمير الغائب في خمسة مواطن ، وهذه الإضافة تشعر كل فريق أن اليوم يومهم ، وهذه الجملة غالبا ما تقال في مقام المدح حيث يقال للمتمكن من الشيء : اليوم يومك يا فلان ، وكأنه صاحب اليوم ولا صاحب له غيره ، فهل هذا المعنى هو المراد في هذه الإضافة ، وكيف صحت إضافته بهذه الصورة لضمير المؤمنين والكافرين معا ؟

* وأبدأ بالمضاف إلى ضمائر المخاطبين من المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْهُمْ أَلْفَرُ الْعَآكِبُرُ وَتَتَلَقَّهُمْ الْمَلَآئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (الأنبياء ١٠٣) .

والآية الكريمة فيها بشارة أعظم البشارة للمؤمنين أنهم يخرجون من قبورهم يوم القيامة فتلقاهم الملائكة فور خروجهم بالترحاب والبشارة وبث

الطمأنينة في نفوسهم وهدايتهم إلى منازلهم ، وتقول لهم : هذا يوم الثواب
ويوم الفوز الذي كنتم توعدون به وأنتم في الدنيا من ربكم .

* وتبدأ الملائكة في التعبير عن اليوم باسم الإشارة للدلالة على أنه
اليوم الذي هم فيه وهو يوم القيامة بعد البعث من القبور ، فهو يومهم
الحاضر ، واستخدم في التعبير اسم الإشارة للتبويه بعظمة اليوم بالنسبة
للمؤمنين ، وكأنه هو اليوم وكأنه لم يكن أيام سواه من قبل ، لأن الزمان لما
انقطع بانقطاع الدنيا وقد مضت الحياة الدنيا بزمانها فلا وجود إلا لهذا اليوم
، فأشير إليه للتبويه بعظم شأنه ، وللدلالة على أنه اليوم الموعود الذي كانوا
يؤمنون به ويترقبونه في الدنيا .

* وأضيف اليوم إلى ضمير المؤمنين من باب التكريم والتشريف
وكانهم وحدهم الموجودون في ذلك اليوم ولا سواهم ، لأنهم لما كانوا
مؤمنين وكان وعد الجنة والنعيم للمؤمنين وحدهم بشروا بأنهم أصحاب هذا
اليوم للدلالة على فوزهم ونجاتهم ، فالיום يوم الفائز ، وأما الخاسرون فهم
خارج الصورة لأنهم في النار يعذبون فهم كالمعدومين في الذكر .

** أما ما جاء من إضافة اليوم إلى ضمائر المكذبين فذلك في قوله

تعالى : ﴿ يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمْ
الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (الأنعام ١٢٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا

جَاءُوهَا فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ

كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ (الزمر ٧١) وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ
 اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا
 لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ (الأعراف ٥١) ومثله قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا
 نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة ١٤) وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ
 لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِلُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴾ (الجن ٣٤).

وقال تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
 يُوعَدُونَ ﴾ (الزخرف ٨٣) ومثله قوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
 الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ (الطور ٤٥) وقوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا
 حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج ٤٢) وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (الذاريات ٦٠) .

* ويلاحظ في هذه الآيات أنها جاءت على ألوان متعددة من الخطاب ،
 فمنها ما يشير إلى التبكيت والتوبيخ الذي يوجه للكافرين في يوم القيامة ،
 وذلك عن طريق سؤالهم عن الرسل وما أنذروهم به من هذا اليوم وهم في
 الدنيا ، حتى يقرروا بالحقيقة ويشهدوا على أنفسهم ، ثم في صورة خطاب
 للنبي ﷺ يدعو الله تعالى فيه إلى الإعراض عنهم وعدم التفكير فيهم وعدم
 الانشغال بهم فالله أراد لهم أن يستمروا فيما هم فيه من لعب ولهو وخوض
 في الباطل حتى لا يكون لهم خير عند الله وحتى يأتي يوم القيامة حيث

يلقون فيه ما توعدهم الله به من العذاب ، ثم الحديث مطلقا عن هذا اليوم وما فيه من وعيد مطلق للكافرين .

* ويلاحظ في الآيات كلها أيضا أن الله لم يفصل الموعد به ولا المُنذَر منه وإنما جاء فعل الإنذار وفعل المواعدة مطلقا بدون تفصيل أن يقول مثلا : ينذرونكم من كذا ومن كذا ، أو يوعدون به من كذا ومن كذا ، وذلك الإبهام غاية في الإنذار والوعيد لأنه يشتمل على احتمالات كثيرة ومخاوف لا حصر لها وتشمل كل ما خوفهم الله به في آيات القرآن الكريم وخوفهم به النبي ﷺ في دعوته إياهم ، فالإبهام للتحويل والترهيب من اليوم كله ، ولأجل أن يصور اليوم كله على أنه أهوال لا خلاص منها فهو ينذرهم اليوم وهو يوعدهم اليوم .

* وأما من جهة إضافة اليوم إليهم بلفظ : " يومكم " ويلفظ : " يومهم " فإنما يقال ذلك على سبيل التهكم والسخرية لأنهم لما كانوا في إصرار شديد على الإنكار والتكذيب وعدم الاعتراف بذلك اليوم ثم فوجئوا باليوم وقد جاءتهم الساعة بغتة ، جوبهوا بالقول : هذا يومكم إمعانا في السخرية والاستهزاء فكانه يومهم هم لكثرة ما أنكروا وكذبوا ولذلك أعقبه بوصف اليوم بأنه اليوم الذي كانوا يوعدون ، ليقول لهم على سبيل الاختصاص : هذا يومكم الذي توعدكم الله به في الدنيا أصبح واقعا مشاهدا لا انتهاء له ولا انتهاء لكم فيه من العذاب .

* وفي إضافة اليوم إلى الفريقين من المؤمنين والكافرين للدلالة على استقلال كل فريق منهم بما كان يوعد به في الدنيا فالمؤمنون يستقلون بتحقيق وعد الله لهم بالفوز والجنة ولن يشاركهم في ذلك أحد من الكفار ولأجل هذا الاستقلال أضيف اليوم إليهم على اعتبار أنه يوم النعيم والمتاع ، وفي المقابل نجد أن الكفار يستقلون بتحقيق موعد الله فيهم بالعذاب ولن يشاركهم الخلود في النار أحد من المؤمنين ، ولأجل هذا الاستقلال صحت

إضافة اليوم إليهم على اعتبار أنه يوم العذاب لأن الآخرة ينقسم الناس فيها إلى فريقين لا ثالث لهما : فريق في الجنة وفريق في السعير ، فاستقل كل واحد بما وعد به فأصبح اليرم يومه في الجنة أو في النار بغير اشتراك ولا تداخل ، وذلك كما يقال في المثل : الدهر يومان يوم لك ويوم عليك ^(١) ولا يقصد به أنه لك وحدك ، أو عليك وحدك ، وإنما لما كان الإنسان منشغلاً بخاصة نفسه صحت إضافة اليوم له أو عليه وقد قال الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ

أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس ٣٧) .

ويقال : إنما أضيف اليوم إلى الضمير للفريقين تذكيراً لهم جميعاً بما وعدوا في الدنيا من الثواب أو العقاب ، لئلا يحسبوا أن الموعد به يقع في يوم آخر ، والمعنى : هذا يوم تعجيل وعدكم ^(٢) .

(١) --- هذا المثل من كلام علي بن أبي طالب ؑ ومن كلام غيره (انظر : مجمع الأمثال

٤٥٤/٢ والحماسة البصرية ٤٠٦/٢)

(٢) --- انظر : التحرير والتنوير ١٣١/٥ و ٢١٤/٩ .

المبحث الرابع

الأيام المجموعة في القرآن الكريم

واضح من كل ما سبق أن الكلام كان عن لفظ اليوم المفرد معرفة كان أو نكرة ، موصوفا أو مضافا ، وهنا يكون الحديث عن الأيام بمعنى أن يأتي لفظ اليوم مجموعا على أيام في القرآن الكريم ، وهي لا تدل على عدد زمني بقدر ما تدل على حدث معين ، ومن ذلك ما يلي :

(أ) - أيام الله

حيث جاءت الأيام مضافة إلى الله ﷻ في آيتين من القرآن الكريم أولاهما جاءت في سياق دعوة موسى عليه السلام حيث يأمره الله تعالى أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور وأن يذكرهم بأيام الله في قوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا وَقَدْ بَعَّيْتُنَا مُوسَى أَنْ أَخْرِجَ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَى النُّورِ هَـ بِأَيَّامٍ وَذَكَرَهُ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ صَبَّارٍ لِكُلِّ لَآيَةٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم ٥) .

وإذا كانت الأيام كلها لله لأن الله مالك الكون كله بكل ما فيه من زمان ومكان وخلائق فإن تخصيص هذه الأيام بإضافتها إلى الله تعالى يعطينا معنى خاصا لا يراد به الأيام في ذاتها وإنما يراد بها أمر آخر وكان من البلاغة بمكان الحديث عن هذا المعنى بهذه الإضافة .

والكلمة في اصطلاح العلماء والمفسرين تدور حول عدة معانٍ (١) :

المعنى الأول : نعم الله على الناس ، والمعنى : ذكرهم بنعم الله عليهم حيث نجاهم من فرعون وبطشه ، وعظهم بما سلف من نعمي عليهم في الأيام التي خلت ، فاجترئ بذكر " الأيام " من ذكر النعم التي عناها لأنها

(١) - انظر : تفسير القرطبي ٣٤١/٩ وابن كثير ٥٢٤/١٢ والماوردي ٣٢٢/٢ والجلالين

٣٣٠ والدر لمنثور ٦/٥ وفتح الباري ٣٧٦/٨ .

أيام كانت معلومة عندهم ، أنعم الله عليهم فيها نعمًا جليلةً أنقذهم فيها من آل فرعون بعد ما كانوا فيما كانوا فيه من العذاب المهيّن وغرق عدوهم فرعون وقومه ، وأوزّتهم أرضهم وديارهم وأموالهم .

وقد أثر هذا المعنى عن ابن عباس ؓ وعن كثير من كبار المفسرين من التابعين ^(١) ويشهد لذلك أن الله ذكر عن موسى عليه السلام بعد ذلك أنه ذكر قومه بنعمة الله عليهم فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْخِلُونَ أَسْبَابَكُمْ وَبَنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ (إبراهيم ٦-٧) حيث تدور الآيتان الكريمتان حول مقام النعمة والشكر عليها وما يقابله من كفران وجحود .

ويشهد له أيضا أن نبي الله موسى عدد عليهم النعم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ (المائدة ٢٠) .

* ومن اللطائف التي استند إليها العلماء في أن المراد بالأيام هنا ذكر النعم أن الله لما ذكر محنة بني إسرائي مع فرعون غاير في التعبير بين المواطن الثلاثة في قوله تعالى : ﴿ يَنْبِيئِ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَيَّ فُضِّلْتُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ (البقرة ٤٧) ثم عدّد الله عليهم

(١) - انظر : تفسير الطبري ١٣/١٨٢-١٨٤ ومسند أحمد ٥/١٢٢ وعبد بن حميد ١/٨٧ .

النعم فبين أنه فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون ، وأنه أتى نبيه موسى الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون ، وأنه ﷺ عفا عنهم بعد اتخاذهم العجل وأنه ﷺ عفا عنهم بعدما جعل من توبتهم أن يقتلوا أنفسهم ، وأنه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ومتعمهم بالأكل من الطيبات وغيرها كثير من النعم كلها جاءت في سياق هذه الآية ، وكان من أهمها أنه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ

يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ (البقرة ٤٩) فشرح في الآية المراد بسوء العذاب وهو تذبيح الأبناء واستحياء النساء لأن هذه واحدة من جملة النعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليهم ، ولذلك جاءت جملة يذبحون بدون حرف العطف لأنها بيان .

فلما جاء الحديث عن الأيام والمراد بها النعم ذكر أنهم يسومونهم سوء العذاب ويذبحون ، فعطف جملة ويذبحون بالواو على جملة يسومونهم لأنه من اللائق أن يعدد امتحانهم تعديدا يؤذن بصدق الجمع عليه لتكثير المنة والتفضل ولذلك أتى بالعاطف ليؤذن بأن إسماتهم سوء العذاب مغاير لتذبيح الأبناء وسبي النساء وهو ما كانوا عليه من التسخير والاستدلال بخلاف المذكور في البقرة (١) .

وما جاء في الموطن الثالث بلفظ ﴿ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ

نِسَاءَكُمْ ﴾ (الأعراف ١٤١) فهو بيان لنوعية العذاب بالتذبح والغاية منه وهو القتل والإبادة بإزهاق الروح وليس مجرد تعذيب فقط .

المعنى الثاني : أيام النعمة والعذاب الذي حل بالأمم الماضية لما

كذبوا والمعنى : خوفهم بما نزل بعداء وثمود وأشباههم من العذاب ، وبالعفو عن الآخرين ، وهو في المعنى كقولك : " خَذَهُم بِالشَّدَةِ وَاللَّيْنِ " فإن الناس إذا تنكروا ما حل بغيرهم وأخذوا لأنفسهم منه عبرة صلحت لهم دنياهم وفازوا وسعدوا في آخرهم ، وإذا تليت عليهم أخبار المكذبين وهاكهم مع نجاة المؤمنين والعفو عنهم ثم لم يرتدعوا فقد استحقوا أن ينزل بهم بأس الله وعذابه في أي وقت وقد أعذر الله منهم ، وقد سميت هذه الأحداث أياما تبعها لما فيها من الشدة والنكال ، وكان من عادة العرب التعبير عن النوازل الشديدة والأحداث العظيمة بالأيام لبقاء أثرها في النفوس ولأنها كانت علامة على تلك الأيام كيوم بعث ويوم ذي قار ويوم السقيفة ويوم الفرقان وغيرها .

المعنى الثالث : الأيام التي كان بنو إسرائيل فيها عبيدا مستذلين لدى فرعون وجنوده ، لأنه ذكرهم بذلك قبل أن ينعم الله عليهم بالفكاك من فرعون والتحرر من سطوته وبأسه ، وسميت أياما لما كانوا فيه من الشدة والاستذلال وتسلط فرعون عليهم فهي أبقى في ذاكرتهم من النعم وفيها من المواعظ أكثر ما يكون في النعم التي ينساها الناس .

المعنى الرابع : الأيام الماضية مطلقا بدون تحديد يوم معين لاستخلاص العبرة والموعظة من تاريخ الناس في الزمان الماضي بما كان في تلك الأيام من خير وشر ، ومتاع وعذاب .

قلت : هذه المعاني الأربعة ليست متضادة ويمكن جمعها في القولين الأولين وهما نعم الله ونقمه وعذابه ، فإن تذكير نبي الله موسى لقومه بنعمة الله عليهم بأنه نجاههم من فرعون وجنوده يستلزم تذكر ما كان قد حدث لهم من ظلم وتشكيل حل بهم ، وتذكر النعمة يدفعهم إلى الاستجابة لأمر الله وما جاءهم به موسى عليه السلام حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالمكذبين من قبلهم من العذاب والتشكيل ، وهذا كله واقع في مطلق الأيام الماضية لأن الأيام تشمل عليه ، وعليه فإن الاختلاف في تحديد معنى الأيام مختلف باختلاف الفهم

والاستنباط وكلُّ نظر إلى الأيام من جهة واحدة برغم ما فيها من مختلف الأحداث (١).

* ويؤكد ذلك أن الله ختم الآية بقوله : ﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فلفظ الصَّبَّار صيغة مبالغة تدل على كثرة الصبر وهو يناسب المحن والشدائد ، لأن كل محنة تحتاج إلى صبر فلما تعددت المحن تعدد الصبر فبالغ في إثباته فقال : صبار ، أما لفظ الشكور فهو صيغة مبالغة من الشكر وهو يناسب الحديث عن كثرة النعم كذلك .

وأسندت الأيام إلى الله لأن الله مالك الكون بما فيه وهو الذي يدبر الأحداث ويقدر المقادير والأيام وما يكون فيها لا يشاركه في ذلك غيره ، فمرد الأيام كلها إليه ﷻ ويقصد بذلك التشريف من ناحية والتعظيم من ناحية أخرى ، وكلا من التشريف والتعظيم يدعو الخلق إلى التفكير والاعتبار وأخذ الموعدة التي تنفع .

** وقد جاء ذكر أيام الله أيضا في خطاب المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْيَوْمَ بِرَجُوعٍ لِّلَّذِينَ يَغْفِرُونَ ءَآمَنُوا لِّلَّذِينَ ؕ أَللَّهُ بِمَا قَوْمًا لَّيْجِرَى كَسِبُوهٖنَّ كَانُوْهُنَّ ﴾ (الجاثية ١٤) .

والآية الكريمة يخاطب الله فيها رسوله الكريم محمدا ﷺ بأن يعلم المؤمنين ويبلغهم أمر الله لهم بالصبر على الكفار والمنافقين ويعلمهم أن الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون ، وذلك الأمر كان في المراحل الأولى للدعوة إن كان يقصد المشركين أو اليهود بالذين لا يرجون أيام الله ، وإن كان يقصد بهم أهل النفاق على ما جاء في بعض الروايات أنها نزلت بسبب

بعض أقوال رأس النفاق عبد الله بن أبي فإنه يأمرهم بالمغفرة والعفو حتى لا تقع الفتنة بين المسلمين بما يثره المنافقون من أجل تقويت الفرصة عليهم واتحاد كلمة المسلمين .

واختلف المفسرون هنا في بيان معنى الأيام والمقصود بها تبعاً لاختلافهم في مدلول كلمة الرجاء ، فإن حمل لفظ الرجاء على أصل معناه كان المراد بأيام الله نعمه وأفضاله وما يكون في الآخرة من ثواب عظيم فهؤلاء الكفار واليهود والمنافقون على اختلاف الرواية في سبب النزول لا يرجون خير الله ولا يأملون الأوقات التي وقَّتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز والنصر فيها وأعظمها وعدا يوم القيامة لأنهم لا يقرون برسالة الإسلام ولا يصدقون الرسول ﷺ ولا يتقنون بوعده الله أبداً فقد اقتصرته همته على ما تحت أرجلهم من حطام الدنيا .

وإن حملنا الرجاء على معنى التوقع كان المعنى لا يتوقعون أيام الله بنقمة وبطشه وأخذه للمكذبين بالعذاب ، وعليه فالأيام بمعنى الوقائع وهي تعود على وقائع المكذبين من الأمم السابقة وما نزل بهم من النكال والعذاب . وإن حملنا الرجاء على معنى الخوف كان المراد بأيام الله نقمة وعذابه كما حل بالمكذبين من قبل ، والمعنى يغفروا للذين لا يخافون نقمة الله وبطشه وعذابه أن يحل بهم ، وأشد ما يكون البطش والانتقام في يوم القيامة ، فهم لا يرجون بعثاً ولا يخافون حساباً ^(١) .

والأولى أن تحمل الكلمة على عمومها لتشمل المعنيين معاً ، فهم لا يرجون ثواب الله ولا يتقنون بوعده ، وهم كذلك معرضون لا يخافون من بطش الله ونقمة ولا يريدون أن يعتبروا بوقائع الدهر وأيام الله فيه .

(١) -- انظر : تفسير القرطبي ١٦١/١٦-١٦٢ والطبري ١٤٤/٢٥-١٤٥ وتفسير أبي السعود

٧٠/٨ وروح المعاني ١٤٧/٢٥ واللباب ١٤٨/١٤ .

يقول سيد قطب : (توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله ، تسامح المغفرة والعفو ، وتسامح القوة والاستعلاء وتسامح الكبر والارتفاع ، والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف أحياناً بحرمانهم من ذلك النبع الفياض الذي يزخر بالندوة والرحمة والقوة والثراء ، نبع الإيمان بالله والطمأنينة إليه والاحتماء بركنه واللجوء إليه في ساعات الكربة والضيق ، وحرمانهم كذلك من المعرفة الحقيقية المتصلة بصميم النواميس الكونية وما وراءها من القوى والثروات ، والمؤمنون الذين يملكون كنز الإيمان وذخره ويتمتعون برحمته وفيضه أولى بالمغفرة لما يبدو من أولئك المحرومين من نزوات وحماقات .

هذا من جانب ، ومن الجانب الآخر ليعترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة في سجل الحسنات ، ذلك فيما لا يظهر الفساد في الأرض ، ويعتدي على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال) أ.هـ -

(ب) - الْوَقَائِعُ الشَّدِيدَةُ

حيث جاء ذكر الأيام المجموعة مضافة إلى ما يدل على الأمم الماضية حتى كأن الأيام صارت علما بهم وعلما عليهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ

فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ (يونس ١٠٢) .

والآية فيها تهديد ووعد للكفار أنهم بإصرارهم على الكفر والعناد مثلمهم كمثل الذي ينتظر أن يحل به ما حل بأمثاله المكذبين من قبل ، ومن ثم نجد لفظ الوعد والتهديد والتحدي بأخوف ما تكون العبارة حيث يأمرهم بالانتظار والتربص لأن الرسول ﷺ على الحق وستكون له وللمؤمنين النهاية إن شاء الله .

والأيام هنا بمعنى الوقائع الشديدة والنوازل المفجعة ، ويراد بها ما نزل بالأمم السابقة من العذاب والأخذ الشديد حين كذبوا الرسل ، فهي وإن اختلفت كيفياتها ما بين طوفان وغرق ورجفة وصيحة وحاصب وخسف إلا أنها كلها تتفق في النهاية والمصير الذي آلوا إليه جميعا وهو الهلاك والدمار ، وقد اشتهرت قصصهم بين الناس وأطلقت عليها أيام لما وقع فيها من الشدة حتى كان علامة مشهورة معروفة يتذكرها الناس .

قال القرطبي : (الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم قال قتادة : يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما كقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام) (١) .

(ج) - أَيَّامُ دَوْلَةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

وذلك أن سنة الله اقتضت أن يبتلي الخلق بعضهم ببعض وأن يكون وجود الإنسان في الأرض قائما على الاختلاف في الأهواء والنزعات والمقاصد ليحسن الابتلاء والاختبار وليجزى الله كل نفس ما كسبت ، وكان من فضل الله على البشر أنه أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب التي تعرفهم بالله وتشرح لهم المنهاج الأمثل الذي يسعدهم في دنياهم ويضمن لهم عدم التخطي والاصطدام بعضهم ببعض ، ويضمن لهم كذلك أن يفوزوا برضوان الله والجنة في الآخرة .

ولما كان هذا المنهج يتطلب في الأساس أن يتجرد الناس من أهوائهم وشهواتهم واتباع منهج الله وحده وأن يستقيموا على ما يدعوهم إليه

(١) - تفسير القرطبي ٣٨٦/٨ وانظر : تفسير النسفي ١٤٣/٢ والبيضاوي ٢١٦/٣-٢١٧ والبلغوي ٣٧١/٢ والوجيز للواحدي ٥٠٩/١ والتفسير الكبير ١٣٦/١٧ .

الرسل فقد اصطدم ذلك بغلبة الهوى والشهوات لدى كثير من البشر وحتى ينتصروا لشهواتهم ويحققوا مآربهم ويحكموا أهواءهم كان لا بد لهم أن يصطدموا بأهل الحق وأن يقفوا في وجه الدعوة إلى كل خير واستقامة وما فيه نفع للمجتمعات بأسرها ، وأقول : هم الذين يصطدمون ويقفون في وجه الحق لا أن الحق هو الذي يصطدم بهم لأن الحق أبلج وهو فيه من موافقة الفطرة والعقل ما يجعل الخلق يهتدون إليه بلا كبير عناء لو أفسح له المجال ليغزو قلوب الخلائق .

ولكن أنى لأصحاب الهوى أن يفسحوا للحق الطريق وهو يعلمون أنه سيحكم شهواتهم ويكبح جماح أهوائهم ! ومن هنا ينشأ الصراع بين الحق والباطل ، وحتى يكون الابتلاء قويا كان لدى البشر من أدوات الفتك والقتل والتدمير ما تنتجه عقولهم الضارة من ابتكار لكل جديد مع توالي الأيام ، ومن ثم كان لا بد في حلقة الصراع من قتل وجراحة وإتلاف أموال وتشريد وأشياء كثيرة يكرهاها الناس جميعا لكن كثيرا منهم يغمض عينه عنها من أجل مصالحه وأهوائه فحسب .

واقترضت حكمة الله كذلك أنه لا بد أن يستقيم أهل الإيمان على المنهج حتى ينصرهم الله تعالى ، ولما كان يقع فيهم على مرّ الزمان من فتور أو كسل أو تهاون أو مخالفة كان لا بد من هزهم بشدة حتى يرجعوا إلى الحق ، ومن هنا كان الصراع بين الحق والباطل تداولا على مرّ التاريخ ، فمرة تدول الدولة إلى الحق فيعلو وينتصر ويدحر الله الكفر ، ومرة يضعف أهل الحق ويتهاونون ويخالفون أمر الله فيصيبهم الله بأيدي أعداء الحق وتكون الدولة عليهم لحكم عديدة ليس هذا مجال بسطها .

وقد أصيب المسلمون مصيبة شديدة في غزوة أحد بعدما انتصروا انتصارا ساحقا في غزوة بدر الكبرى ، وهذا الذي تحدث الله عنه في القرآن

الكريم وعبر عنه بلفظ الأيام في قوله تعالى : ﴿ إِن يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٠) .

* والأيام يراد بها هنا أوقات النصر والغلبة في الحياة بصفة عامة ما كان في الأمم السابقة وما يكون في الأيام اللاحقة وما كان في الأيام التي نزلت فيها هذه الآيات أيام غزوة أحد فإنها تدخل دخولاً أولياً ، حيث نزلت فيها الآيات تذكر أحداثها وتربطها بعبرها ومواعظها .

* ونداولها بمعنى نديلها ونصرفها بينهم فتارة تكون لهؤلاء وتارة تكون لأولئك ، وأصلها من الفعل : دال بمعنى لزم ، وهي هنا مصدر لداول الشيء إذا جعله عنده دولة ودولة عند الآخر ، أي يدوله كل منهما أي يلزمه حتى يشتهر به ومنه دال يدول دولةً واشتهر ، لأن الملازمة تقتضي الشهرة بالشيء ويكون ذلك في الأشياء والكلام ، يقال : كلام مُداول ومتداول (١) .

* وليس معنى الآية أن الله ينصر الكافرين على المؤمنين ، وإنما يبتلي المؤمنين ويصيبهم بسبب تقصيرهم فيغلبهم الكفار لما أراد الله للمؤمنين من التمهيص وتمييز أهل الإيمان والصدق من أهل النفاق والغدر وليتخذ من المؤمنين شهداء وليقوى بأسهم ويشد من أزرهم كما هو واضح من سياق الآيات سابقها ولاحقها (٢) .

وإنما عبر بالأيام لشهرتها بهذه الأحداث التي تكون فيها .

(١) - انظر المفردات في غريب القرآن للراغب ١٧٤ وتفسير البيضاوي ٩٦/٢ والمحرر

الوجيز ٥١٤/١ والبحر المحيط ٦١/٣ وفتح القدير ٣٨٤/١ والتحرير والتنوير ٢٢٥/٣ .

(٢) - انظر : التفسير الكبير ١٣/٩-١٤ وروح البيان ٣٠١/٢ وتفسير ابن عجيبة ٣٤٠/١ .

(د) - أَيَّامُ عُمُرِ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا

ويراد بها العمر كله في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ

فَيَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّة ۖ ﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّة ۖ ﴿١٩﴾ فَهُوَ فِي

عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢٠﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢١﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا

بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٣﴾ (الحاقة ١٩-٢٤) وإنما عبر عن عمر

الإنسان في الحياة بالأيام للدلالة على قلتها وتفاهتها بالنسبة للآخرة ،

ووصفها بالخالية لأنها خلت ومضت وانقضت ولم يعد لها وجود ، إشارة

إلى تعظيم أيام الآخرة فهي الباقية الخالدة بما فيها من نعيم ومتاع .

والله أعلم .

الفصل الثالث

الغَدُ

الْغَدُ : هو اليوم القادم الذي يلي يومك الحاضر ، وأصله غَدَوٌ ، حذفوا الواو بلا عوض ، فإذا صرّفوها قالوا : غَدَوْتُ أَغْدُو غَدَوًا وَغَدُوًا فَأَعَادُوا الواو ، ويدخل فيه الألف واللام للتعريف ؛ وَغَدَوٌ هو الأصل والنسبة إليه غَدِيٌّ ، وإن شئت غَدَوِيٌّ .

وأصله من الغدو الذي هو أول النهار وقد سبق بيان معناه في اللغة ، فقبل لليوم المقبل نظرا لأن أول ما يبدأ منه وقت الغدو فلزم اليوم كله ، وبقي الغدو اسم لأول النهار ما بين الفجر إلى الإسفار .

كما اشتق الأمس من المساء الذي هو الوقت الماضي في الليل الفائت .
وربما كُنِيَ به عن الزَّمنِ الأخير ، مثل قوله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَنْتَظِرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لَغَدٍ ﴾ (١) .

وقد ورد هذا اللفظ بأشتقاقاته خمس مرات في القرآن الكريم على معنيين اثنين : فقد يراد به اليوم التالي مباشرة ، وقد يراد به المستقبل مطلقا من غير تحديد ، وبيان ذلك على النحو التالي :

أولا : مَا يُرَادُ بِهِ الْيَوْمُ التَّالِي لِلْيَوْمِ الْحَاضِرِ

بمعنى أن يأتي لفظ الغد ويراد به في نية القائل اليوم التالي لليوم الحاضر الذي يتكلم فيه مباشرة مثل قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (يوسف ١٢) وهذا الكلام من قول إخوة يوسف عليهم السلام لأبيهم لما حاولوا أن يحتالوا عليه ليخرجوا يوسف من جواره وقربه ليلقوه في غيابة الجب حيث أجمعوا على

(١) - انظر مختار الصحاح ١٩٦ ولسان العرب ١٥/١١٧ والنهاية ٣/٣٤٦ .

ذلك بعد تشاور وحوار لأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم يحب يوسف وأخاه
ويقبل عليهما أكثر منهم ، ومن ثم رأوا أنه لا يمكن أن يخلو لهم وجه أبيهم
إلا إذا فرقوا بينه وبين يوسف عليه السلام فاحتالوا على أبيهم في الحوار وقالوا له
: ما لك لا تأمننا على يوسف وهو أخونا ونحن إخوته ونريد له الخير
ونحافظ عليه ، ثم طلبوا منه في هذه الآية أن يسمح لهم باصطحابه غدا
للعب والمرح مع الرعي ، واستخدموا في الحوار لفظ الإرسال حتى يكون
الأمر بعيدا عن الظن والتهمة لو قالوا : دعنا نسطحبه .

وعلى كل حال فالشاهد معنا في هذه الآية هو ذكر الغد ويراد به هنا
اليوم التالي ليوم الحوار مباشرة ، وسياق الكلام يؤكد ذلك حيث كانوا
يريدون التخلص منه في أقرب وقت .

*** وبمثل ما أريد بالغد اليوم الذي يلي يومك الحاضر في الآية
السابقة جاء الغد أيضا بنفس المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ (لقمان ٣٤) .

* وقد جاءت هذه الجملة في سياق الحديث عن مفاتيح الغيب التي أخبر
الله عباده أنه لا يعلمها إلا هو وهي علم الساعة متى وكيف تقع وما أحوالها
فعلمها الكامل عند الله ، وكذلك نزول الغيث والمطر لا يدري أحد بموعده ولا
مكان نزوله ولا كيف ينتزل ، وكذلك علم ما في الأرحام من الأجنة فلا يعلم ما
كتب لها أو عليها وما سيكون من العمر وما سيكون من الرزق وغيره فلا يعلم
ذلك إلا الله ، وكذلك الأجل متى يحين أجل كل إنسان وأين سيأتيه أجله ، وقد
بين رسول الله هذه الآية في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ : " مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ وَلَا يَعْلَمُ
أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ وَلَا يَعْلَمُ نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ

أَرْضٍ تَمُوتُ وَمَا يَذْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ " (١) .

** والمراد بالكسب ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ مثل كسب المال ، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أن يجلب به منفعة أو يجلب به مضرة ، والمراد كل ما يكسبه الإنسان من خير أو شر ، من إيمان أو كفر ، مما به تحصيل معيشتة وأمر دنياه أو مما به تحصيل أمر دينه وآخرته فالكسب يراد به العموم ، فالإنسان قد يدبر لنفسه شيئاً ولا يحصله ويريد الله خلافه ، وقد يتوقع شيئاً ويظن أنه متحصل لا محالة ويأبى الله غير ما يريد وما يدبر ، وقد يدبر الإنسان لنفسه شيئاً يظن فيه الخير والنفع فيأتيه من ورائه الضر والشر .

* والآية لا تعني أن يركن الإنسان إلى الكسل والدعة والخمول وعدم التدبير والتقدير ، وإنما تحث الإنسان على أن يكون موصولاً بالله في كل أعماله وأن يعلم أن كل شيء في الحياة بتقدير الله وعليه أن يستعين بربه ويرد إليه المشيئة في كل أمر يريده أو يدبره ، وأن يأخذ بالأسباب مع التوكل على مسبب الأسباب ﷻ وذلك حتى لا تنقطع نفسه حسرة على شيء دبر له وأراده ولم يشأ الله أن يقع ، ولا يتبطر كذلك فرحاً بشيء دبر له وتم له ما أراد لأنه كله بيد الله ومن الله وفي هذا يقول الرسول ﷺ : " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اخْرُصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (٢) .

(١) - الحديث رواه البخاري في كتاب الاستسقاء : باب لما يذري متى يجيء المطر إلا الله ٣٥١/١ و ١٦٩٣/٤ .

(٢) - الحديث رواه مسلم في كتاب القدر : باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتقويض المقادير لله ٢٠٥٢/٤ .

* والغد هنا هو اليوم التالي لليوم الحاضر مباشرة لأن التعبير به من باب المبالغة لأنه إذا كان الإنسان لا يدري ماذا سيحصل ولا ماذا سيكسب في غده التالي مباشرة فإن عدم درايته ومعرفته بالغد الذي يلي ذلك حتى آخر العمر من باب أولى ، وأيضا لأن الإنسان لا يدري هل يموت من يومه أو يعيش إلى غده ؟ وكلما كان النفي للوقت الأقرب كان أبلغ في الدلالة على المعنى فنفي العلم بما هو أقرب نفي للعلم بما هو أبعد

قال البرسوي : (الغد : اليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه كما أن أمس اليوم الذي قبل يومك بليلة وإذا لم يكن للإنسان طريق إلى معرفة ما هو أخص به من كسبه وإن أعمل حيلة وأنفذ فيها وسعه كان من معرفة ما عده مما لم ينصب له عليه أبعد ، وكذا إذا لم يعلم ما في الغد مع قربه فما يكون بعده لا يعلمه بطريق الأولى)^(١).

ثانيا : ما يراد به مطلق الزمن القادم

بمعنى أن يأتي لفظ الغد ويراد به قابل الزمان وما يأتي من الأيام والشهور والسنين ، وقد جاء ذلك في مواطن متعددة منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا

تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ ﴾ (الكهف ٢٣)

** والآية تعليم من الله لرسوله ﷺ والمسلمين أن يتأدبوا ويردوا كل شيء لأمر الله تعالى ومشيئته فلا يعزموا على شيء إلا ويفوضوا الأمر فيه لله تعالى ، ولا يتحدثوا أنهم فاعلون شيئا في مستقبل الزمان إلا ولا بد أن يستثنوا في كلامهم ويقولوا : إن شاء الله ، لأن الله ﷻ هو مسبب الأسباب ومالكها ولو شاء أمضى وقدر ما عزموا عليه وإن شاء عطل فلم يقدروا على تحقيق وإنجاز ما قالوا .

* وقد روي أن الآية نزلت بسبب أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن الروح وعن ذي القرنين وعن أصحاب الكهف بناء على نصيحة من اليهود ، فقال لهم : " أَخْبِرْكُمْ غَدًا " ولم يقل : " إن شاء الله " فأبطأ عليه الوحي حتى كذبه المشركون ثم نزل الوحي بعد ذلك بإجابة سؤالهم وبهذا التعليم الرباني الكريم ^(١) .

والمقصود بالغد في النهي مطلق الغد فيشمل اليوم التالي مباشرة ويشمل ما بعده من الأيام لأن الناس تطول بهم الآمال ويحسبون للغد مطلقا في اليوم التالي وبعد شهر وبعد شهور وبعد سنة وبعد سنين .

قال الآلوسي : (أي فيما يستقبل من الزمان مطلقاً وهو تأكيد لما يدل عليه اسم الفاعل بناء على أنه حقيقة في الاستقبال ويدخل فيه الغد بمعنى اليوم الذي يلي يومك وهو المتبادر دخولاً أولياً ، فإن الآية نزلت حين سألت قريش النبي ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فقال ﷺ : " أَخْبِرْكُمْ غَدًا " ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي .

وجوز غير واحد أن يبقى على المعنى المتبادر وما بعده بذلك المعنى يعلم بطريق دلالة النص ، وتعقب بأن ما بعده ليس بمعناه في مناطق النهي وهو احتمال المانع فإن الزمان إذا اتسع قد ترتفع فيه الموانع أو تخف وليس بشيء لأن المانع شامل للموت واحتمال في الزمان الواسع أقوى ^(٢) .

قلت : إن الله ﷻ لا يمنع على الإنسان أن يفكر في مستقبله ولا في غده ولا يحول بينه وبين أن يرتب لحياته على الأمل الذي يعيش به ، رغم أن أمل الإنسان لا يقف عند حد يوم أو أسبوع أو سنة أو قرن فتري

(١) - انظر : تفسير الطبري ١٩٢/١٥ وابن كثير ٧٣/٣ والدر المنثور ٣٥٧/٥ والسير

الحلبية ٤٩٩/١ والبداية والنهاية ٥٣/٣ وعيون الأثر ١٤٣/١ .

(٢) - روح المعاني ٢٤٧/١٥ وانظر تفسير أبي السعود ٢١٧/٥ والكشاف ٦٦٨/٢ وروح

البيان ٣٤٣/٧ وتفسير ابن عجيبة ٣٩٠/٣ .

الإنسان وهو صغير يحدث نفسه ماذا سيفعل إن هو بلغ العشرين وماذا سيفعل إن هو تزوج وماذا سيفعل إن هو سافر أو حل وارتحل ، ويدبر لنفسه ويرتب ماذا سيفعل إن هو أحيل إلى التقاعد والمعاش وهكذا لا تقف الآمال بالإنسان عند حدٍّ حتى يأتي الموت فيقطع تلك الأمانى وربما يكون أقرب للإنسان من خاطره الذي يفكر به ولسانه الذي ينطق به .

ومع ذلك أؤكد أن الله لا يقطع على العبد أمانيه ولا آماله ولكنه يعلمه كيف يتأدب مع ربه في اندفاعه نحو الأمانى والآمال فيعلم أن كل شيء بيد الله وعليه أن يتوكل على الله وأن يستعين به وأن يرد كل عزيمة وكل قول إلى مشيئة الله فيحظى بنوال بركة ردِّ الأمر إلى المشيئة وبركة طاعة الله ويخلص نفسه من كل تبعة قد تنتج عن عدم تحقيقه ما قاله وما عزم عليه ، وفي الوقت نفسه تطمئن نفسه بذكر ربه وردِّ الأمر إليه .

يقول سيد قطب : (إن كل حركة وكل نأمة ، بل كل نفس من أنفاس الحي مرهون بإرادة الله ، وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ؛ وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل ؛ وعقله مهما علم قاصر كليل ، فلا يقل إنسان : إني فاعل ذلك غداً ، وغداً في غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ، لا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر له وأن يعيش يوماً بيوم ، لحظة بلحظة ، وألا يصل ماضى حياته بحاضره وقابله . . كلا . ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره ؛ وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره ، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فيها ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس لأن الأمر لله أولاً وأخيراً ، فليفكر الإنسان وليدبر ؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله ، ويدبر بتوفيق الله ، وأنه لا يملك إلا ما يمهده الله به من

تفكير وتدبير ، ولن يدعو هذا إلى كسل أو تراخ أو ضعف أو فتور ؛ بل على العكس يمدّه بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة ، فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير الله غير نبيره ، فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام ، لأنه الأصل الذي كان مجهولاً له فكشف عنه الستار .

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم ، فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر . . ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح ، ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق ، بل يبقى في كل أحواله متصلاً بالله ، قوياً بالاعتماد عليه شاكراً لتوقيه إياه مسلماً بقضائه وقدره ، غير متبطر ولا قنوط ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ من هذا المنهج الذي يصل القلب دائماً بالله ، في كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه .

وتجيء كلمة ﴿ عَسَى ﴾ وكلمة ﴿ لِأَقْرَبَ ﴾ للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه في جميع الأحوال (أ.هـ. *** ومن التعبير بالغد المراد به المستقبل المطلق من غير تحديد اليوم التالي مباشرة قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام مع قومه : ﴿ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنْ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ ﴾ (القمر ٢٦) .

* والآية جاءت في مقام التهديد والوعيد لثمود بالعذاب حينما اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب ورموه بالباطل والافتراء ، فبين الله تعالى أنه سيظهر في الأيام المقبلة من هو الكذاب الأشر تعريضاً بهم لأنهم هم الكاذبون ، وذلك حينما ينزل بهم العذاب الذي يتوقع في الأيام المقبلة من غير أن يحدد

الله يوماً بعينه ، ومن ثم كان المراد بالغد اليوم الذي يحل عليهم العذاب ، وأكبر دليل على أنه لا يراد به اليوم التالي مباشرة أنهم لما أصروا وعاندوا وطلبوا منه ﷺ آية فأعطاهم الله الناقة آية مبصرة وعاشوا يتمتعون بألبانها فترة من الزمن ثم تأمروا فعقروها فقال لهم صالح ﷺ : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ

تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ (هود ٦٥) .

* ومن المعلوم أنه لم يتوعدهم بتحديد الأيام إلا بعد أن عقروا الناقة وعقرهم الناقة كان بعد الحديث عن هذا الوعيد في الآية التي معنا بمدة طويلة ، حيث قال الله تعالى : ﴿ سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ ۖ إِنَّا مُرْسِلُونَ ۚ النَّاقَةَ فِتْنَةً هُمْ فَارْتَفَبَهُمْ وَأَصْطَبِرُ ۖ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شَرِبٍ مَّحْتَضِرٌ ۖ فَتَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ (القمر ٢٦-٢٩) .

* ولما كان الأمر كذلك فإن الله عبر عن اليوم الموعد بلفظ الغد للدلالة على شدة قربهِ وتحقيق مجيئه ، حتى كأنه واقع في الغداة ، كما يقول العرب في أمثالهم : " إِنَّ غَدًا لِّنَاطِرِهِ قَرِيبٌ " (١) .
قال أبو حيان : (أي قل لهم يا صالح وعداً يراد به الزمان المستقبل ، لا اليوم الذي يلي يوم خطابهم ، فاحتمل أن يكون يوم العذاب الحال بهم في الدنيا ، وأن يكون يوم القيامة ، وقال الطرماح :

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ نَوْحِ النَّوَاحِ وَقَبْلَ اضْطِرَابِ النَّفْسِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
وَقَبْلَ غَدِيَا لَهْفِ نَفْسِي فِي غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَاحٍ

أراد وقت الموت ، ولم يرد غداً بعينه، وفي قوله: ﴿ سَيَعْمُونَ غَدًا ﴾

تهديد ووعد ببيان انكشاف الأمر، والمعنى: أنهم هم الكاذبون الأشرار^(١).

*** ومثل ذلك يقال في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا

اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (الحشر ١٨) حيث يخاطب

الله عباده المؤمنين محذرا إياهم من الغفلة والتكاسل والركون إلى الدنيا ،
وعليهم أن يتدبروا أمرهم ويعملوا لأنفسهم ما يلقونه طيبا كريما يوم القيامة
لأن كل ما يعمل به الإنسان مسجل عليه في الكتاب وسيحاسب عليه إن خيرا
أو شرا ، ولما كان كل ما يعمل به الإنسان سيلقاه يوم القيامة عبر الله عن
العمل وإن مضى فعله بلفظ التقديم لربط الجزاء بالعمل ولينظر كل إنسان
ماذا يفعل وماذا يقدم لنفسه بين يديه ، والمقصود أن يحاسب كل إنسان نفسه
وينظر عمله قبل أن يأتيه الحساب وحده .

* والشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ حيث ذكر الغد

والمراد به يوم القيامة ، وعبر عنه بالغد دلالة على شدة قربيه كما هي عادة
العرب في التعبير عن المستقبل بالغد ، ولأن الساعة آتية لا ريب فيها فإنها
من الدنيا في قربها وتحقق وقوعها كقرب الغد من اليوم ، فما الدنيا إلا يوم
حاضر يعقبه غد لا ينتهي وهو يوم الحساب ، وإنما جاء الغد نكرة لتعظيمه
والتهويل من شأنه فهو ليس كأى غد مما يعرف الناس إنما هو غد لا غد
بعده ولا غد مثله^(٢) .

(١) - البحر المحيط ١٧٩/٨ وانظر : الباب لابن عادل ٩/١٥ وروح المعاني ٨٨/٢٧ .

(٢) - انظر : تفسير الباب لابن عادل ٢١٦/١٥ والكشاف ٥٠٧/٤ والتسهيل لعلوم التنزيل

١١١/٤ والتفسير الكبير ٢٥٣/٢٩ والتحرير والتنوير ١٠/١٥ .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أنعم على عباده بنعمة القرآن الكريم الذي جعله نوراً وهدى للناس ، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله وصفوته من خلقه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وارض اللهم عنا معهم بكرمك ومنك يا أكرم الأكرمين . اللهم آمين .

وبعد : فقد مرَّ بين يدي المطالع الكريم الجزء الثاني من موضوع " دلالة الوقت والزمان في آيات القرآن الكريم " والذي خصصته للحديث عن الزمن الماضي والمعبر عنه في القرآن الكريم بلفظ الأمس ثم الحديث عن الزمن الحاضر والمعبر عنه في القرآن الكريم بلفظ اليوم ، ثم الحديث عن الزمن المقبل في القرآن الكريم والمعبر عنه بلفظ الغد .

وقد تبين من خلال البحث أن لفظ الأمس تارة يراد به اليوم السابق لليوم الحاضر مباشرة ويراد به كذلك مطلق الزمن الماضي بغير تحديد ، وذلك ليستفيد المخاطب ويعتبر وينتبه إلى أن ما مضى من الزمان وإن طالبت مدته فمثله كمثل الأمس الذاهب حيث يتلاشى الزمن ولا يشعر الإنسان إلا بلحظته ، وفي هذا عبرة للمسلم من حيث يدرك أن كل ما فيه من بلاء ومحنة سيمضي ويمر مهما استبطأ الزمن ومهما طالبت به المحنة ، ويتذكر في ذلك قصص الأنبياء والسابقين الذين مرت عليهم الدهور والعصور وكأنها الأمس الغابر .

وكذلك ينتبه الغافل والجاهل والمكابر والمتناول على خلق الله إلى أن استكباره وتطاوله منته لا محالة وسيمر عليه الزمان وهو في الغابرين لا حول له ولا قوة ، وسيمضي كأن لم يكن في الأرض بالأمس ، فليُنظر في مصارع السابقين وليعتبر .

وتبين من خلال البحث أن لفظ اليوم قد يراد به اليوم الحاضر الذي

يعيشه الناس ، وقد يراد به مطلق الزمن الحاضر وإن لم يكن نفس اليوم الذي نحياه ، وذلك ليستشعر المسلم قيمة الوقت فيشغل نفسه بما ينفعه في حاضره ومستقبله .

وقد جاء ذكر اليوم للدلالة على أيام لها شأن ووقع في حياة الناس ، منها أيام تتصل بالغيب كيوم الشأن ويوم العروج ويوم الخلق ويوم السفر والإقامة ويوم الريح العاصف ، ومنها أيام تتصل بالأمم الماضية كيوم الضيف العصيب بين لوط عليه السلام وقومه ويوم الناقة بين صالح عليه السلام وقومه ويوم الزينة بين موسى عليه السلام وفرعون ويوم السبت عند اليهود ، وأيام العذاب والنعال للكافرين .

ومنها أيام ارتبطت بأحداث هامة وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كيوم بناء المسجد ويوم بدر يوم الفرقان ويوم أحد ويوم الحج الأكبر وغيرها ، ومنها أيام ترتبط بالتشريع الإسلامي يريد الله أن يافت أنتظار الناس إليها كيوم الجمعة ويوم الحصاد لإخراج الزكاة ويوم الصدقة في الشدة والعسرة ويوم موت الظالمين وغيره ذلك .

وتبين كذلك أن لفظ اليوم ورد أكثر ما ورد في القرآن الكريم للدلالة والإشارة إلى يوم القيامة ، كأنه اليوم الحاضر ليعلم الناس إن يوم القيامة آت لا محالة وكأنه حاضر ماثل أمام أعينهم حتى يستعدوا له ويعملوا بجد في حاضرهم الذي سيمضي وينتهي لحاضرهم الذي لا ينتهي .

وتبين من خلال البحث أن الله تعالى وصف يوم القيامة وسماه بأسماء متعددة كل وصف منها يدل على حالة تختلف عن حالة الوصف الآخر وقد ورد في القرآن الكريم منها سبعة عشر اسما هي يوم القيامة واليوم الآخر ويوم الدين ويوم الفصل ويوم الحساب ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الحسرة واليوم الحق ويوم التغابن ويوم الفتح ويوم التلاق ويوم الآزفة ويوم التناد ويوم الوعيد ويوم الخلود ويوم الخروج .

وتبين من خلال البحث أن الله تعالى ذكر يوم القيامة بأوصافه

وأسمائه مرتبطا بأحداث مختلفة منها : ما جاء مرتبطا بأهوال وأحوال وأحداث تقع بين يدي ذلك اليوم ، ومنها ما جاء مرتبطا بذكر المراحل التي يمر بها الخلاق في هذا اليوم ، ومنها ما جاء مرتبطا بتذكير الناس ببعض الأهوال التي يلاقيها الخلاق في هذا اليوم ، ومنها وما جاء مرتبطا بذكر اختلاف أحوال الناس في ذلك اليوم

وتبين من خلال البحث أن لفظ اليوم جاء مفردا معرفا ومفردا مضافا إلى غيره ، وجاء من حيث العدد مفردا وجاء مجموعا للدلالة على أمور مختلفة وتنبيه الناس إلى مجموعة من الأيام التي لها شأن ينبغي أن يلتفت إليها الناس لاستنباط العبرة والموعظة كأيام الله وأيام الوقائع الشديدة التي أصابت السابقين والذين خلوا من قبل ، وأيام الدولة بين الحق والباطل حتى يرجع المسلمون لربهم ويعتصموا بحبله ، وكذلك أيام عمر الإنسان في الحياة التي قضاها في طاعة الله وغير ذلك .

وتبين من خلال البحث أيضا أن لفظ الغد تارة يراد به اليوم التالي لليوم الذي نعيشه مباشرة وتارة يراد به مطلق الزمان المستقبل ليعلم الناس أن كل آت قريب وأن الغد الحقيقي هو يوم القيامة وعلى الإنسان أن يستعد له فهذا هو الصواب والسداد .

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يكتب لي ولمن يقرأ ويستمتع بالفائدة والمنفعة والقبول وأن يجعل ما كتبت في موازين حسناتي وأن يجعله خدمة لكتابه وخالصا لوجهه الكريم ، وهذا جهد المقل وبفتح الله على غيري بالكثير ، فما كان من صواب فبفضل الله ونعمته وتوفيقه وما كان من نقص فمن نفسي ، وأسأل الله العفو وجبر النقص وسداد التقصير ، والله على ما أقول وكيل وهو حسبي ونعم المولى ونعم النصير .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا
وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

مراجع البحث

- الآحاد والمثنائي : لأبي بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني ت : ٢٨٧هـ . تحقيق : باسم الجوابرة . دار الراية : الرياض ١٤١١هـ .
- إبراز المعني من حرز الأمان : لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ت : ٦٦٥هـ . تحقيق : إبراهيم عطوة . مكتبة المصطفى (بدون) .
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر : لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي . ت : ١١١٧هـ . تحقيق : أنس مهرة . دار الكتب العلمية : بيروت ١٤١٩هـ .
- الإيضاح في علوم البلاغة : للخطيب القزويني . تحقيق : بهيج غزاوي . دار إحياء العلوم : بيروت ١٤١٩هـ .
- البداية والنهاية : لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ت : ٧٧٤هـ . مكتبة المعارف : بيروت (بدون) .
- تاج العروس من جواهر القاموس : لمرتضى الزبيدي محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني . نسخة اليكترونية على موقع التوراق www.alwaraq.com .
- تاريخ الأمم والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت : ٣١٠هـ . دار الكتب العلمية : بيروت ١٤٠٧هـ .
- تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) : لأبي الفضل محمود الألوسي ت : ١٢٧٠هـ . دار إحياء التراث العربي : بيروت (بدون) .
- تفسير البرسوي : (روح البيان) لإسماعيل حقي البرسوي - دار الفكر (بدون) .
- تفسير البغوي (معالم التنزيل) : لأبي محمد الحسين بن مسعود

الفراء البغوي ت : ٥١٦هـ . تحقيق : خالد العك ومروان سوار . دار

المعرفة : بيروت ١٤٠٧ هـ . - ١٩٨٧

تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) : لـ البيضاوي ت

: ٧٩١هـ . تحقيق : عبد القادر حسونة . دار الفكر : بيروت ١٤١٦هـ .

تفسير التستري :

تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) : لعبد الرحمن بن

محمد بن مخلوف الثعالبي . مؤسسة الأعلمي للمطبوعات : بيروت (بدون).

تفسير الجلالين : لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت : ٩١١هـ . دار الحديث : القاهرة

(بدون) .

تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير) : لأبي الفرج

عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت : ٥٩٧هـ . المكتب الإسلامي

: بيروت ١٤٠٤ هـ .

تفسير ابن أبي حاتم : لعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ت

٣٢٧هـ تحقيق : أسعد الطيب . المكتبة العصرية _ صيدا (بدون) .

تفسير أبي حيان (البحر المحيط) : لأبي حيان محمد بن يوسف بن

علي الأندلسي ت : ٧٤٥هـ . تحقيق : عادل أحمد وآخرين . دار الكتب

العلمية . بيروت ١٤٢٢هـ .

تفسير الرازي (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) : لفخر الدين محمد

بن عمر التميمي ت : ٦٠٤هـ . دار الكتب العلمية : بيروت ١٤٢١هـ .

تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل)

لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ت : ٥٣٨هـ . تحقيق : عبد الرزاق

مهدي . دار إحياء التراث . بيروت (بدون) .

تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) :

لأبي السعود محمد بن محمد العمادي . ت : ٩٥١ هـ . : دار إحياء التراث العربي : بيروت (بدون) .

تفسير السمرقندي (بحر العلوم) : لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي ت ٣٦٧ هـ تحقيق : محمود مطرجي - دار الفكر : بيروت (بدون) .

تفسير سيد قطب : (في ظلال القرآن) ط : دار الشروق : بيروت : نسخة الكترونية .

تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) : لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ت : ٩١١ هـ . دار الفكر : بيروت ١٩٩٣ م .

تفسير الشنقيطي : (أضواء البيان) لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي . تحقيق : مكتب البحوث والدراسات . دار الفكر : بيروت ١٤١٥ هـ .

تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) : لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ت : ١٢٥٠ هـ . دار الفكر : بيروت (بدون) .

تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ت : ٣١٠ هـ . دار الفكر : بيروت ١٤٠٥ هـ . تفسير ابن عاشور : (التحرير والتنوير) : لمحمد الطاهر ابن عاشور . نسخة مصورة عن دار النشر التونسية (بدون) .

تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) : لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية ت : ٥٤٦ هـ . تحقيق : عبد السلام عبد الشافي . دار الكتب العلمية : بيروت ١٤١٣ هـ .

تفسير الغرناطي (التسهيل لعلوم التنزيل) : لمحمد بن أحمد بن محمد

الغرناطي الكلبي ت : ٧٤١هـ . دار الكتاب العربي . بيروت ١٤٠٣هـ .
تفسير القرطبي : (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن
أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي
ت : ٦٧١هـ . تحقيق : أحمد البردوني . دار الشعب : القاهرة
١٣٧٢هـ .

تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) : لأبي الفداء إسماعيل بن
عمر بن كثير الدمشقي ت : ٧٧٤هـ . دار الفكر : بيروت ١٤٠١هـ .
تفسير الماوردي (النكت والعيون) :

تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) لعبد الله ابن أحمد بن
محمود النسفي ت ٧١٠هـ . - دار الفكر . (بدون) .

تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) : لأبي الحسن
علي بن أحمد الواحدي ت : ٤٦٨هـ . تحقيق : صفوان عدنان . دار
القلم ، الدار الشامية : دمشق ، بيروت ١٤١٥هـ .

تهذيب الكمال : لأبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزني ت:
٧٤٢هـ . تحقيق: بشار معروف . مؤسسة الرسالة: بيروت ١٤٠٠هـ .

الحجة في القراءات السبع : لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ت:
٣٧٠هـ . تحقيق: د. عبد العال مكرم . دار الشروق: بيروت ١٤٠١هـ .

حجة القراءات : لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة .
تحقيق : سعيد الأفغاني . مؤسسة الرسالة : بيروت ١٤٠٢هـ .

ديوان الحماسة : للتبريزي . دار القلم : بيروت (بدون) .

زاد المعاد في هدي خير العباد : لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر
أيوب ابن القيم الزرعي ت : ٧٥١هـ . تحقيق : شعيب الأرناؤوط .
مؤسسة الرسالة : بيروت ١٤٠٧هـ .

سنن أبي داود : لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت

- ٢٧٥هـ . تحقيق : محمد محيي الدين . دار الفكر (بدون) .
- سنن البيهقي الكبرى : لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي ت : ٤٥٨هـ . تحقيق : محمد عطا . مكتبة دار الباز : مكة المكرمة ١٤١٤هـ .
- سنن الترمذي (الجامع الصحيح) : لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي ت : ٢٧٩هـ . تحقيق : أحمد شاكر . دار إحياء التراث العربي : بيروت (بدون) .
- سنن الدارقطني : لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي ت : ٣٨٥هـ . تحقيق : السيد المدني . دار المعرفة : بيروت ١٣٨٦هـ .
- سنن الدارمي : لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ت : ٢٥٥هـ . تحقيق : فواز زمزلي . دار الكتاب العربي : بيروت ١٤٠٧هـ .
- السنن الكبرى : لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت : ٣٠٣هـ . تحقيق : عبد الغفار البنداري وسيد حسن . دار النشر : دار الكتب العلمية : بيروت ١٤١١هـ .
- سنن ابن ماجه : لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت : ٢٧٥هـ . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر : بيروت (بدون) .
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون : لعلي بن برهان الدين الحلبي ت : ١٠٤٤هـ . دار المعرفة : بيروت ١٤٠٠هـ .
- السيرة النبوية : لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ت : ٢١٣هـ . تحقيق : طه عبد الرؤوف . دار الجيل : بيروت ١٤١١هـ .
- شرح ديوان المتنبي : لأبي البقاء العكبري . تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري . دار المعرفة : بيروت (بدون) .
- شرح معاني الآثار : لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي

ت : ٣٢١هـ . تحقيق : محمد النجار . دار الكتب العلمية : بيروت
١٣٩٩هـ .

صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) : لأبي عبد الله محمد
بن إسماعيل البخاري ت : ٢٥٦هـ . تحقيق : مصطفى البغا . دار ابن
كثير : بيروت ١٤٠٧ هـ .

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان : لأبي حاتم محمد بن حبان بن
أحمد التميمي البستي ت : ٣٥٤هـ . تحقيق : شعيب الأرناؤوط . مؤسسة
الرسالة : بيروت ١٤١٤ هـ .

صحيح ابن خزيمة : لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي
النيسابوري ت : ٣١١هـ . تحقيق : محمد الأعظمي . المكتب الإسلامي :
بيروت ١٣٩٠ هـ .

صحيح مسلم : لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري
ت : ٢٦١هـ . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي
: بيروت (بدون) .

صحيح مسلم بشرح النووي : لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري
النووي ت : ٦٧٦هـ . دار إحياء التراث العربي : بيروت ١٣٩٢هـ .
العجاب في بيان الأسباب : لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي
بن حجر ت : ٨٥٢هـ . تحقيق : عبد الحكيم الأنيس . دار ابن الجوزي :
الدمام ١٩٩٧هـ .

الفائق في غريب الحديث : لمحمود بن عمر الزمخشري ت :
٥٣٨هـ . تحقيق : علي البجاوي ومحمد أبو الفضل . دار المعرفة : لبنان
: الطبعة الثانية (بدون) .

فتح الباري شرح صحيح البخاري : لأبي الفضل أحمد بن علي بن
حجر العسقلاني الشافعي ت : ٨٥٢هـ . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

دار المعرفة : بيروت ١٣٧٩ هـ .

القاموس المحيط : لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ت :
٨١٧ هـ . تحقيق : محمد العرفسوسي . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٤٠٦ هـ .

كتاب السبعة في القراءات : لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن
مجاهد التميمي البغدادي ت : ٣٢٤ هـ . تحقيق : د/ شوقي ضيف . دار
المعارف : القاهرة ١٤٠٠ هـ .

لسان العرب : لمحمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري ت :
٧١١ هـ . الطبعة الأولى : دار صادر : بيروت (بدون) .

المجتبى من السنن (سنن النسائي الصغرى) : لأبي عبد الرحمن
أحمد بن شعيب النسائي ت : ٣٠٣ هـ . تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة .
مكتب المطبوعات الإسلامية : حلب ١٤٠٦ هـ .

مختار الصحاح : لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي . ت :
٧٢١ هـ . تحقيق : محمود خاطر . مكتبة لبنان ناشرون : بيروت ١٤١٥ هـ .

ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان : لأبي
المعالي محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الألوسي ت :
١٣٤٢ هـ . المكتب الإسلامي : بيروت ١٩٧١ هـ .

المستدرك على الصحيحين : لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم
النيسابوري ت : ٤٠٥ هـ . تحقيق : مصطفى عطا . دار الكتب العلمية :
بيروت ١٤١١ هـ .

مسند أحمد بن حنبل : لأبي عبد أحمد بن حنبل الله الشيباني ت :
٢٤١ هـ . مؤسسة قرطبة : مصر (بدون) .

مسند الحارث (بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث بن أبي أسامة) :
لحافظ نور الدين الهيثمي ت : ٢٨٢ هـ . تحقيق : حسين الباكري . مركز
خدمة السنة والسيرة النبوية : المدينة المنورة ١٤١٣ هـ .

مسند الشاميين : لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ت : ٣٦٠هـ . تحقيق : حمدي السلفي . مؤسسة الرسالة : بيروت ١٤٠٥ هـ .

مسند الشهاب : لأبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي ت : ٤٥٤هـ . تحقيق : حمدي السلفي . مؤسسة الرسالة : بيروت ١٤٠٧ هـ .

مسند الطيالسي : لأبي داسليمان بن داود ود الفارسي البصري الطيالسي ت : ٢٠٤هـ . دار المعرفة : بيروت (بدون) .

مسند عبد بن حميد (المنتخب من مسند عبد بن حميد) : لأبي محمد عبد بن حميد بن نصر ت : ٢٤٩هـ . تحقيق : صبحي السامرائي . مكتبة السنة : القاهرة ١٤٠٨ هـ .

مسند أبي يعلى : لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي ت : ٣٠٧هـ . تحقيق : حسين أسد . دار المأمون للتراث : دمشق ١٤٠٤ هـ .

مصنف ابن أبي شيبة (الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار) : لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ت : ٢٣٥هـ . تحقيق : كمال الحوت . مكتبة الرشد : الرياض ١٤٠٩ هـ .

مصنف عبد الرزاق (المصنف) : لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت : ٢١١هـ . تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي . المكتب الإسلامي : بيروت ١٤٠٣ هـ .

معاني القرآن الكريم : لأبي جعفر النحاس ت : ٣٣٨ هـ . تحقيق : محمد علي الصابوني . جامعة أم القرى : مكة المكرمة ١٤٠٩ هـ .

المعجم الكبير : لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت : ٣٦٠هـ . تحقيق : حمدي السلفي . مكتبة العلوم والحكم : الموصل ١٤٠٤ هـ .

المفردات في غريب القرآن : لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ت : ٥٠٢ هـ . تحقيق : محمد كيلاني . دار المعرفة .

بيروت (بدون) .

المنتقى من السنن المسندة : لأبي محمد عبد الله بن علي بن الجارود
النيسابوري ت : ٣٠٧هـ . تحقيق : عبد الله البارودي . مؤسسة الكتاب
الثقافية : بيروت ١٤٠٨ هـ .

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : لبرهان الدين إبراهيم بن عمر
البقاعي ت : ٨٨٥هـ الطبعة الأولى - مجلس دائرة المعارف العثمانية -
الهند ١٤٠٢هـ .

النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد بن
عبد الكريم بن الأثير الجزري - تحقيق : طاهر الزاوي - دار الفكر .
بيروت ١٣٩٩هـ .

بحث بعنوان

**مظاهر تكريم الإسلام للمرأة
في ضوء القرآن الكريم**

إعداد الدكتورة

هناء عبد المحسن محمود ماضي

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

۱۴۲۶ - ۱۴۲۷

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا تقدر له ولياً مرشداً.

وبعد

فإن المرأة لم تبزغ شمس إنسانيتها ، وتقرير حقوقها الطبيعية إلا ببزوغ شمس الإسلام ، ومع فجر رسالته الذي بدد ظلام الجاهلية، بدأت المرأة تستشعر نسيم الرحمة ، وتعيش عصر سعادتها ، حيث رسول الإنسانية ﷺ الذي بعث رحمة للعالمين يقرر لها في دنيا الناس دوراً ورسالة، ويدفع بمكانها ومكانتها لتعيش أما زوجة وأختاً وابنة ، ولم تجد المرأة نصيراً ومعيناً وحامياً لإنسانيتها وكمال رشدتها. كما لم تحظ بمساواة عادلة إلا في ظل رسالة الإسلام الذي جاء ليعلي من قيمتها كإنسان له وزنه وقدره في هذا الوجود.

فالإسلام قد أكرم المرأة إكراماً ليس بعده إكرام ، وأعزها وأفضلها ووضعها في أنسب مكان. وهذا البحث المتواضع سوف أبين فيه قيمة المرأة في الإسلام المتمثل في القرآن الكريم مع بيان ما عانتها المرأة قبل الإسلام وفي ظل الثقافات المختلفة.

خطة البحث:

هذا البحث قد اشتمل على أربعة فصول ، وخاتمة.
❀ الفصل الأول: [المرأة عبر الثقافات المختلفة] .

ويشمل على عدة نقاط:

- (١) المرأة عند اليونان.
- (٢) المرأة عند الرومان.
- (٣) المرأة عند اليهود.
- (٤) المرأة عند الفرس.
- (٥) المرأة عند الصينيين.
- (٦) المرأة عند الهنود.
- (٧) المرأة في العصور المسيحية.
- (٨) المرأة العربية في الجاهلية.
- (٩) المرأة في الإسلام.
- (١٠) الرد على المتعصبين الذين يدعون أن الإسلام لم ينصف المرأة.

❀ الفصل الثاني: [المرأة في القرآن والسنة] .

وقد اشتمل على عدة مباحث.

الأول: الإنسانية.

الثاني: النصوص التي ساوت بين الرجال والنساء في أصل التكليف.

الثالث: النصوص التي ساوت بين الرجال والنساء في الجزاء.

الرابع: النصوص التي توصي الرجال بالنساء والأهل.

الخامس: المرأة وعملها في دعوات الرسل.

السادس: القرآن الكريم وصيانة كرامة المرأة المسلمة.

السابع: قيمة المرأة في نظر القرآن الكريم.

الثامن: المرأة ونصرة الإسلام.

التاسع: الإسلام يمنع جميع أنواع العنف ضد المرأة .

العاشر: تحديد صلاحيات المرأة المسلمة .

الحادي عشر: المرأة في الحديث الشريف.

❀ الفصل الثالث: [حقوق المرأة في الإسلام].

ويشتمل على عدة مباحث:

الأول: المساواة بين الرجل والمرأة في الأصل والخلق والتكوين.

الثاني: المساواة بين الرجل والمرأة في الحق في الحياة.

الثالث: المساواة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية.

الرابع: حق المرأة في إطار الأسرة.

الخامس: حق المرأة في التعليم والحفاظ على التراث العلمي.

السادس: حق المرأة في العمل.

السابع: حق المرأة في استقلال الذمة المالية.

الثامن: حق المرأة في الاحتفاظ باسمها بعد الزواج.

التاسع: حق المرأة في المشاركة السياسية.

العاشر: حق المرأة في تولي المناصب القضائية .

الحادي عشر: الحقوق الغير المتساوية بين الرجل والمرأة.

❀ الفصل الرابع: [الشبهات حول المرأة المسلمة والرد

عليها].

وقد اشتمل على عدة شبهات:

الأولى: أنها كم مهمل ولا قيمة لها وليس لها أي دور اجتماعي:

الثانية: تراث نصف الرجل.

الثالثة: شهادتها بنصف شهادة الرجل.

الرابعة: تعدد الزوجات.

الخامسة: بعض الأحكام القاسية.

❀ الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج.

الفصل الأول المرأة عبر الثقافات المختلفة

- ❖ المرأة عند اليونان
- ❖ المرأة عند الرومان
- ❖ المرأة عند اليهود
- ❖ المرأة عند الفرس
- ❖ المرأة عند الصينيين
- ❖ المرأة عند الهنود
- ❖ المرأة في العصور المسيحية
- ❖ المرأة العربية في الجاهلية
- ❖ المرأة في الإسلام (الإسلام أنصف المرأة الإنصاف كله)
- ❖ الرد على المتعصبين الذين يدعون أن الإسلام لم ينصف المرأة

مقدمة

لم يترك أعداء الإسلام باباً من أبواب الطعن في الإسلام إلا وولوجه، ولم يتركوا شبهة - في نظرهم - تكون موضعاً لإثارة التشكك في الإسلام إلا وتحدثوا فيها.

ولم يتوقف طوفان مهاجمة الإسلام الذي يصنعه المبطلون والمشككون من خصوم هذا الدين منذ ظهور الإسلام وحتى الآن، وبذلوا أقصى جهدهم في التنقيب في مصادر الدين الإسلامي ومبادئه وأحكامه وتشريعاته عليهم يجدون فيها ثغرة ينفذون منها إلى تحقيق غرضهم في هدم هذا الدين الحنيف الذي ختم الله به الرسالات السماوية والذي ارتضاه - سبحانه - ليكون آخر حلقة في سلسلة اتصال السماء بالأرض.

وما دام الدين الإسلامي هو خاتم الديانات السماوية إلى أن تقوم الساعة، فمعنى ذلك أن الله - جل شأنه - وهو العليم الخبير قد ضمنه كل ما تحتاجه البشرية في حياتها، وأن تعاليمه وتشريعاته صالحة لكل زمان ومكان، وإن بدا للبعض قصور حول بعض التشريعات والأحكام، فإن العيب ليس في هذه التشريعات والأحكام، وإنما العيب في عدم فهمنا لها الفهم الصحيح السليم.

وموضوع دور المرأة في الإسلام وتصور البعض أن الإسلام لم يعطها حقها كاملاً، وأن الإسلام فضل الرجل على المرأة موضوع قديم، غير أن خصوم الدين الإسلامي يحاولون تجديد إثارته بين الحين والحين، وأن يُظهروه كل مرة في ثوب جديد بغية الوصول إلى ما يتمنون. قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ

نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾.

ولم يقصر علماء المسلمين على مدى تاريخ الإسلام منذ ظهوره وحتى الآن في القيام بواجبهم في الرد على هذه الشبهات وتفنيدها، وبيان الأحكام الصحيحة فيها. وإذا كنا نتحدث عن المرأة في الإسلام فإنه من الإنصاف للحقائق كلها، من تاريخية واجتماعية وسياسية وثقافية، أن نعرض لمكانة المرأة في المجتمعات غير الإسلامية على مر الأزمنة - في شيء من الإيجاز - وليس ذلك من قبيل الموازنة أو المقارنة، وإنما من باب وضع الأمور في نصابها، ذلك أن الواقع التاريخي يقول: أن المرأة لم تلق من الذل والهوان قدر ما لقيته خارج النطاق الإسلامي، فكانت المرأة أحقر شأنًا من الرقيق حتى بلغ الأمر بالآباء إلى حد التخلص من بناتهم في قسوة ووحشية لا عهد للبشر لها من قبل إذ كانوا يؤذونهن وهن على قيد الحياة. وقد ظلت هذه العادات الوحشية سائدة إلى أن جاء القرآن الكريم فندد بها وأغلظ على مرتكبيها، وتوعدهم بالويل والثبور والعذاب المقيم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٢﴾.

(١) سورة التوبة، آية (٣٢).

(٢) سورة التكوين، آيات (٧-٨).

(١) المرأة عند اليونان:

كانت المرأة عند اليونانيين القدامى - وهم أكثر الدول تمدنا وأخذاً بأسباب الحضارة - مسلوقة الحرية، معدومة المكانة في كل ما يتصل بالحقوق الشرعية بل أن فيلسوفاً كبيراً مثل أرسطو كان يعيب على أهل أسبرطة أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ويمنحونهن بعض الحقوق التي تفوق قدراتهن^(١).

وكانت المرأة في التاريخ اليوناني الأول قعيدة البيت محصنة عفيفة، لكنها محرومة من الثقافة، لا تسهم في الحياة العامة بقليل ولا كثير، تنحصر مهمتها في الحياة: تحقيق مطالب الزوج وإنجاب الأطفال، وهي مع ذلك مهينة ذليلة "وإذا وضعت ولداً دميماً قضاوا عليها"^(٢)، وأثر عن أفلاطون أنه دعى إلى شيوع النساء، وإلغاء نظام الأسرة^(٣).

فالثقافة اليونانية في إبان ازدهارها لم تعط المرأة شيئاً تعلق به عن مقام الأنثى في المجتمعات البدائية.. والمثل الأعلى الذي رشحها له خيال أفلاطون في مدينته الفاضلة أن تعتبرها الأمة ملكاً مشاعاً تنجب النسل لمن يختارها من الرجال.. فالنساء في مدينة أفلاطون الفاضلة حظيرة مباحة من الإناث تؤدي وظيفة الولادة كما تؤديها إناث الحيوان^(٤). ويصور لنا أحد

(١) مكانة المرأة في الإسلام، فوزي الزفزاف، مجلة الأزهر، حـ، السنة (٧٧)، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، القاهرة، ص ٥٨٧.

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون: تعريب: عادل زعيتر، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٤٩٠.

(٣) المرأة المصرية بين الماضي والحاضر، أحمد طه محمد: مطبعة دار التأليف، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٢٦.

(٤) المرأة في القرآن، عباس محمود العقاد: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت، ص ١٠٦-١٠٧.

خطباء اليونان - ديموستين - أهم مظاهر دور المرأة إذ يقول: إننا نتخذ العاهرات للذة، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين^(١).

وكانت المرأة عند الأثينيين مدينة الحكمة والفلسفة والطب والعلم، تباع وتشترى كأنها سلعة من السلع التجارية، وكانوا يعدونها رجساً من عمل الشيطان.

ولم يسمحوا لها إلا بتدبير شئون البيت وتربية الأطفال. وكان الرجل في أثينا يسمح له أن يتزوج أي عدد يريد من النساء بلا قيد ولا شرط. أما الرجل في أسبرطة من اليونان القديمة فكان لا يسمح له أن يتزوج من امرأة واحدة إلا عند الضرورة^(٢). وكان الأثيني يتفاخر بوجود ثلاث طبقات من النساء في نطاق أمته، طبقتان منها تشكلان الزوجات الشرعيات ونصف الشرعيات، والباقيات بطبيعة الحال وهن الثلث يشكلن طبقة البغايا^(٣).

وكانت البنات يتعلمن الرقص والغناء، وكان رأي المشرع (ليكرجس) أن تظهر الفتيات من كل صفات الأنوثة المكتسبة كالحياء، ولذلك كن يرقصن عاريات تماماً أما الرجال. وبإلقاء نظرة عامة على التربية الأسبرطية تبين أنها استغلت الأفراد لخدمة الدولة كل الاستغلال، فالولد يُعد ليكون حامياً للدولة ومدافعاً عنها، والبنات تُعد لتتجيب الأبناء الأشداء المحاربين من أجل الدولة، حتى أن الرجل المسن كان يعير زوجته لغيره

(١) الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، البهي الخولي: ط٤، دار القلم، الكويت،

١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٢.

(٢) عظمة الإسلام، محمد عطية الإبراشي: ح٢، ص ١٨١.

(٣) مكانة المرأة في الإسلام، فوزي الزفراف: مرجع سابق، ص ٥٨٧.

من الرجال حتى تنجب للدولة أطفال أقوياء^(١). ومن ثم قالتربية الاسبرطية أنتجت نساء تجردن من كثير أنوثتهن وكن خشنات الطبع قاسيات وإن كانت قد تساوت بالرجل وحقت مكانتها في مجتمعهما، ولكنها كانت في طباعها أقرب إلى الرجل منها إلى طبع الأنثى، وهذا بطبيعة الحال مسخ للطبيعة الإنسانية التي فطرنا الله سبحانه وتعالى عليها^(٢).

فإذا رجعنا إلى القانون اليوناني عند الإغريق لوجدنا أن المرأة كانت مسلوبة الحرية والأهلية ولا تتمتع بأية حقوق مدنية، فقد كانت قاصرا طوال حياتها، خاضعة لسلطة الرجل الأب أولاً ثم الزوج ثم الابن إذا ترملت، فالرجل هو الذي يتصرف في أموالها ويديرها دون أن يكون لها حق مراجعته ولم يكن من حقها الحصول على الطلاق ولم يكن لها الحق في الإرث^(٣).

(١) محمد العدوي وآخرون: محاضرات في تاريخ التربية ونظام التعليم في مصر، ج ١ كلية التربية، جامعة الزقازيق، ١٩٨٨، ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٨٤.

(٣) فوزية العشماوي: الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وأثارها على المجتمع، المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المحور الرابع: "نظرة الإسلام إلى المرأة" المنعقد بالقاهرة في الفترة من ٨-١١ ربيع الأول ١٤٢٦هـ/ ١٧-٢٠ إبريل ٢٠٠٥م، ص ١.

(٢) المرأة عند الرومان:

ولم تكن المرأة عند الرومان بأحسن حالاً من أختها عند اليونان، فقد كان تعدد الزوجات تقليداً من تقاليد الشرف والامتياز، ولم يزل أمر الانتصارات المصحوبة بألوان الترف والفخامة أن جعلت من قدسية الزواج مجرد كلمة لا معنى لها عند الرومان، وأصبح تعدد الزوجات أمراً قانونياً. بل تطور في المجتمع إلى أن أصبح التسري واتخاذ العشيقات الكثيرات العدد تعترف به الدولة رسمياً.

والنتيجة الحتمية لذلك كانت ضياع المرأة ثم انزلاقها إلى مهاوي البيع والشراء^(١).

وتساهل رجال الدين، وسمحوا للراغبين في التزوج بأكثر من واحدة بتحقيق رغباتهم ومطالبهم. فكان الرئيس الديني يعطي ترخيصاً بذلك لمن يريد. وعلى هذا استمر الرومانيون على عادتهم من تعدد الزوجات. وكانت المرأة عندهم تعامل معاملة القاصر.

وأقرت المسيحية ما أقرته ديانة موسى عليه السلام في الزواج، واستمر رجال الكنيسة يجيزون تعدد الزوجات حتى القرن السابع عشر. ولم يمنعوا التعدد إلا بعد هذا القرن^(٢).

وفي ظل القانون الروماني، فقد كانت المرأة خاضعة تماماً لسلطة رب الأسرة Pater Familias حيث كان رب الأسرة يتمتع بسلطة كاملة، سلطة ملك وليس حماية فقط على زوجته وأولاده (بنين وبنات)، بل وعلى

(١) مكانة المرأة في الإسلام، فوزي الزفزاف: ص ٥٨٨.

(٢) عظمة الإسلام، محمد عطية الإبراشي: ص ١٨٢.

زوجات أبنائه وعلى أحفاده وحفيداته، فقد كان هو مالك كل أموال الأسرة ولم تكن للمرأة أية أهلية مالية ولا أي حق من حقوق الملكية، ولم يتغير الحال إلا في قانون جوستنيان المتوفى عام ٥٢٥م. وقد نص قانون جوستنيان على أنه يشترط لصحة أي تعاقد أهلية حقوقية وأهلية فعلية واقعية. ويعتبر فاقد الأهلية: العبيد، الأجانب، الأولاد الصغار (القصر) والبنات والسيدات البالغات والزوجات الخاضعات لسلطة رئيس الأسرة^(١).

فكان رب الأسرة هو رئيسها الديني وحاكمها السياسي ومديرها الاقتصادي، أما المرأة فلم يكن لها إلى جانبه شيء إذ لم تكن لها أهلية أو شخصية: "وكانت المرأة في التاريخ الروماني القديم - باسم القانون - ناقصة الأهلية في إمضاء العقود أو عمل وصية أو أداء شهادة..."^(٢)، "وإذا تزوجت أبرمت مع زوجها عقد يسمى "اتفاق السيادة" أي: سيادة الزوج عليها"^(٣).

وما أحسب أن المرأة الرومانية في ظل هذه الأوضاع المشينة التي تعد الأنوثة فيها سببًا من أسباب انعدام الأهلية - كحدثة السن والجنون - ما أحسب إنها كانت ذات عمل كريم أو دورًا إصلاحيًا رشيد في المجتمع، سوى أداء الوظيفة الفطرية "الإنجاب" وما تستتبعها من وظائف أخرى، إلا ما كان في بعض الولايات الرومانية كمصر حيث استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق.م، حيث يصف لنا أحد المؤرخين - هيرودوت - أن النساء في مصر، كن يخرجن إلى الأسواق ويتعاطين التجارة.. ويحملن الأحمال

(١) الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وآثارها على المجتمع، فوزية العشماوي: ص ١.

(٢) المرأة المصرية بين الماضي والحاضر، أحمد طه محمد .

(٣) عمل المرأة وموقف الإسلام منه، عبد الرب نواب الدين: ط ٢، دار الوفاء للطباعة والنشر

والتوزيع، المنصورة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص ٣٠.

على ظهورهن^(١).

كما انفردت الحضارة المصرية القديمة بإكرام المرأة وتخويلها حقوقاً شرعية قريبة من حقوق الرجل، فكان لها أن تملك وأن تتولى أمر أسرتها في غياب من يعولها^(٢).

أما عن تعليم البنات، فالشواهد تؤكد أنه سُمح للبنات في نطاق ضيق جداً أن تدخل المدرسة الابتدائية، ولكنها قبل ظهور هذه المدرسة قُبعت في عقر الدار تتعلم عن طريق المحاكاة والممارسة أصول التدبير المنزلي وتربية الأطفال، وعهد إليها بعد الزواج بكل ما يتعلق بالبيت والإشراف على الخدم، ثم يذهب البنون في سن السابعة إلى المدرسة، وتستمر الأم ترعى نمو أبنيتها، على أن بنات الأرستقراطيين كانت لهن ميزة للتقدم في الآداب والفنون تحت إشراف مربين يعلموهن في منازلهن^(٣).

(١) المرأة المصرية بين الماضي والحاضر، أحمد طه محمد: ص ١٨-١٩.

(٢) المرأة في القرآن، عباس محمود العقاد: ص ٥٠.

(٣) سعد محمد مرسى: تطور الفكر التربوي، ط ٧، عالم الكتب، (القاهرة) ١٩٨٤، ص ١٨٠.

(٣) المرأة عند اليهود:

كان بعض اليهود يعدّون المرأة اليهودية في منزلة خادم- وكان الأب يسمح له أن يبيع ابنته وهي صغيرة، ويتسلم ثمنها. وكانت الفتاة اليهودية لا ترث شيئاً من أبيها إلا في حالة واحدة وهي: إذا لم يترك الأب أحداً من الأبناء بعد وفاته، فإذا كان له أبناء حرمت ابنته الميراث. وكان الرجل من بني إسرائيل يتزوج أي عدد من النساء كما يريد، من غير تقييد أو حدود^(١).

والغريب أن الذين يحاربون نظام الإسلام في السماح للرجل بالزواج مرة أخرى في ظروف معينة يعانون من تفكك أسري وانتشار الفاحشة وإباحة تعدد الخيلات (العشيقات) بلا عدد ولا حد، فالخليلة لا تتمتع بحقوق الزوجة، إضافة إلى ما يترتب على الأمر من خيانة الزوجة وإسقاط حقوقها وعدم الاعتراف بالخليلة وأولادها. فالخليلة وحدها تتحمل ثمن أجرة الإجهاض أو تعيش إما غير متزوجة (الأم العازبة) لترعى طفلها الغير الشرعي^(٢)، وحكى القرآن الكريم في سورة الأنعام حيث قال تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وكتب اليهود المقدسة تعتبر المرأة مجرد متعة جسدية، والمرأة في التلمود وهو الكتاب الثاني من كتب اليهود بعد التوراة يقول: إن المرأة من

(١) عظمة الإسلام ، محمد عطية الإبراشي: ص ١٨٣.

(٢) المرأة بين إنصاف الإسلام وشبهات الآخر، علي جمعة محمد: ص ٢٨. المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٧-٢٠ أبريل ٢٠٠٥م) المنعقد بالقاهرة ، المحور الرابع، نظرة الإسلام للمرأة.

(٣) سورة الأنعام، آية (٨١).

غير بني إسرائيل ليست إلا بهيمة لذلك، فالزنا بها لا يعتبر جريمة لأنها من نسل الحيوانات. والغريب في ذلك أن شهادة مائة امرأة تعادل شهادة رجل واحد عندهم^(١).

فكانت المرأة عند اليهود إذا أنجبت فتاة تظل نجسة لمدة ٨٠ يوماً، أما إذا أنجبت ولدا فتكون نجسة فقط ولمدة ٤٠ يوماً، أما خلال دورتها الشهرية فتعزل هذه المدة وتخرج من البيت ولا يختلط بها أصلاً لا في طعام ولا شراب ولا حتى في مجالسة، ويصفها فلاسفتهم بأنها مسئولة عن كل خطايا الوجود، وهي السبب في كل مصائب الدنيا، وهي وحدها خلف كل ما يقع فيه الرجال من أفعال شريرة، وهي المحرض الأول لجرائم الملوك والقادة، بل هي صديقة للشيطان في حوادث القتل، ومن ثم فهي لعنة، ويحق للأب أن يبيعها إذا كانت قاصراً، وجاء في التوراة، أن: "المرأة أمرٌ من الموت وأن الصالح أمام الله ينجو منها"^(٢).

(١) تكريم الإسلام للمرأة، المرأة بين روتينين، إبراهيم أبو محمد: المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٧-٢٠ إبريل ٢٠٠٥)، المنعقد بالقاهرة، المحور الرابع: نظرة الإسلام للمرأة، ص ٣٦.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٦.

(٤) المرأة عند الفرس:

كانت المرأة عند الفرس قبل الإسلام ينظر إليها نظرة كلها احتقار، وقد استمرت مهضومة الحق، مجهولة القدر، مظلومة في المعاملة، وذلك أنها لم تكن تتميز عن الأمة المملوكة في شيء، تظل طيلة حياتها سجينة بين جدران في كثير من الأحيان، هذا فضلا عن الخروج في التعامل معها عن حدود المألوف في عالم الإنسان، بل في بعض عوالم الحيوان. فقد أبيح الزواج بالأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، أي كان الزواج من المحارم جائزا^(١). ذلك أن المرأة ينظر إليها نظرة احتقار، حتى أنقذها الإسلام وأعطاهما حقوقها، وجاء الرسول الكريم ﷺ بالقرآن الكريم، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْعُرْفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ^٢ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٣)﴾. وقال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ^(٤)﴾.

ويزداد امتهان المرأة في المجتمع الفارسي القديم بعدا عن الإنسانية، وذلك بأن تنفي الأنثى في فترة الطمث إلى مكان بعيد خارج المدينة، ويظل مقضيا عليها بأن تقيم في خيمة تعرف باسم "داخمى" ولا يجوز لأحد مخالطتها إلا الخدم الذين يقدمون لها الطعام، وحتى هؤلاء كانوا يضعون لفائف من القماش حول أنوفهم وأذانهم وأيديهم خشية النجاسة إذا مسوا المرأة أو لمسوا خيمتها. والمرأة الفارسية فضلا على ذلك كله كانت تحت سلطة الرجل

(١) المرأة والإسلام، أحمد ذكي تفاحة: دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ص ١٤.

(٢) سورة البقرة، آية (٢٢٨).

(٣) سورة النساء آية (٣٤).

المطلقة، يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة^(١).

وللمرأة حقوقاً في المجتمع الفارسي، حيث ينظر إليها على أنها إنسان ضعيف لا تستطيع حمل أعباء الحياة، فيجب أن تخضع لولاية الرجل في حياتها، ولم يكن لها استقلال في رأي ولا تملك حرية التصرف، وليس لها أن تستقل بعمل ينسب إليها، وإذا قامت بعمل حسن كان نفعه والثناء عليه يرجع للولي، وإذا جاءت بعمل قبيح تتحمل وحدها أعباءه والعقاب عليه^(٢).

(٥) المرأة عند الصينيين:

ولم تكن المرأة عند الصينيين بأوفر حظاً منها عند غيرها ممن سبقوها، فقد كان من حق الزوج أن يسلب كل حقوق زوجته ويبيعها كجارية، كما كان يحرم على الأرملة الزواج بعد وفاة زوجها، وكان الصينيون ينظرون إلى المرأة على أنها معتوهة، لا يمكنها قضاء أي شأن من شؤونها إلا بتوجيه من الرجل^(٣). ونستشف من رسالة قديمة كتبها إحدى سيدات الطبقة العليا، وضع المرأة ومركزها ودورها في المجتمع، تقول: "تشغل نحن النساء آخر مكان في الجنس البشري، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال"^(٤). وانزوى دورها حتى أصبحت تباع للعمل أو تحجز لسداد الديون أو تكون دمية يتسلّى بها الرجال^(٥).

(١) المرأة والإسلام، أحمد ذكي تقاحة: ص ١٥.

(٢) المرجع سابق، ص ١٣.

(٣) تكريم الإسلام للمرأة، إبراهيم أبو محمد: ص ٣٥.

(٤) الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، البهي الخولي: ط ٤، دار القلم، الكويت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣، ص ١٠.

(٥) عمل المرأة وموقف الإسلام منه، عبد الرب نواب الدين: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط ٢، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، ص ٣١.

(٦) المرأة عند الهنود:

إذا ما انتقلنا إلى الأمم الشرقية فإن الأمر لم يكن أفضل حالاً منه في البيئة الأوربية، إن لم يكن أكثر سوءاً، إذ لم يكن هناك أي تحديد لعدد الزوجات عند اليهود، ولم يكن للمرأة أي حق في المعاملات ولا حق لها في الحياة بعد موت زوجها، فإذا توفي الزوج كان محتوماً عليها أن تموت يوم موته وأن تحرق وهي حية مع جثته على موقد واحد^(١). فما عسى أن تكون المرأة فاعلة في المجتمع الهندي، وفي شرائع الهندوس: "ليس المصير المقدر، والريح، والموت والجحيم، والسّم والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة"^(٢).

وكما جاء في شريعة الهندوس (شريعة مانو) أن المرأة تخضع في طفولتها لأبيها، وفي شبابها لزوجها، وفي تأميمها لأبنائها إذا كان لها أبناء، وإلا فإنها لأقرباء بعلمها، ولا يجوز ترك أمر لها، وتحدد هذه الشريعة مهام المرأة فتقول: "واجبات النساء هي أن يلدن ويربين أولادهن ويديرن أمور منازلهن"^(٣).

والعجيب أن نظام السماح للرجل بالزواج بأكثر من واحدة في ظروف معينة يهاجم من قبل الغرب هجوماً شرساً، وفي نفس الوقت تلك الحضارة الغربية تغض الطرف عن شرائع أرضية تهين المرأة فمثلاً في الهند المرأة تعامل معاملة قاسية لا يتصورها إنسان ويتم تحميلها بالأعباء المالية للزواج، ومن يتابع الصحف اليومية الهندية، وأخبار ما تنتشره عن مآسي انتحار الزوجات أو حرقهن من قبل أزواجهن وأسر أزواجهن، بسبب عجز الزوجة

(١) عظمة الإسلام، محمد عطية الإبراشي: ص ١٨٤.

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص ٤٩٢.

(٣) عمل المرأة وموقف الإسلام منه، عبد الرب نواب الدين: ص ٣١-٣٢.

عن الوفاء بالتزامها بثمان زواجها (الجهيز). سوف يرى صورة من صور الظلم الناشئ عن تدني قيمتها. ولكن هذا كله لا يحتاج إلى هجوم لأن الحسابات ليست خالصة للإنصاف العلمي والوصول إلى الحقائق، وإنما هي محض طغيان وافتراءات على تلك الشريعة الإسلامية الغراء^(١).

وفي شرائع الهندوس: إذا مات زوج المرأة يحكم عليها بالموت حرقاً، أما إذا كانت المرأة عاقراً وليس لها قدرة على الإنجاب فالويل لها، إنها حينئذ تتحول إلى امرأة (قطاع عام) فيحق للرجال أن يعاشروها وإن كانت متزوجة وكانت النساء تحسب جزء من غنائم الحرب وبعد النصر تقسم هذه الغنيمة بين القادة العسكريين^(٢).

(٧) المرأة في العصور الوسطى المسيحية:

وبالنسبة لنظرة المسيحية إلى المرأة فقد ورثت المسيحية تقاليد مختلفة تتعلق بوضع المرأة وطبيعتها ومكانتها، كانت المرأة حتى نهاية القرن الثامن عشر تعتبر ملكاً للزوج، يمكن أن تباع، مأمورة بطاعة زوجها، وتغطية رأسها في الكنيسة، ونظر إليها باعتبارها فخ نصبه الشيطان لتدمير الروح ومع هذا فقد نظر إليها على أنها مساوية للرجل في الناحية الروحية والدينية. واهتمت المسيحية بقدسية الزواج وكان ذلك مستمداً من تقديسهم "العذراء مريم" ولكن تأخر دخول المرأة إلى الحياة العامة في أوروبا المسيحية. والإقطاع عمل على تحرير المرأة ودخولها ميدان العمل، وقال القديس "توماس الاكوينى" إن المرأة يجب أن تكون خاضعة للرجل وهذا بحكم ضعفها الطبيعي، وأن الأبناء يجب أن يحبوا آباءهم أكثر من أمهاتهم.

(١) المرأة بين إنصاف الإسلام وشبهات الآخر، على جمعة محمد ص ٢٨.

(٢) تكريم الإسلام للمرأة، إبراهيم أبو محمد: ص ٣٥.

وقد دخلت المرأة مجال الطب في العصور الوسطى وبخاصة مجال التمريض، وعلى هذا فقد ساعدت هذه النظرة للمرأة على كبتها، لذلك لم تنتج أوروبا امرأة ذات عظمة عقلية أو اشتهرت لعقليتها الكبيرة^(١).

وفي ظل المسيحية كانت المرأة طبقاً للقديس تيرتوليان: "مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان"، وفي القرن الخامس الميلادي قرر مجمع ما كون بعد دراسة مسألة المرأة وهل هي مجرد جسم لا روح فيه أم لها روح، "إن المرأة خلقت من الروح الناجية (من عذاب جهنم) ما عدا مريم أم المسيح".

وبعد دخول أوروبا في الدين المسيحي ظلت الشعوب الأوروبية تشك في طبيعة المرأة وتعتبرها كائناً مختلفاً عن الرجل فقد عقد الفرنسيون في القرن السادس الميلادي مؤتمراً عام ٥٨٦م لدراسة قضية المرأة وهل هي إنسان أم غير إنسان وخلصوا إلى نتيجة:

"إن المرأة إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب".

وبالرغم من التقدم الذي عرفته فرنسا في عصر النهضة وبعد الثورة الفرنسية إلا أن القانون الفرنسي ظل يعتبر المرأة قاصراً، وقد نص قانون نابليون على أن المرأة: "ليست أهلاً للتعاقد دون رضا الوصي عليها إن كانت غير متزوجة أو الزوج إن كانت متزوجة" ونص هذا القانون على أن القاصرين هم: "الصبي والمجنون والمرأة"، وظل قانون نابليون هذا معمول به في فرنسا وفي كثير من الدول الأوروبية حتى عام ١٩٣٨ حيث عدل هذا القانون في فرنسا واعتبر المرأة الفرنسية ذات شخصية قانونية فيما عدا بعض القيود على المرأة المتزوجة التي لا تزال حتى الآن تخضع لزوجها

(١) محاضرات في تاريخ التربية ونظام التعليم في مصر، محمد أحمد العدوي وآخرون،

في كثير من المعاملات المالية خاصة إذا كان نظام الزوجية هو نظام توحيد الأموال بين الزوجين، وتعتبر المرأة المتزوجة مسئولة عن ديون الأسرة وديون زوجها حتى الآن في فرنسا^(١).

فالمرأة في المسيحية قد منحت بعض الحقوق بناء على توجيهات السيد المسيح، لكن بولس كان يعتبر النساء أقل منزلة من الرجال، فهو القائل: "لا أسمح للمرأة أن تعلم ولا أن تغتصب السلطة - من الرجل - ولا تتسلط، وعليها أن تبقى صامته، لأن آدم كون أولاً، ثم حواء، ولم يكن آدم هو الذي انخدع بل المرأة انخدعت، فوقعت في المعصية" وجاء في انجيل متى: "من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعدة الزنا يجعلها تزني. ومن تزوج مطلقة فإنه يزني"^(٢).

وفي إنجلترا صدر أمر ملكي من هنري الثامن يحظر على المرأة قراءة الكتاب المقدس، ولم يكن للمرأة حتى عام ١٨٨٢ الحق في التملك. كما أن شخصية المرأة في إنجلترا محجوبة بشخصية زوجها ولم يرفع عنها هذا الحجر إلا بحلول عام ١٨٧٠، ثم صدر قانون عام ١٨٨٣ باسم ملكية المتزوجة وبمقتضاه رفع عنها هذا الحجر.

وفي إيطاليا أخرج قانون صدر عام ١٩١٩ المرأة من عدد المحجور عليهم. وفي ألمانيا وسويسرا عدلت القوانين الصادرة في أوائل القرن العشرين من قواعد الحجر على المرأة، وأصبح للزوجة مثل ما لزوجها من حقوق^(٣).

(١) الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وأثرها على المجتمع، فوزية العشماوي: ص ٢.

(٢) تكريم الإسلام للمرأة إبراهيم أبو محمد: ص ٣٧.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٧.

(٨) المرأة العربية في الجاهلية:

وإذا ما عرضنا للمجتمع العربي قبل الإسلام وجدناه لا يقل قسوة في معاملة المرأة وامتهانها عن المجتمعات الأخرى، إلا في حالات قليلة ومع بعض الحرائر من نساء سادات العرب. فكانت المرأة عند بعض العرب في الجاهلية تُعد جزءاً من ثروة أبيها أو زوجها. وكان ابن الرجل يرث أرملة أبيه بعد وفاته. وكان العرب قبل الإسلام يرثون النساء كرهاً، بأن يأتي الرجل (الوارث) ويلقي ثوبه على زوجة أبيه ثم يقول: ورثتها كما ورثت مال أبي، فإذا أراد أن يتزوجها تزوجها بدون مهر، أو زوجها لأحد عنده، وتسلم مهرها ممن يتزوجها أو حرم عليها أن تتزوج كي يرثها بعد موتها^(١). فجاءت الشريعة الإسلامية فمنعت هذا الظلم وهذا الإرث فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا^ط﴾^(٢).

ففي هذه الآية الكريمة نهى عن عادة الجاهلية من إرث الرجال نساء أقربائه، يفعل بهن ما يشاء.

وكان العرب في الجاهلية يمنعون النساء من الزواج، فالابن الوارث كان يمنع زوجة أبيه من التزوج، كي تعطيه ما أخذته من ميراث أبيه، والأب يمنع ابنته من التزوج حتى تترك له ما تملكه، والرجل الذي يطلق زوجته يمنع مطلقتها من الزواج حتى يأخذ منها ما يشاء، والزوج المبغض لزوجته يُسئ عشرتها ولا يطلقها حتى ترد إليه مهرها. فالعرب قبل الإسلام كانوا يظلمون المرأة ويتحكمون فيها فجاء الإسلام وحرم هذه الأمور بقوله

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن الأنصاري القرطبي ٦٧/٣، دار

الفكر - بيروت - ط. الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٢) سورة النساء، آية (١٩).

تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ (١).

قوله: ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي تحبسوهن ، يقال: دجاجة مُعضِل: قد احتبس بيضها. وقيل العَضْل: التضييق والمنع، وهو راجع إلى معنى الحبس، يقال: أردت أمراً فعضلته عنه أي منعتني عنه وضيقته عليّ ، وأعضل الأمر: إذا ضاقت عليه في الحيل، ويقال: أعضل الأمر إذا اشتد ، وداء عضال: أي شديد عسر البرء أعيا الأطباء (٢).

والمعنى: " أي لا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبن ما دفعتموه لهن من الصداق " (٣).

وكان العرب في الجاهلية لا يعدلون بين النساء في النفقة والمعاشرة، فأوجب الإسلام العدالة بينهم، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (٥).

وكان الرجل قبل الإسلام في الجاهلية إذا أراد أن يتزوج زوجة أخرى أساء إلى زوجته الأولى ورمأها في عرضها، وأنفق ما أخذه منها على امرأة غيرها يريد أن يتزوجها، فحرم الإسلام على الرجال الظلم

(١) سورة النساء، آية (١٩).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢٢ / ٢.

(٣) صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ١ / ٢٤٤ طبعة: دار الصابوني ط. الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٤) سورة النساء، آية (١٩).

(٥) سورة النساء، آية (٣).

والبغي في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ (١).

وفي هذه الآية الكريمة نهى عن أخذ أي شيء مما دفعه الزوج من
المهر، مهما يكن كثيراً، وتوبيخ للأزواج على أخذهم غير المشروع بقوله
تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾.

يقول ابن كثير:

" أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ
مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال ... وفي هذه الآية
دليل على جواز الإصداق بالمال الجزيل " (٢).

وكانت المرأة قبل الإسلام تعد متاعاً من الأمتعة، يتصرف فيها الزوج
كما يشاء فيتنازل الزوج عن زوجته لغيره إذا أراد بمقابل أو غير مقابل
سواء قبلت أم لم تقبل.

والعرب في الجاهلية كانوا يتشاءمون عند ولادة البنات ويدفنوهن عند
ظهورهن إلى الحياة خوفاً من العار أو الفقر. وكان كثير من سادات العرب
يفخرون بذلك فهذا قيس بن عاصم المنقري يعترف أمام الرسول ﷺ إنه وأد
بضع عشرة بنتاً من بناته في الجاهلية، وقد استقطع الرسول ﷺ هذا العمل،
وفرض عليه كفارة مقدارها عتق نفس عن كل موءودة، مع أن الواد تم قبل
إسلام قيس.

(١) سورة النساء، آية (٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير دمشقي ١ / ٤٦٦ مكتبة دار التراث -
القاهرة .

وقد استنبش القرآن الكريم هذه الفعلة الوحشية فوضعها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٢).

فيلاحظ حملة الإسلام الشديدة بدستوره الخالد القرآن الكريم على الجاهلية والجاهلين حملة لا هوادة فيها إزاء المرأة فيصور حالتهم التي كانوا عليها قبل نزول تعاليم الإسلام إلى الأرض، كيف تتغير وجوههم فتسود وتكفهر والله أعلم بتغير الألوان التي تتغير بها من زرقة وحمرة وصفرة وربما غير ذلك. فتنغير وجوههم عندما يقال لأحدهم رزقت بنتاً، ثم يخيم عليه الوجوم الممقت لسوء ما بشر به، ثم يأخذ بالتفكير وهو بعيد عن أهله وبيته. كيف يعامل هذه المخلوقة الجديدة؟ أيعاملها باللطف والهون والإحسان فتبقى معه ويمتد بها وجوده وحياته ويكثر بها نسله؟ أم يفتح لها حفرة ويعدم حياتها ووجودها ويخلص من عارها، وبذلك يكون قد تعدي على الإنسانية جمعاء،

ثم يأتي القرآن الكريم فيوقظ الجاهليين من سباتهم العميق وحماتهم فيصور موقف هذه الموءودة يوم القيامة وسؤالها لماذا قتلت؟ والجواب واضح، ليس هو سوى الخروج السافر على خلق الله وأحكامه ونواميسه والتعدي على مخلوقاته وهناك حرمانه.

(١) سورة النحل، آيات (٥٨-٥٩).

(٢) سورة التكاوير، آيات (٨-٩).

على أن الواد لم يظهر إلا في قبائل معدودة، ويروي العلماء أن مضر وخزاعة كانوا يدفنون البنات أحياء، وأشدّهم في هذا تميم، زعموا خوف الفقر عليهن وطمع غير الاكفاء فيهن^(١)، وأما لو كتب لهذه المخلوقة أن تفلت من وأد الجاهلين فحدث ولا حرج، والحديث ذو شجون عن حياتها والقسوة عليها ومعاملتها السيئة، وحرمانها من كل حق وجعلها سلعة تباع وتشتري ولا حرمة لها، ولا كرامة، وكتب التاريخ مليئة عن معاملة الجاهلين للمرأة فكانت تعاني الضعف والذل والمهانة كالرقيق ولا تملك حق الحياة ولا حق السؤال عن مصيرها، وكانت تدفن وهي حية وتجبر على الزواج من المحارم.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ج ١٠، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،

(٩) المرأة في الإسلام:

وبعد أن أصاب المرأة ما أصابها من الظلم والبغي والاستعباد جاء الإسلام فأنصفها الإنصاف كله، وأزال عنها ما لحقها من ظُلم، وحررها من العبودية، وعاملها معاملة كلها إنسانية، ورفع مكانتها، وأعلى منزلتها، وأعطاه حقوقها كاملة لا نقص فيها، ودافع عن حياتها وحريتها وكرامتها. وعوملت بالعدل، كما يعامل الإنسان الحر الكريم، ففي أرقى العصور مدينة وحضارة.

فالإسلام أنقذ المرأة من كل المظالم، وعاملها معاملة كلها إنصاف واحترام ومكانة وإجلال. ولم تُعط المرأة حقها - وهي بنت أو زوجة أو أم - إلا في الإسلام. فأعطيت الحق في الحياة، والحق في الميراث، والحق في التملك، والحق في التعليم، منذ أربعة عشر قرناً وستة وعشرون عاماً من الهجري.

لقد نظر الإسلام إلى المرأة على أنها نصف المجتمع الإنساني، إذا صلح أمرها صلح نصف المجتمع الآخر، بل صلح المجتمع كله، لأن الطفل من ذكس أو أنثى يظل موضوع رعاية أمة حتى يبلغ مبلغ الدفاع. غير أنه في سن الأربع أو الخمس الأولى تكون رعايته رعاية كاملة، فإذا كانت الأم صالحة صلحت رعايتها، وإن كانت غير ذلك فإننا لا ننتظر منها إلا ناشئة فاسدة متفسخة لا تنهض بمسئولية ولا يرجى منها خير.

والمرأة في الإسلام لها مكانتها، وأن يكون لها في نطاق تعاليمه اهتمام، وأن هذه المكانة وذلك الاهتمام يضعانها في المكان اللائق بها كمخلوق كريم يشكل نصف المجتمع. ومن ثم فنظرة الإسلام للمرأة كانت مغايرة تماماً لنظرة الفلسفات الوضعية لها، فقد رأينا فيما سبق أن المرأة لم تكن تتمتع بنظرة محترمة وكانت مكانتها الاجتماعية على قدر كبير من الدونية، وكانت عند اليهود دورة للروح في حياة شريرة، وعند اليونانيين

للرجل ومجرد تابع له ولا تملك من أمرها شيئاً ونفس الشيء عند الرومان، وفي المسيحية فح نصبه الشيطان للرجل، وأنها سلاح إبليس للفتنة والإغراء، رغم تقديس العذراء مريم قد رفع من منزلة المرأة ولكن هذا لم يغير من وضعها الاجتماعي كثيراً، وفي أوروبا هدر القانون الأوربي كل حقوق المرأة، وفي الجاهلية كانت المرأة في وضع لا تحسد عليه، فكانت للخدمة وللمتعة للرجل. ولكن الإسلام جاء وشرع لها أول قانون يضمن لها منزلتها ومكانتها وكرامتها ويحقق لها حياة تتفق مع طبيعتها ورسالتها ودورها، وكان الرسول ﷺ مثلاً أعلى في معاملته لأزواجه، فقال ﷺ: "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرتة وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في ماله وعرضه"^(١).

وقال ﷺ: "أكمل المؤمن إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خيارهم لنسائهم"^(٢). وقوله ﷺ: "استوصوا بالنساء خيراً"^(٣). ولم يرد نص في القرآن

(١) أخرجه بن ماجه في سننه: باب [أفضل النساء]، حـ ١، ص ٥٩٦، الرقم (١٨٥٥) ط دار الفكر، بيروت، د.ت.

هذا الحديث في إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. قال البخاري: منكر الحديث، وعثمان بن أبي العاتكة مختلف فيه، وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، رواه مسلم وغيره ورواه النسائي وسكت عنه من طريق أبي هريرة وأبو داود في سننه وأبو بكر بن أبي شيبة في مسنده من حديث عبد الله بن عباس.

انظر: مصباح الزجاجة لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكنانى ٨٧/٢ دار العربية - بيروت، تحقيق: محمد المنقلى الكشناوي، ط. ٢.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب (الرضاع) باب (ما جاء في حق المرأة على زوجها ٦٦/٣ رقم (١١٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح. طبعة: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب (الرضاع) باب الوصية بالنساء، حديث رقم (١٤٦٨)، ١٠٩١/٢. طبعة: إحياء التراث العربي - بيروت.

الكريم والسنة المطهرة يحرم تعليم المرأة أو يفرض قيودًا على تعليمها.

وهذا التكريم للمرأة لم تعرفه اليهودية ولا المسيحية، فالإسلام لم يحرم على المرأة دخول أماكن العبادة (المساجد) مثلما تحرم المرأة اليهودية من دخول السинаجوج (المعبد اليهودي).

كذلك يحرم الإسلام على المرأة مسك المصحف الشريف وتلاوة القرآن (إلا إذا كانت المرأة في فترة الحيض أو النفاس)، مثلما حُرمت اليهودية على المرأة الإمساك بالتوراة وتلاوتها في جميع الأوقات حيث تعتبر المرأة اليهودية مدنسة ولا يحق لها أن تدخل المعبد أو تمسك التوراة حتى لا تدنسها^(١).

كما أن الإسلام برأ المرأة من اللعنة التي الصقها بها أتباع كل من اليهودية والمسيحية فقد استخدم القرآن الكريم في سرد وقائع خروج آدم وحواء من الجنة صيغة المثني وجعل مسئولية العصيان مشتركة بينهما ولم يشر القرآن من قريب أو بعيد إلى أن حواء أغوت آدم وأخرجته من الجنة، فقد جاءت الآية الكريمة تبرئ حواء من هذه التهمة في قوله تعالى: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(٢).

كما نجد نفس صيغة المثني حين تابا إلى الله واعترفا بذنبيهما معًا وطلبًا للغفران: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣).

(١) الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وأثرها على المجتمع، فوزية العشماوي: ص ٤.

(٢) سورة البقرة، آية (٣٦).

(٣) سورة الأعراف، آية (٢٣).

إذاً لقد اهتم وعنى القرآن بشئون المرأة في كثير من سوره حتى عرفت إحدى السور بـ(سورة النساء)، وعرفت أخرى بـ(سورة الطلاق)، وعرفت ثالثة بـ(سورة المجادلة)، وعرفت رابعة بـ(سورة الممتحنة)، ومن القرآن الكريم والسنة المشرفة نرى أن الإسلام عزز مكانة المرأة في الأسرة والمجتمع ومنع جميع أنواع التمييز ضدها. وقد حفظ لها حقوقها كأحسن ما يمكن أن تكون الحقوق من نشأتها، فحرم وأدما ثم حفظ لها حقوقها في التعليم وحسن التربية والميراث لتستقيم كإنسان مستقل، ثم حفظ لها حق التصرف بأموالها وتجاريتها بأن تستثمرها وتستغلها، وحفظ لها حق الملكية الفردية كما حفظ لها حق التوظيف والعمل والتصرف بميزانياتها، دون أن تجبر على الإنفاق منها إلا طواعية. وأعطى الإسلام المرأة حريتها في اختيار الزوج أو رفضه وجعل الرابطة بين الرجل والمرأة رابطة مودة ومشاركة وجدانية في العشرة بينهما، ثم ضمن لها حقها في حال حدوث الطلاق من النفقة.

فالرجل في معاملته للمرأة يرعى حق الله أولاً، ويرعى حقها كشريك مساوٍ ثانياً، ويرعى حق الإنسانية فيها كإنسان ثالثاً، والمرأة في معاملتها لزوجها ترعى حق الله أولاً، وحقه كشريك ثانياً، وحق الإنسانية فيه كإنسان ثالثاً. كذلك أقر الإسلام للمرأة حق المشاركة في الحياة العامة، وأيضاً قد اتفق جمهور العلماء والمفسرين على أمر مهم بالنسبة لدلالة النص القرآني، وهو أن كل ما جاء في القرآن الكريم من خطاب موجه إلى المؤمنين والمؤمنات في مختلف الشئون بصيغة المفرد المذكر والجمع المذكر مما يتصل بالتكاليف والحقوق والأعمال العامة يعتبر شاملاً للمرأة دون أي تفريق أو تمييز إذا لم يكن ثمة قرينة تخصيصية.

والآيات القرآنية التي يتمثل فيها ذلك كثيرة جداً، نذكر منها الآتي:

- قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ

ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أَدْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ * يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(١).

- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى

الْحُكَّامِ^(٢).

- وفي مساواة المرأة والرجل في الحدود قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

فَاقْطِعُوا أُيُدَيْهِمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِن

بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ^(٣).

وفي المساواة بين الرجل والمرأة في الآداب والأخلاق، قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ

فُرُوجَهُنَّ^(٤).

كما ورد اتفاق جمهور المحدثين على أن الأحاديث النبوية الموجهة إلى

المسلمين والمؤمنين بصيغة المفرد المذكر تشمل الرجل والمرأة على السواء،

إذا لم يكن فيها قرينة مخصصة. وهناك أحاديث عديدة ينطبق عليها ذلك في:

(١) سورة البقرة، الآيات (١٥١-١٥٣).

(٢) سورة البقرة، آية (١٨٨).

(٣) سورة المائدة، آيات (٣٨-٣٩).

(٤) سورة النور، آيات (٣٠-٣١).

الإيمان والعلم والنقوى والآداب والأخلاق منها:

عنه ﷺ أنه قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"^(١). أي الذي لا يؤذي أحد بفعل، ولا بقول. وينص الحديث النبوي على أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه، فقال ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"^(٢).

والصدق، والوفاء بالوعد، ورد الأمانة لأصحابها، وإسداء الشورى لمن يحتاجها، والسعي الدائم في قضاء مصالح الأصدقاء.

كما أن الإسلام قد قرر أهلية المرأة للتدين وتلقي التكاليف الشرعية حيث جعل الرسول ﷺ للنساء بيعة خاصة بهن في الإسلام دون بيعة الرجال لتدخل كل منهن الإسلام من باب غير باب زوجها أو أبيها وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

وفي هذا إقرار لشخصية المرأة وكيانها المستقل دون تبعية للرجل وأسوة

(١) أخرجه البخاري كتاب (الإيمان) باب (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ١٢/١ رقم

(١٠) دار ابن كثير - اليمامة - بيروت. ط. الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، تحقيق:

مصطفى ديب البغا. ومسلم كتاب (الإيمان) باب (جماع أوصاف الإسلام) ٦٥/١ رقم (٣٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب (الإيمان) باب (من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ١٤/١

رقم (١٣)، ومسلم كتاب (الإيمان) باب (الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب

لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير) ٦٨/١ رقم (٤٥).

(٣) سورة الممتحنة، آية (١٢).

بالرجال وإقرار لأهليتها لذلك. كما جعل الإسلام للمرأة حق المشاركة في الحياة الاجتماعية العامة، فيقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ﴾^(١) وواضح من النص القرآني أن الإسلام يضع صلاح المجتمع أمانة

بين يدي كل مؤمن مستتير وكل مؤمنة مستتيرة ويجعل كلا منهما مسئولاً عن ذلك، لا يعفي المرأة ولا يستثنى الرجل لأنه ينظر إلى وصف الإنسانية لا إلى الذكورة أو الأنوثة. وهو إقرار لحق المرأة أسوة بالرجل في كيان الدولة والمجتمع وتوطيد مركزها فيه.

ولذلك اعترف الإسلام للمرأة بأن لها حق إعطاء الأمان للشخص الذي يدخل ديار الإسلام على نية الإقامة فيها. والأصل فيه قول النبي ﷺ: "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم"^(٢).

قال ابن عبد البر:

" فلما قال : " أدناهم " جاز بذلك أمان العبد ، وكانت المرأة الحرة أحرى بذلك " ^(٣).

(١) سورة التوبة، آية (٧١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک کتاب (قسم الفیء) وقال: هذا حدیث صحیح علی شرط الشیخین ولم یخرجاه ٢/ ١٥٣ رقم (٢٦٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ، ط. الأولى ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٣) التمهيد لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري ، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري ٢١/ ١٨٧ ، طبعة : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب .

معنى الحديث:

"تتألف" أي تتساوى دماؤهم ، أي في القصاص والديات لا يفضل شريف على وضيع كما كان في الجاهلية ، ويسعى بذمتهم أدناهم أي بأمانهم أدناهم، أي عدداً ، وهو الواحد أو منزلة .

والمعنى: أي أن واحداً من المسلمين إذا أمن كافراً حرم على عامة المسلمين دمه، وإن كان هذا المجيز أدناهم مثل أن يكون عبداً أو امرأة^(١).
* وهكذا يتضح لنا عظمة الإسلام في إعطاء المرأة كل هذه الامتيازات التي لم تحظ بها في أي من الثقافات الأخرى.

(١) عون المعبود في شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبي الطيب ٧/

٣٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط. الثانية ١٤١٥هـ.

(١٠) الرد على المتعصبين الذي يدعون أن الإسلام لم ينصف

المرأة:

بعض المتعصبين وذوو الأهواء أدعوا أن الإسلام ظلم المرأة، ولم ينصفها وسلبها حقوقها، ولم يضعها في الدرجة التي تليق بها. ولو نظر هؤلاء بعين الحق والعدالة البعيدة عن الأغراض - إلى ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح - لأقروا واعترفوا بغير تردد أن الإسلام قد أنصف المرأة الإنصاف كله، وأعطاهما حقوقها كاملة، وجعلها في مكانة عالية، ومنزلة سامية بعد أن كانت تباع وتشترى وتملك في أوربا، وتعد رجساً من عمل الشيطان عند الإغريق القدماء، ومتاعاً يورث في الجاهلية عند العرب، ولا يعرف لها قدر عند الفرس، وتحتقر في مصر أيام الفراعنة، وتحبس في الصين قديماً، وتجعل خادمة عند اليهود.

وتقديراً لمكانة المرأة كلف الرجل أن ينفق عليها، ويقوم بمطالبها، ويحافظ عليها، ويدفع لها مهرًا حينما يتزوجها فالرسول ﷺ قال: "أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو أكثر، ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها فمات، ولم يؤد إليها حقها، لقي الله يوم القيامة وهو زان" (١).

وإذا كان للوالدين أبناء وبنات فالإسلام أوجب على الأب الإنفاق على أولاده، ولم يكلف الأم شيئاً من النفقة مهما تكن غنية. والمرأة المتزوجة الحرة

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد باب (فيمن نوى أن لا يقضي دينه) ١٣٢ / ٤ وقال:

رواه الطبراني في الأوسط والصغير ورجاله ثقات، دار الريان للتراث، دار الكتاب

العربي - بيروت - القاهرة ١٤٠٧ هـ.

في أن تتصرف في ثروتها كما تريد في حدود القانون، وإذا توفي زوجها كان لها نصيب في تركته. قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾^(١).

وقد أجاز الإسلام للمرأة أن تمتلك، وتطلب رزقها، وتوظف في العمل الذي تختاره لنفسها، وتتصرف في ثروتها، كما يتصرف أخوها وأبوها وزوجها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(٤). ولم تكن المرأة تراث في أي مجتمع قبل الإسلام، فجعل الإسلام توريثها إلزاميا في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾^(٥).

(١) سورة النساء، آية (١٢).

(٢) سورة النساء، آية (١٢٤).

(٣) سورة النحل، آية (٩٧).

(٤) سورة آل عمران، آية (١٩٥).

(٥) سورة النساء، آية (٧).

وقال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(١).

لذا عُجب من هذه الهجمة الغربية الشرسة على الإسلام والتي تتخذ المرأة وقودًا لها، فهذه الهجمة الغربية تستجيب لضغوط أمريكية صاغتها من خلال مشروع الشرق الأوسط الكبير - الجديد - وتريد أن تكون المرأة عندنا صورة للمرأة في بلاد الغرب، منفلتة من أي أعراق أو قواعد أو أديان أو تقاليد أو أعراف عرفتها بلادنا لحماية المرأة من أي أضرار.

إن تأمين مجتمعاتنا من مغبة الوصول إلى تفكيك الأسرة وانحلال العلاقات كما هي الصورة الكاسحة عندهم الآن لأمر جد مهم. لذا فالمرأة المسلمة مطالبة اليوم أكثر من أي زمن آخر بالتمسك بأصول الدين الإسلامي ومبادئ الفضيلة التي استقرت في وجداننا زمنًا طويلاً. وهي مطالبة كذلك بعدم الانزلاق إلى مهاوي الفساد والرذيلة التي تحاك ضدها.

(١) سورة النساء، آية (١١).

الفصل الثاني المرأة في القرآن والسنة

مقدمة :

الجنس البشري مكرم على كثير من خلق الله عزَّوجل ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُحُوشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١) .

ومما لا شك فيه أن هذا التكريم استوعب نوعي الجنس البشري ، فالرجل مكرم باعتباره إنسان و المرأة مكرمة باعتبارها إنسان كذلك ، ولقد كرم الله المرأة ولم يظلمها فيما تستحقه من حقوق ولم يحملها ما لا تطيق لأنه سبحانه وتعالى خالقها . وهو أعلم بما يناسبها من حقوق وما يتوافق معها من واجبات ، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) ، ففضيلة العدل والإنصاف مع المرأة ينبغي أن تكون متكاملة ، فلا ينظر لها من جانب الحقوق فحسب ، بل يمتد النظر ليشمل جانب الالتزامات (الواجبات) ، فإله سبحانه وتعالى لم يخلق إنسان عبثاً ليمتعه بمجموعة حقوق دون أن يطلب منه واجبات ، فيقول تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

لذا فقد دخل على المسلمين فيما دخل عليهم من الغرب كثير من

(١) سورة الإسراء آية [٧٠] .

(٢) سورة الملك ، آية [١٤] .

(٣) سورة المؤمنون ، آية [١١٥] .

التشكيك بمواقف الإسلام الاجتماعية وبخاصة نظرتة إلى مقام المرأة فيه ومكانتها منه .

فقد أخذ الكثير من الناس بذلك وظنوا بما يرون من شأن المرأة في الغرب اليوم .

أي المرأة المسلمة لا تجد في الإسلام حقوقها ، ولا تظفر فيه بمكانتها من حيث هي هذا الكائن البشري الذي يؤلف نصف المجتمع ويشارك أعظم مشاركة في إقامته وتوجيهه. (١) .

وقد كان أشد الناس تأثراً بهذه الشكوك ، هذه الطبقات الجديدة من شبابنا المتقنين ، الذين أُتيح لهم إن يروا مجتمعين متناقضين :

الأول: مجتمع الغرب بما تمارس المرأة فيه من مظاهر الحياة ، وبما تقوم به من عمل وتبلغه من منزله .

الثاني: مجتمع الشرق الإسلامي بما يظله من مظاهر .

ولقد ربط هذا الجيل من الشباب بين هذين المجتمعين . فخيّل لهم أن أمر المرأة في ذلك رفعة وانحطاطاً ، وأن الإسلام هو الذي حال بين المرأة وبين أن يكون لها مثل مكانتها في الغرب ووقعوا هذه المقارنة العابرة التي تخفي وراءها كثير من المفارقات في خطأين كبيرين :

أحدهما : أنهم لم يدرسوا وضع المرأة في الغرب دراسة عميقة ؛ وأنهم لم يتعرفوا على شخصيتها ولا طبيعته وجودها القلق ، ولم يشيروا إلى

(١) نظرة الإسلام إلى المرأة ، بشير عبد الباري : المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، المنعقد بالقاهرة في الفترة من (١٧ - ٢٠ ابريل ٢٠٠٥) ، المجلد الرابع : " نظرة الإسلام إلى المرأة ، ص ١) .

الآثار البعيدة التي تتركها الحياة على المرأة هناك من حيث هي أم وسيدة بيت ،واخذوا بمظاهر الحياة وزخارفها، وببعض المواقف الفردية التي قدر لهم أن يروها .

الآخر: أنهم لم يدرسوا وضع المرأة في الإسلام لا في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف، ولم يبينوا المنزلة التي أهلها فيها الشرع ،والشخصية السليمة التي منحها لها ،و الحرية المعقولة التي أتاحها لها ، حقوق التصرف التي مكنها منها .

ولقد سادت عند كثير من الشباب أن المرأة في حياتنا لم تتل حقوقها ، ويردون ذلك عن غير وعي إلى الإسلام وليس الإسلام هو السبب فيما ينكرون من وضع المرأة ، وإنما هو التأخر الذي أصاب المسلمين ، والقوى الأجنبية التي تجمعت ضدهم ،والاستعمار الذي عانوا ويلاتة ، والغزو المادي والفكري والثقافي الذي انتهى بهم إلى هذا المصير وإن المشكلة التي نواجهها في أيامنا هذه هي أن قضية المرأة وحقوقها في الشريعة الإسلامية سارت موضع نقاش وجدل بين من لا يعرف

المرأة وحقيقتها ،وقد دفعني هذا الواقع المؤلم إلى أن أضع عنواناً والذي سمي "المرأة في القرآن والسنة " وقد قسمته لعدة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول

الإنسانية

لا يفرق القرآن الكريم بين الرجل و المرأة من حيث المبدأ ، فكل منهما يؤلف قطباً من أقطاب الوجود الإنساني ، إنهما معاً يؤلفان بداية الحياة على الأرض . ويرتبطان بالزواج المشترك ، ويصنعان من هذا الزواج الذرية التي تسعى في الأرض ، ويلقيان المصير الواحد في الغاية إن خيراً فخييراً وإن شراً فشر ، وهكذا سوت الآيات بين الرجل والمرأة منذ النشأة الأولى .

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ^(١) ثم مضى تسوي بينهما في العمل والجزاء ، ووضعت هذا القانون الشامل الذي عبرت عنه آية من سورة النحل : قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ ^(٢).

ففي مساواتها مع الرجل في الإنسانية يقول الحق سبحانه وتعالى :
﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ^(٣) ، ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسُ أَتَقْوَاهُ رِبَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ^(٤) ، ﴿ لَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴾ ^(٥).

(١) سورة الأنعام ، آية [٩٨] .

(٢) سورة النحل ، آية [٩٧] .

(٣) سورة الشوري ، آية [١١] .

(٤) سورة النساء . آية [١] .

(٥) سورة القیامه . آية [٣٥] .

وعلى الجملة فقد جعلت بعضهم من بعض ففي آية سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(١). يلخص هذه المبادئ العامة مضمون الآية الكريمة في سورة آل عمران: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(٢) فالمرأة بحسب القرآن الكريم إنسان كامل الإنسانية، وهي تمثل مع الرجل الشخصية الإنسانية في جوهرها: العقل واحد، والضمير واحد، والمشاعر والإدراكات واحدة.

(١) سورة التوبة ، آية [٧١] .

(٢) سورة آل عمران ، آية [١٩٥] .

المبحث الثاني

النصوص التي ساوت بين الرجال والنساء في أصل التكليف

ساوى الله جل جلاله بين المرأة والرجل في أصل التكليف: قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۖ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣).

ويقول سبحانه مقررًا هذه المساواة في صور شتى من ألوان العبادة: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٤).

(١) سورة النحل ، آية [٩٧]

(٢) سورة النساء ، آية [٧] .

(٣) سورة التوبة ، آية [٧١] .

(٤) سورة الأحزاب ، آية [٣٥] .

لذا توضح النصوص السابقة بأن المرأة كالرجل في أصل التكليف ، وأصل الحقوق والواجبات وإن الاختلاف الذي بينهما في ظاهر الحقوق والواجبات من قبيل الوظائف والخصائص ، فلا يسمى أبداً اختلاف الوظائف والخصائص انتقاص لنوع البشر أو تمييز نوع على آخر، فمثلاً إذا وعد أب أن يكسو أبنائه في العيد فالظلم هنا أو الانتقاص هو أن يكسو الأبناء دون البنات ولكن ليس من الظلم أن يفرق بين نوع الملابس التي يلبسها ابنه الذكر عن الملابس التي تلبسها ابنته الأنثى طبقاً لاختلاف الوظائف والخصائص^(١).

وهكذا ذكر القرآن الكريم النساء حيث ذكر الرجال : ﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ ^(٢) .

واستخدم القرآن الكريم تعابير أخرى مشتركة مثل : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ .

واستخدم الجمع المذكر من باب التغليب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . وهو يريد المكلفين جميعاً من الرجال والنساء .

(١) المرأة بين إنصاف الإسلام وشبهات الآخر ، علي جمعه محمد : ص ٨ .

(٢) سورة النساء ، آية [٣٢] .

المبحث الثالث

النصوص التي ساوت بين الرجال والنساء في الجزاء

ساوى الله عزَّ وجلَّ بين الرجل والمرأة في الجزاء ، ولم يؤاخذ المرأة بذنب الرجل ، ولم يحملها ذنب الرجل ، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۖ ﴾ (١).

يقول صاحب الظلال:

(إنه ليس مجرد التفكير ومجرد التدبر ، وليس مجرد الخشوع والارتجاف ، وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزي ومن النار... إنما هو العمل الإيجابي الذي ينشأ عن هذا التلقي وعن هذه الاستجابة ، وعن هذه الحساسية الممثلة في هذه الارتجافة ، العمل الذي يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكير والتدبر ، والذكر والاستغفار والخوف من الله ، والتوجه إليه بالرجاء بل العمل الذي يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة والذي يقبل من الجميع ذكراً وإناً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس ، فكلهم سواء في الإنسانية بعضهم من بعض ، وكلهم سواء في الميزان) (٢).

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِّنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٣) وحسبنا أن نرى بعد ذلك مشهداً رائعاً من مشاهد يوم القيامة يوم تتوج هذه المساواة بين

(١) سورة آل عمران ، آية [١٩٥] .

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب: ١ / ٥٤٨ طبعة: دار الشروق ، الطبعة الواحدة والثلاثون ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

(٣) سورة النساء ، آية [١٢٤] .

شقي الإنسانية - الرجل والمرأة - بعد رحلتها القصيرة في الحياة الدنيا ، فيقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(١) .

تلك هي نماذج من تكريم الإسلام للمرأة ومساواتها مع الرجل في الحقوق الإنسانية وفي أهليتها للتدين والعبادة، وفي أصل التكليف والجزاء والآخره .

لذا قد كانت آيات القرآن الكريم عرضنا لها حريصة على أن تؤكد مكانة المرأة وعلى أن تنزلها المنزلة التي للرجل في وجودها وعقيدتها وفي دنياها وآخرها ، ولكن الآيات القرآنية كانت تفعل ذلك في نطاق هذه المعاني الإنسانية العامة والقواعد الكلية . من غير أن تقف عند كثير من جزئيات الحياة ، وما كان للقرآن الكريم أن يحفل بالجزئيات إلا حين تكون هذه الجزئيات طريقاً إلى تأكيد الأخطار الكبرى والمعاني الكلية والقيم الإنسانية الخالدة^(٢) .

لهذا نجد السنة النبوية المطهرة حين تابعت طريق القرآن الكريم حرصت على أن تتوقف في هذا الطريق عند بعض التفاصيل ، وأن تلفت إلى بعض الجزئيات وأن تلقي الأضواء هنا وهناك، وإن تؤكد على جملة من الوصايا والملاحظات حيث المعاني القرآنية أو تفريعيها أو إيضاح أحكامها ، وذلك كله في نطاق الهدف الكبير الذي هو التسوية بين خلقين من

(١) سورة الحديد ، آية [١٢] .

(٢) نظرة الإسلام إلي المرأة ، بشير عبد الباري : ص ١٠ ، المجلد الرابع .

خلق الله: الذكر والأنثى (١).

وهذه الأحاديث الشريفة كانت مرتبطة ببعض المواقف الخاصة بالدعوة وحياة الرسول ﷺ ، ولذلك نجد فيها ملامح من حركة الإسلام في طريق هدم الجاهليات الأولى التي كانت تضطهد المرأة أو تعطل دورها ، ونجد فيها مدى الجهد الكبير الذي بذله الرسول — صلى الله عليه وسلم — لاقتلاع الواقع الاجتماعي السيئ وبناء واقع جديد ينهض هذا على التعمير والتكامل بين المرأة والرجل سواء بسوء ، وقد اتجهت هذه الأحاديث لتوجيه المجتمع وقيادته للطريق القويم من خلال سلسلة من التعاليم والأوامر والوصايا والتأكيدات التي كان يشيعها في كل مناسبة تتاح له أو موقف يمر به ، ولعل ذروة هذه المواقف التي وقفها الرسول ﷺ كانت في حجة الوداع ، حيث قال الرسول ﷺ : " ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . . . لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون ، ألا وإن حقهن عليكم تحسناً إليهن في كسوتهن وطعامهن " (٢).

إنّ هذا النص يكشف عن جانب من هذه المساواة التي أرادها الإسلام بين المرأة والرجل ، لأن بدايته التي يركز عليها إن إنسانية المرأة في مستوى إنسانية الرجل ، كلاهما موضع أولوية مشتركة ، وحقوق متقابلة ، وواجبات متماثلة ، يبدأ الرجل من حيث تبدأ المرأة : هو وهي خلق من خلق

(١) المرجع السابق : ص ١٠ .

(٢) أخرجه الترمذي كتاب (التفسير) باب (ومن سورة التوبة) حديث رقم (٣٠٨٧)

وقال: هذا حديث حسن صحيح .

الله كلاهما موضع تكليف وموضع امتحان ، ثم تنتشعب بهما الطريق فيكون للمرأة عمل وللرجل عمل ، ولكن يبقى للمرأة حقوقها وعليها واجباتها ، وللرجل حقوق وعليه واجبات ، إنهما يبدأان متساويان وينتهيان متساويين ولكن اختلافهما إنما يكون في طبيعة العمل الذي يقوم به كل منهما .

فالتكليف الذي بين الرجل والمرأة في الإسلام إنما هو مساواة من حيث المبدأ والخاتمة وتناظر وتكامل من حيث العمل والوظيفة ، فهما إذن عنصران متساويان ومتكاملان . ومن أجل إقرار هذه المساواة وهذا التكامل كان حرص الرسول ﷺ في خطبة الوداع على أن يؤكد على المسلمين أن يتقوا الله بالنساء ، وأن يستوصوا بهن خيراً ، وأن يجعل ذلك جزءاً من دعوته وتبليغه "اللهم بلغني اللهم أشهد".

وهناك حديثين يوضحان المساواة والتناظر في الوظيفة والتكامل في المجتمع والمساواة في المسؤولية والجزاء في الآخرة والدعوة والتكليف للرجل والمرأة :

الحديث الأول:

عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية: أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت : إني رسول من ورائي جماعة نساء المسلمين يقتلن بقولي وعلى مثل رأيي . إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فأمنأ بك وأتبعنك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخمورات قواعد بيوت بموضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم ، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز فإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم . أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ﷺ ؟

فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه أصحابه وقال لهم : هل سمعتم ما قالته امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ فقالوا : لا يا رسول الله ؟

قال عليه الصلاة والسلام: انصرفي يا أسماء واعلمي من وراءك من النساء أن
حُسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته وإتباعها لموافقته تعدل كل ما
ذكرت ، فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال رسول الله ﷺ (١)

الحديث الثاني:

عن أم عمارة الأنصارية قالت : أتيت رسول الله ﷺ فقالت : مالي
أرى كل شيء للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ (٢)

فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ
وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣)

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان : حديث رقم (٨٧٤٣) ، ٦ / ٤٢١ . طبعة: دار

الكتب العلمية - بيروت ط: الأولى ١٤١٠ هـ .

(٢) أخرجه الترمذي : كتاب تفسير القرآن ، باب : " ومن سورة الأحزاب " ، حديث رقم (

٣٢١١) ، ٥ / ٣٥٤ ، وقال حديث حسن غريب .

(٣) سورة الأحزاب : آية [٣٥] .

المبحث الرابع

النصوص التي توصي الرجال بالنساء والأهل

ولم يكنف القرآن الكريم بتلك النصوص التي توضح تلك المساواة في الإنسانية، وأصل التكليف، وأصل الحقوق والواجبات، وإنما تعدى الأمر إلى التوصية بالمرأة، وذلك لأن المرأة أضعف من الرجل واحتمال بغي الرجل عليها وارد، فأوصى الله عز وجل في كتابه العزيز وسنة نبيه محمد ﷺ .

قال تعالى: ﴿ وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾^(٢).

وقوله تعالى وَمَتَّعُوهُنَّ ﴿ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْحَسَنِينَ ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾^(٤).

وقوله تعالى ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾^(٥).

وقوله تعالى وَءَاتُوهُمُ ﴿ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾^(٦).

(١) سورة البقرة، آية [٢٢٨]

(٢) سورة النساء، آية [١٩] .

(٣) سورة البقرة، آية [٢٣٦] .

(٤) سورة الطلاق، آية [٦] .

(٥) سورة النساء، آية [٢٤]

(٦) سورة النور، آية [٣٣] .

وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
كَبِيرًا ﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿ فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ
أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾^(٢).

ولم يقف الإسلام عند تحريم الوأد والمنع من التشاؤم من الأنثى،
وإنما امتد إلى التوصية خيراً بالنساء وبالأهل، ولعل سبب ذلك هو الرغبة
في أن يمحو من الأذهان ما تركز فيها من ظلم المرأة و الحث على إعلاء
شأنها والاستئناس بها.

ومن السنة النبوية الغراء أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي :

سأل أحد الصحابة الرسول ﷺ من أحب النساء إليك ؟ قال : عائشة -
رضي الله عنها -^(٣).

وفي رواية أخرى إجابة منه ﷺ عن نفس السؤال، قال : فاطمة -
رضي الله عنها - .

ففي هذين الخبرين إشارة إلى تكريم المرأة باعتبارها زوجة
وباعتبارها ابنة ، فلم يعلم المسلم أن أحب الناس إلي نبيه وقائده الأعظم ﷺ
كانت امرأة يعلم حينئذ قدر المرأة ويجل كل امرأة تأسياً بنبيه ﷺ.
وكان ﷺ يصل بالهدايا صديقات خديجة ﷺ فعن أنس ﷺ قال : " كان

(١) سورة النساء ، آية [٣٤] .

(٢) سورة البقرة ، آية [٢٢٩] .

(٣) أخرجه مسلم : كتاب " الفضائل " باب " فضائل أبي بكر الصديق - ﷺ " حديث رقم
(٢٣٨٤)، ٤ / ١٨٥٦ . وابن حبان في صحيحه ، حديث (٧١٠٦)، ١٦ / ٤٠ .

النبي ﷺ إذا أتى بالهدية . قال: اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة". (١)
وقوله ﷺ: "استوصوا بالنساء خيراً" (٢) بما يشير الاهتمام بأمر النساء عامة
وزوجة وأماً وابنة وكل الصلات التي تربط بين الرجال والنساء .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " لا يفرق مؤمن مؤمنة
إن كره منها خلقا رضى منهما آخر " (٣) .

وقوله ﷺ: " إن النساء شقائق الرجال " (٤) . بل اعتبر النبي مقياس
أفضلية الرجال بحسن معاملة المرأة والزوجة بصفة خاصة لأنها أكثر امرأة
لصيقة بالرجل ، فقال ﷺ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" . (٥) وكان
النبي ﷺ يخفف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته (٦)

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه : حديث (٧٠٠٧) ، ١٥ / ٤٦٧ . باب ذكر خديجة بنت
خويلد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، ١٤١٤ هـ —
١٩٩٣ م .

(٢) سبق تخريجه ص .

(٣) أخرجه مسلم : كتاب (الرضاع) باب الوصية بالنساء ، حديث رقم (١٤٦٩) ، ١٠٩١/٢ .

(٤) أخرجه أبو داود : كتاب الطهارة ، باب الرجل يجد البلة في منامه ، حديث رقم (٢٣٦)
١ / ٦١ ، دار الفكر العربي ، بيروت ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، د . ت

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه : باب : ذكر استحباب الاقتداء بالمصطفى ﷺ للمرأة في
الإحسان إلى عياله إذا كان خيرهم لهن ، حديث (٤١٧٧) ، ٩ / ٤٨٤ .

أخرجه الترمذي (محمد بن عيسى الترمذي السلمي : كتاب الفضائل ، باب " فضل
أرواح النبي ﷺ ، حديث (٢٨٩٥) ، ٥ / ٧٠٩ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،
تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون .

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه : باب " ذكر البيان " أنه ﷺ كان يكون في مهنة أهله ثم
دخوله بيته ، حديث رقم (٦٧٤٠) ، ٤ / ٣٥١ ، وأخرجه أحمد في مسنده ، حديث رقم
(٢٥٣٨٠) ، ٦ / ١٦٧ .

وقال ﷺ: "مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها إن في امرأتك" (١).

* كل ما سبق من نصوص الشرع من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تؤكد على علو مكانة المرأة في القرآن والسنة، وأنه لا يوجد تشريع سماوي ولا أرضي سابق ولا لاحق كَرَّم المرأة وأنصفها وحماها وحرسها مثل ذلك التشريع الأغر الذي أكرمنا الله به واعزنا بالانتساب إليه.

(١) أخرجه البخاري محمد بن إسماعيل البخاري : باب : أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكفروا الناس . حديث رقم (٢٥٩١) ، ٣ / ١٠٠٦ ، دار ابن كثير ، اليمامة ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٩ م . تحقيق : مصطفى ديب البغا ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٩ م .

المبحث الخامس

المرأة وعملها في دعوات الرسل

القرآن الكريم أكد على علو مكانة المرأة ورفعها وسوى بينها وبين الرجل ، إلى أن ربط بينها وبين الأحداث من حياة عدد كبير من الرسل والأنبياء وهذا الربط أخذ المظاهر المختلفة التالية :

الأول : جعل القرآن من المرأة آية . وهي مريم — عليه السلام — ، فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (١) .

الثاني : ضرب القرآن المثل بالمرأة للذين آمنوا وللذين كفروا ، فقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (٣) .

(١) سورة المؤمنون / آية [٥٠]

(٢) سورة التحريم ، آيات [١١ - ١٢] .

(٣) سورة التحريم ، آية [١٠] .

الثالث: القرآن الكريم وحادثة الإفك " السيدة عائشة أم المؤمنين " قال

تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * وَلَوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١). فإله تعالى أنزل قرآنًا توج المرأة بتاج الحكمة والتدبير وقبول دعوة الإسلام ، حيث قال على لسان بلقيس: قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْاَمْلُؤُا اَفْتُونِي فِي اَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً اَمْرًا حَتّٰى تَشْهَدُوْنَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ اِنَّ اَلْمُلُوكَ اِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً اَفْسَدُوْهَا وَجَعَلُوْا اَعْرَۡةَ اَهْلِهَا اُذْلَةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴾ (٣) .

(١) سورة النور ، آيات [١١ - ١٧] .

(٢) سورة النمل ، آية [٣٢] .

(٣) سورة النمل ، آية [٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢).

الخامس : القرآن الكريم وتكريمه للنساء من حيث البت في قضاياها والإفتاء في شئونها ، وذلك حين جاء العرب يسألون النبي ﷺ في بعض ذلك فنزل القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَكَسَفَتْوَنكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ (٣).

السادس : القرآن الكريم وتكريمه للمرأة ، وذلك ما جاء في سورة القصص بشأن سيدنا موسى — عليه السلام — حين عبر القرآن الكريم ، عن أنه تولى الربط على قلب أم موسى حين تملكها الجزع ، حيث قال : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤).

السابع : القرآن الكريم وتبشير سارة زوجة سيدنا إبراهيم — عليه السلام — بإسحاق :

قال تعالى ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ

(١) سورة النمل ، آية [٣٥] .

(٢) سورة النمل ، آية [٤٤] .

(٣) سورة النساء ، آية [١٢٧] .

(٤) سورة القصص ، آية [١٠] .

هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ
أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿١﴾

من كل ما سبق نجد المرأة في القرآن الكريم في أكرم المجالات التي
تربط بين الله تعالى وبين الناس ، أي إننا نجدها في حياة الرسل والنبیین إما
زوجه ، ونجد نماذجها مؤمنة وكافرة ، على نحو ما نجد الرجل سواء بسواء
، وكان ذلك إشارة إلى طريق القرآن الكريم في الدعوة إلى التسوية
وإقرارها .

المبحث السادس

القرآن الكريم وصيانة كرامة المرأة

اعتبر القرآن الكريم المرأة ذروة المجتمع الإنساني من حيث صيانتها والحفاظ عليها والاحتفاظ بكرامتها وحماية أرضها وطيب سمعتها، واعتبرها عرض الرجل وكرامته كما اعتبرها هي الأسرة وكرامتها، ويحرم على مالها أن يبتذل ، والقرآن الكريم حرص أشد الحرص على صيانة سلوكها الاجتماعي بقية سلامة المجتمع ونقاء الأنساب وطهارة الأرحام. كذلك أحاط القرآن الكريم المرأة بسياس كثيف حين رفع عنهم التهم، ورد عنها المقالات ، وطلب من الذين يتهمونها أن يكونوا على ثقة من هذا الاتهام ، وأن يشهد على في ذلك أربعة شهداء ، متجاوزاً أمور (نصاب) الشهادة في أمور الحياة الأخرى كلها .

كذلك لم يكتف القرآن الكريم برفع القذف وإنما عاقب أصحابه ، وقد عبر القرآن عن ذلك في الآيات التالية .

قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جُلُوسِيهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعَرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ اللَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢).

(١) سورة الأحزاب ، آية [٥٩] .

(٢) سورة النور ، آية [٤] .

وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ^ط وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ^ط عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

كما أن الإسلام حفظ المرأة من الأخطار ، فعمل على حمايتها وصون كرامتها فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تسافر المرأة مسيرة يومين إلا ومعها زوجها أو ذو محرم " (٢)

(١) سورة النور ، آيات [٢ ، ٣] .

(٢) أخرجه البخاري : باب " مسجد بيت المقدس " حديث (١١٣٩) ، ١٠ / ٤٠٠ .

المبحث السابع

قيمة المرأة في نظر القرآن الكريم

وإذا كانت المرأة عماد المجتمع ونبوعه، فاما يغفل الإسلام حقها الأوفى من التكريم، أمًا وزوجةً وبناتًا، ومن ثمّ فالذي يدرس الآيات القرآنية المتصلة بالمرأة يلاحظ أن القرآن الكريم والسنة النبوية وهبا لها هذه القيم الرفيعة (أمًا وزوجةً وبناتًا).

* فهي كأم: موضع التكريم والتبجيل والقرآن الكريم وما فتى يذكر الإنسانية بجميل الأم الذي أسدته لها، وبمناعبها التي تحملتها من أجلها، يقول تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ (١).

ويقول تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (٢).

والقرآن الكريم اعتبرها الوطن الأول للبشرية كلها يقول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣). ناهيك بما منح الأم من إكبار وتقدير حين جعل بر الوالدين والإحسان إليهما أول مراتب الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٤).

* وهي كزوجة: القرآن الكريم يصف المرأة بأنها سكن للرجل، وأن علاقتها به هي علاقة مودة ورحمة، وما أعمق هاتين الكلمتين إذا تتأمل فيهما، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ عَائِسَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

(١) سورة لقمان، آية [١٤]

(٢) سورة الأحقاف، آية [١٥]

(٣) سورة النحل، آية [٧٨] .

(٤) سورة الإسراء، آية [٢٣]

لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾.

يقول صاحب الظلال:

(والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين، وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة، ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب واستقراراً للحياة والمعاش، وأنساً للأرواح والضمائر، واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء، والتعبير القرآني اللطيف الرقيق يصور هذه العلاقة تصويراً موحياً، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب، وأغوار الحس؛ ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ ... ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ... ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ... فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما، وامتزاجهما في النهاية ، لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد) ﴿١﴾.

(١) سورة الروم ، آية [٢١] .

(٢) سورة آل عمران ، آية [١٩٥] .

ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(١).

فهذه الآيات من أبلغ ما عرفت البشرية في تمثيل الحياة الزوجية وتصويرها وفي إكرام الزوجة وجعلها جزء من الزوج، بها يكتمل معنى الحياة الزوجية، تجعل الزوج سكناً، وتجعل الزوجية في معناها الأسمى مودة ورحمة .

* وهي كابنة: نالت المنزلة الرفيعة من عناية الإسلام بهما، فعن الرسول الله ﷺ أنه قال: " من ابتلى من هذه البنات بشيء كن له ستراً من النار " (٢)، لذا جعل الإحسان إلى البنات من أسباب النجاة يوم القيامة .

وقال ﷺ: " الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله " (٣).

ويقول ﷺ: " استوصوا بالنساء خيراً " (٤) أي أن الإسلام يوصي

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢١ / ٢٧٣٦ .

(٢) أخرجه مسلم : كتاب الفضائل ، باب : " فضل الإحسان إلى البنات " ، حديث رقم (٢٦٢٩) ، ٤ / ٢٠٢٧ .

دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، د . ت .
(٣) أخرجه البخاري : كتاب (البر والصلة) باب من وصل وصله الله ، عن عائشة ، حديث رقم (٥٦٤٣) ، ٥ / ٢٢٣٢ . وأخرجه أيضاً أبي هريرة - ؓ - نفس الجزء والصفحة برقم (٥٦٤٢) . وأخرجه مسلم : باب " صلة الرحم وتحريم قطيعتها " ، حديث رقم (٢٥٥٥) ، ٤ / ١٩٨١ .

(٤) أخرجه البخاري : باب الوصية بالنساء ، حديث رقم (٤٨٩٠) ، ٥ / ١٩٨٧ . وأخرجه مسلم : كتاب (البر والصلة) باب الوصية بالنساء ، حديث رقم (١٤٦٨) ، ٢ / ١٠٩١ .

بالنساء خيراً ويوجب الصلة ويحرم القطيعة .

* وهي كمطلقة : الإسلام لا يحرم الطلاق لكنه لا يريد أن يقع دون أن يكون له مصوغاته ، ثمّ هو يتشدد تشدداً واضحاً ويضع له قيوداً ثقيلة ، فالإسلام جعل حق الطلاق للرجل .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ ﴾ (١) .

فالإسلام لم يحرم المرأة من حق طلب الطلاق إذا رغبت في الانفصال عن زوجها بسبب حالات الظلم وخشونة المعاملة أو بسبب مرضه بمرض عضال لا شفاء منه أو بسبب عجزه الجنسي ، فالإسلام يعطيها الحق في الطلاق مع الاحتفاظ بكل حقوقها المالية المترتبة على الطلاق .

فالإسلام ينهى عن عدم طلاق الزوجة والاحتفاظ بها للأضرار بها خاصة إذا كانت ترغب الطلاق ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُكْسِرُوهُنَّ ضَرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ ﴾ (٢) .

يقول ابن كثير في معنى هذه الآية :

(قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقتل بن حيان وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد ، فإذا شارفت على انقضاء

(١) سورة البقرة ، آية [٢٣١] .

(٢) سورة البقرة ، آية [٢٣١] .

العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَنْ

يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى (١).

كذلك أقر الإسلام حق المرأة في الطلاق على أن تفدي نفسها وتقوم بتعويض الزوج عن خسارته المادية الناجمة عن طلاقها بناء على رغبتها طبقاً للآية الكريمة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (٢).

وهذا الطلاق بناء على رغبة الزوجة يسمى (بالخلع) وهو موجود ومتعارف عليه منذ عهد النبي ﷺ مثلما حدث مع الصحابية التي استشارت الرسول ﷺ في طلب طلاقها من زوجها لأنها لا تطيقه أي لا تحبه، رغم أنه إنسان كريم وكان هذا الزوج قد منحها حديقة كمهر وصدق؛ فاشتراط عليها رسول الله ﷺ مقابل حصولها على الطلاق أن ترد عليه حديقته ففعلت فطلقها زوجها (٣).

والإنسان يدهش حقاً إذ يرى مدى الرعاية التي خص بها الإسلام المرأة المطلقة فقد اشترط في التسريح شرطين في آيتين:

- (أ) شرط أن يكون بإحسان ﴿فَإِمْسَاكِ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ (٤)
- (ب) وشرط أن يكون جميلاً ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٥).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٨١.

(٢) سورة البقرة، آية [٢٢٩].

(٣) هذه الواقعة أخرجها البخاري: كتاب (الطلاق) باب (الخلع وكيف الطلاق فيه) حديث رقم (٤٩٧١) ، ٥ / ٢٠٢١ .

(٤) سورة البقرة، آية [٢٢٩].

(٥) سورة الأحزاب، آية [٤٩].

وقد أكد القرآن الكريم حق المرأة في الطلاق سواء وقع الطلاق قبل الدخول أم بعد الدخول، وذلك بالحفاظ على حقوقها، وأراد أن يكون ذلك بالمعروف. أي بتسامح، ونص على ذلك أنه حق على المتقين، فقال: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(١) فإذا وقع الطلاق قبل الدخول فإن للمطالقة نصف المهر الذي اشترطته على نحو ما توضح الآية الكريمة التالية: قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾^(٢)

ثم أضافت الآية الكريمة في شيء من التكريم للمرأة وحسن معاملتها هذه الخاتمة الجميلة ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣).

كما أمر الرسول ﷺ بتكريم المرأة بنتاً وزوجة وأماً. وكان أكرم خلق الله مع نسائه وبناته وظل يوصي بالنساء خيراً وهو على فراش الموت ، قال رسول الله ﷺ: "أوصيكم بالنساء خيراً"^(٤) ومن أحاديثه الكريمة في تكريم البنات : " من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة "^(٥)

(١) سورة البقرة ، آية [٢٤١]

(٢) سورة البقرة ، آية [٢٣٧]

(٣) سورة البقرة ، آية [٢٣٧]

(٤) سبق تخرجه .

(٥) رواه الترمذي في سننه : كتاب (البر والصلة) باب : " ما جاء في النفقة على البنات والأخوات " ، حديث رقم (١٩١٢) ، ٣١٨ / ٤ . وحديث رقم (١٩١٦) ، ٣٢٠ / ٤ ، وقال هذا حديث حسن غريب .

وعن إكرامه للزوجة قوله ﷺ :

"خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة ، إن نظرت إليها سرتك ، وإن غبت عنها حفظتك" (١).

كما كرم الإسلام المرأة الأم ، وأوصى بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — في كثير من أحاديثه الشريفة وجعل البر بها مقدماً على بر الأب حيث روي أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ فقال : " يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ، قال : أمك ، قال : ثم من؟ قال : أمك قال : ثم من؟ قال : أمك قال : ثم من؟ قال : أبوك" (٢)

وروي أن رجلاً استأذن النبي ﷺ للجهاد فقال : أحى والداك؟ قال : نعم ؟ قال : ففيهما جاهد (٣).

(١) رواه مسلم : كتاب (الرضاع) باب " خير متاع الدنيا المرأة الصالحة " ، حديث رقم (١٤٦٧) / ٢ / ١٠٩٠ .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب " البر والصلة " ، باب : " من أحق الناس بحق الصحبة " حديث رقم (٥٦٢٦) ، ٥ / ٢٢٢٧ . وأخرجه مسلم : كتاب " البر والصلة " باب " بر الوالدين وأيهما أحق به " ، حديث رقم (٢٥٤٨) ، ٤ / ١٩٧٤ .

(٣) أخرجه البخاري : كتاب (الجهاد والسير) باب " الجهاد بإذن الأبوين " ، حديث رقم (٢٨٤٢) ، ٣ / ١٩٤ ، وأخرجه مسلم : كتاب " البر والصلة " باب : " بر الوالدين وأيهما أحق بهما " ، حديث رقم (٢٥٤٩) ، ٤ / ١٩٧٥ .

المبحث الثامن

المرأة ونصرة الإسلام في السنة النبوية

لقد لعبت المرأة دوراً كبيراً في نصرة الإسلام في مكة عندما كان مضيقاً عليه وتحملت في سبيل الله ما تحمله الرجل على حد سواء، كان ذلك كذلك لأنها وجدت في الإسلام ، ما يروي ظمأها الروحي، فلما ذاقَت حلاوة الإيمان ، وجدت فيه الملاذ الأمين الذي يكفل لها حياة عزيزة في الدنيا ، ويرفع عنها الظلم والامتهان ويهيئ لها سبيل النجاة في الآخرة ، ولذا كانت في مقدمة من آمن برسول الله ﷺ ونصره بل وتميزت واختصت بأمر منها :

(أ) المرأة أول من اعتنق الإسلام.

(ب) المرأة أول من ثبت الرسول

(ج) المرأة أول من استشهد في الإسلام

(أ) المرأة أول من اعتنق الإسلام: لقد كرم الإسلام المرأة فجعل منها

أول قلب يخفق بالإسلام في شخص أم المؤمنين السيدة خديجة - ﷺ - " أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين لم يتقدمها رجل ولا امرأة السيدة خديجة بنت خويلد " (١)

(ب) المرأة أول من ثبت الرسول: لعبت السيدة خديجة - رضي الله عنها -

دوراً كبيراً في دعم النبي ﷺ وشد أزره ، والتخفيف عنه ، فعندما كان يتحنث في غار حراء وجاءه الملك واستعمل نزول الوحي عليه رجع ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة - رضي الله تعالى عنها - فقال : " زملوني زملوني استقبلته وهذأت من روعه ، وقالت بلسان المؤمنة الصادقة ، والزوجة المخلصة : " والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الفقير

وتعين على نوائب الحق " (١)

ولقد اشتد الحزن بالمصطفى ﷺ حينما توفيت خديجة إذ فقد الأنيس والسكن والقلب الكبير والمجير وهي التي حملت عنه أثقاله وشاركته آلامه وآماله ، وقد سبق وفاتها موت أبي طالب فاجتمعت على النبي ﷺ مصيبتان عظيمتان حتى سمي ذلك العام بـ "عام الحزن" ولذا كان الرسول ﷺ وفيأ مخلصاً لها ويكرم كل من كان له صلة بها ، ويكثر من ذكرها بعد وفاتها منوهاً بعظيم قدرها ومزيد فضلها قائلاً: " آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء " (٢)

ج - المرأة أول من استشهد في الإسلام:

لما بدأ كفار قريش بمكة يضيقون على المستضعفين الذين آمنوا برسالة الإسلام نالت المرأة نصيبها من هذا الابتلاء ، وكان في مقدمة من يعذب في الله عز وجل أشد العذاب "سمية أم عمار بن ياسر" التي كانت سابع سبعة في الإسلام حين استشهدت ، وقال ابن الأثير عنها :
" أنها أول شهيد في الإسلام " (٣).

(١) أخرجه البخاري : كتاب " بدء الوحي " ، باب " كيف كان بدء الوحي إلي الرسول ﷺ " وقوله الله جل ذكره ، إن أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده " ، حديث رقم (٢) ، ٤ / ١ .

(٢) أخرجه البخاري بمعناه : كتاب (الفضائل) باب : " تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها - ﷺ " - حديث رقم (٣٦٠٧) ، ٣ / ١٣٨٩ .

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٥٢ .

المبحث التاسع

الإسلام يمنع جميع أنواع العنف ضد المرأة

الرجل في عهد ما قبل الإسلام كان يلجأ إلى ضرب المرأة قاسياً الأمر الذي جعل النبي ﷺ يستنكر هذه العادة ويقاومها من الناحية العملية ، عن طريق الدعوة إلى الإقلاع عنها .

فعن عائشة رضي الله عنها - أنها قالت: " ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادماً ولا ضرب شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله " (١)

وكذلك نهى النبي ﷺ الرجال عن عادة ضرب النساء عندما شكا إليه سبعون امرأة رجالهن . ففي الحديث الشريف قال ﷺ :

" لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها آخر اليوم " (٢) . وقوله ﷺ : " ولا يضرب إلا شراكم " (٣)

(١) أخرجه مسلم : كتاب (الفضائل) باب : " مباحته ﷺ للأنثام واختياره من المباح أسهله

وانتقامه لله ثم انتهاك حرمانه " حديث رقم (٢٣٢٨) ، ٤ / ١٨١٤ .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب (النكاح) باب " ما يكرهه من ضرب النساء ، وقول الله تعالى : "

واضربوهن " حديث رقم (٤٩٠٨) ، ٥ / ١٩٩٧ .

(٣) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء : حديث رقم (٢٨٩) ، وقال رواه بن سعد عن القاسم

بن محمد مرسل (١ / ١٤٩) .

المبحث العاشر

تحديد صلاحيات المرأة المسلمة

يتضح لنا مما سبق أن المرأة المسلمة لا تختلف عن الرجل في شئون الحياة والامتيازات الاجتماعية، حيث لها في كل الأحوال حرية التصرف واستقلال الإدارة ومزولة العمل بشرط حشمتها وعدم الخوف على شرفها ودينها .

والمرأة المتزوجة لم توضع لزوجها ، عليها ولاية إلا في الفرش وأن لا تدخل بيته من يكره وأن لا تخرج من بيته بغير رضاه وهذه الشروط بحقها إذا كان ينفق عليها فيما تحتاج إليه من مسكن وملبس ومأكل ومشرب ودواء وزينة فإذا أخل بنفقتها فلا يجب عليها طاعته وإذا لم يخل بنفقتها فمعناه أنه لا يحوجها للخروج خارج بيتها فإذا خرجت تكون عند ذلك ناشراً لا تستحق عليه النفقة ^(١).

ويستفاد من النصوص الكريمة والسيرة النبوية أن المرأة لا تسلم المواضع الثلاثة :

السلطة والقضاء والجهاد، فهي لا تستطيع أن تتسلم السلطة أو الولاية كما لا تستطيع أن تجلس على منصة الحكم أو القضاء ولا تستطيع أن تتولى قيادة الجهاد، وجعلت شهادتها نصف شهادة الرجل ولم أجد خلافاً بذلك بين أئمة المذاهب الإسلامية الأربعة سوى ما نقل عن أبي حنيفة حيث أجاز ولاية المرأة ^(٢).

وإنما منعت من تولي هذه المواضع الثلاثة لارتباطها بروح التعقل

(١) المرأة والإسلام، أحمد ذكي نقاحة: دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٠، ص ٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧ .

وبعدها عن الجوانب العاطفية فجعلت بيد الرجل لغلبة الجوانب العقلانية فيه ، والمرأة بالعكس تغلب عليها الجوانب العاطفية فمنعت من ذلك . والآية الكريمة تنص على جعل الولاية بيد الرجال دون النساء ، قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(١).

ومن الواضح أن المرأة تتدفع بالعاطفة أكثر من اندفاعها بالعقل والفكر الموضوعي المركز ، وبديهي أن تلك المناصب والمواقف تحتاج إلى الرؤية والعقل والفكر أكثر من العاطفة والهوى ، إذ أنها أمور تمس المصلحة العامة في الصميم .

قال رسول الله ﷺ : " ما أفلح قوم يلي أمرهم امرأة " ^(٢) .

وقال : " إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحائكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها " ^(٣) .

(١) سورة النساء ، آية [٣٤] .

(٢) أخرجه البخاري كتاب (المغازي) باب (كتاب النبي ﷺ على كسرى وقيصر) ٤ / ١٦١٠ رقم (٤١٦٣) .

(٣) أخرجه الترمذي كتاب (الفتن) باب ما جاء في النهي عن سب الرياح) ٤ / ٥٢٩ رقم (٢٢٦٦) . وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح المري وصالح المري في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها وهو رجل صالح .

المبحث الحادي عشر المرأة في الحديث الشريف

هناك الكثير من الأحاديث الشريفة التي تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب (كالأمر والتأكيد والتقرير) وتستخدم أنواعاً من المفاهيم (كالتقوي والخير والتواصي) تنصب علي هدف واحد هو نسخ ما كان عليه حال المرأة في الجاهلية ، وانفتاح عهد جديد أمامها : إنها بداية عهد جديد بداية تاريخ جديد للمرأة المسلمة تغادر فيه عهد الوأد والاضطهاد إلي عهد المشاركة والرحمة ، وتكون هذه الرحمة جزءاً من العقيدة والتقوى والإيمان.

فالحديث استعمل غالباً في صورة الأمر " واتقوا الله " . وقد استعمل الحديث الشريف هذا الاصطلاح بالذات في معرض الحديث عن المرأة فمن ذلك : " اتقوا الله في النساء " اتقوا الله في الضعيفين : اليتيم والنساء ^(١) .

وهناك صيغ أخرى منها : " اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم " ^(٢) . " استوصوا بالنساء خيراً " ^(٣) . " إن الله يوصيكم بالنساء خيراً " ^(٤) . "إني أخرج عليكم حق الضعيفين : المرأة واليتيم " واستخدم الرسول ﷺ في الحديث مصطلح الخير في عدد من الأحاديث والتي منها ما يلي : " خياركم

(١) أخرجه الحاكم (محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري) في المستدرک علي الصحيحين بلفظ (أني أخرج عليكم حق الضعيفين : اليتيم والمرأة) ، ١/١٣١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد باب (في حق المرأة على الزوج) ٤ / ٣٠٢ ، وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا أن يحيى بن جابر لم يسمع من المقدم .

خيركم لأهله ، خيركم خيركم للنساء ، خيركم خيركم لنسائه وبناته".

وفي جوامع الكلم الطيب من سنة النبي محمد ﷺ الكثير والكثير ، فيقول : " النساء شقائق الرجال " (١). وقد دعم الرسول ﷺ شخصية المرأة فجعلها راعية في ميدان ، كما أن الرجل راع في ميدان آخر ، فعن عبد الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته - قال وحسبت أن قد قال - والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " (٢) .

وكما جعل ﷺ للمرأة شخصية في الإنفاق كما جعل الرجل : فعن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت : قال ﷺ : " إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجر بما كسب ، وللخازن مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا " (٣)

وفتح الإسلام الباب على مصراعيه أمام المرأة للتعليم والعمل واختيار الزوج والتفقه حتى في أدق الأمور :

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري : كتاب (الزكاة) باب : (من أمر خادمه بالصدقة ولم يناول بنفسه) (

١٣٥٩) ، ٢ / ٥١٧ .

وأخرجه مسلم : كتاب (الزكاة) باب : (أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت

غير مفسده بإذنه الصريح والعرفي) حديث رقم (١٠٢٤) ، ٢ / ٧١٠ .

فعن أم سلمة رضي الله عنها أن أم سليم قالت : يا رسول الله : إن الله لا يستحي من الحق ، فهل على المرأة الغسل إذا احتلمت ، قال : نعم ، إذا رأت الماء . فضحكت أم سلمة فقالت : تحتلم المرأة ، فقال رسول الله ﷺ "بما يشبه الولد" ^(١) وعن الرسول ﷺ : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " ^(٢)

وهذا مما لم يأت به سوى الإسلام من الديانات والمبادئ الأخرى ، وكان ﷺ لكثرة اهتمامه بالعلم والتعليم يجعل مهر المرأة أن يعلمها المتزوج لها بعض القرآن الكريم . وكان ﷺ يجعل فداء بعض الأسرى أن يعلموا بعض أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

ولو استقرأنا التاريخ الإسلامي لوجدنا مجالات العمل مليئة بأمنلة حية للمرأة المسلمة منذ مستهل الدعوة الإسلامية حتى يومنا هذا ابتداء بالسيدة خديجة — رضى الله عنها — التاجرة زوج الرسول ﷺ وقد أقرها على ذلك الرسول فيما بعد ولم يبد ما يمنع إتجارها بل جاءت النصوص تكرر حقها وملكيته وإطلاق يديها في التصرف في مالها بنتاً أو زوجةً أو أمّاً أو أختاً . وقد أعطى الإسلام للمرأة الحق في اختيار الزوج ، وليس لأحد أن يغصبها حتى ولو كان أحد أبويها ، كما كان لها حق فسخ العقد ، إذا اتضح فيما بعد أنها كرهت عليه أو خدعت فيه ، ولقد فسخ النبي ﷺ زواج خنساء بنت خدام الأنصارية لأن أباهما أكرهها على ذلك ، وقال ﷺ :

" أمروا النساء في أنفسهن ، فإن الثيب تعرب عن نفسها ، وإن البكر

(١) أخرجه البخاري : كتاب (أحاديث الأنبياء) ، باب : (خلق آدم صلوات الله عليه وذريته صلصال طين) ، (٣١٥٠) ، ٣ / ١٢١١ .

(٢) سبق تخريجه .

صمتها " (١)

وهل هناك ما هو أدل علي احترام رأي المرأة في هذا الموطن من حديث أم هانئ بنت أبي طالب وقد خطبها رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لأنت أحب إلي من سمعي وبصري ، وإنني امرأة مؤتمة وبني صغار ، حق الزوج عظيم ، فاخشى إن أقبلت علي زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي ، وإن أقبلت علي ولدي أن يضيع حق زوجي ، فقال رسول الله ﷺ : إن خير نساء ركن الإبل نساء قريش : أحناء علي ولد في صغره وأرعاه علي زوج في ذات يده " (٢) .

وهكذا صرح الإسلام عن رأيه في حق المرأة أن تختار زوجها فلا تقترن إلا بمن ترضي به ، ولئن كان لهذا دلالة في تقدير الإسلام للمرأة كإنسان له حق وواجب .

وكما سوي الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق ، فقد سوي بينها وبين الرجل في الحدود ، فعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت ، فقال ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا ومن يجتري عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ، ثم قام فخطب ثم قال " إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيه الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله ، لو أن

(١) رواه ابن ماجه في سننه : باب " استثمار البكر والسيب " حديث رقم (١٨٧٢) ، ١ / ٦٠٢ ، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ، باب (الاستثمار) وقال: رواه الطبراني في رجاله ثقات ٤ / ٢٧٩ .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب (النفاقات) باب (حفظ المرأة زوجها في ذات يده والنفقة) حديث رقم (٥٠٥٠) ٥ / ٢٠٥٢ .

فاطمة بنت محمد سُرقت لقطعت يدها " (١) .

المرأة والميراث في السنة النبوية :

من يطالع السيرة النبوية المعطرة لرسول الله ﷺ يجد أنه كان أرحم للبنات من أبيها ، نجد ذلك فيما حدث الإمام البخاري عن سعد بن أبي وقاص خال رسول الله ﷺ ، قال سعد : مرضت بمكة مرضاً أشرفت منه علي الموت فأتاني النبي ﷺ يعودني فقلت يا رسول الله : إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي ، أفأصدق بثلاثي مالي؟ قال : لا ، قلت : فالشطر؟ قال : لا ، قلت : فالثلث؟ قال الثلث كثير ، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفون الناس وإنك لا تنفق نفقة إلا أجرت عليها حتي اللقمة ترفعها إلى (في) امرأتك " (٢) . ما أجمل ولا أروع من هذا التشريع العادل الذي يحفظ علي الإنسان كرامته ويكرم آدميته . إن البنت وهي في ظل أبيها تعيش عزيزة الجانب موفورة الكرامة ، لذلك حرص الإسلام علي ألا تحرم من مال أبيها لتستطيع أن تستغني به عن ذل المسألة ولتستعين به علي متطلبات الحياة ، إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب (المغازي) باب (من شهد الفتح) ٤ / ١٥٦٦ رقم (٤٠٥٣).

وأخرجه مسلم : كتاب (الحدود) باب (قطع يد السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود) رقم (١٦٨٨) ، ٣ / ١٣١٥ .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب (الفرائض) باب : (ميراث البنات) ٦ / ٣٤٧٦ رقم (٦٣٥٢) .

(٣) سورة الحج ، آية [٦٥] .

الفصل الثالث

حقوق المرأة في الإسلام

مقدمة :

حينما انبثق نور الإسلام في الجزيرة العربية أخرج الناس جميعاً من الظلمات إلى النور. ونقل المرأة من حالة القهر و النفي والوآء إلى حالة الوجود والإنصاف والمشاركة ، وحفلت سور القرآن وأحاديث النبي ﷺ بنصوص قاطعة في الدلالة على تكريم المرأة وتقدير حقوقها المناظرة لحقوق الرجل .

وقد حقق الإسلام للمرأة نقلة نوعية إنسانية واجتماعية ونفسية واقتصادية وحضارية غير مسبوقة بل أيضاً غير ملحوقة. فإن كل النظم السياسية والاجتماعية والوضعية عبر العصور لم تكرم المرأة بقدر ما أكرمها الإسلام.

لقد عنى القرآن الكريم بشئون المرأة في الكثير من سوره ،حتى عرفت إحدى السور بـ (سورة النساء الكبرى) وعرفت أخرى (بسورة النساء الصغرى) وهما :

سورة النساء (الرابعة في ترتيب المصحف) ، وسورة الطلاق (الخامسة والستون في ترتيب المصحف) - ومن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نرى أن الإسلام عزز مكانة المرأة في الأسرة والمجتمع ومنع جميع أنواع التمييز ضدها .

وقد حفظ لها حقوقها في التعليم وحسن التربية والميراث ، وحق التصرف بأموالها وتجارها ، وحفظ لها حق الملكية الفردية ، كما أن لها حق التوظيف والعمل والتصرف بميزانيتها ،دون أن تجبر على الإنفاق منها

الإطوائية.

وأعطى الإسلام حريتها في اختيار الزوج أو رفضه ،ثم ضمن لها حقها في حال حدوث الطلاق من النفقة وحضانة القاصر ،إلى الوصاية في غياب الزوج، إلى العصمة إن طلبتها ،إلى الخلع إن اضطرت إليه.

كذلك أقر الإسلام للمرأة حق المشاركة في الحياة العامة سواء في المجالات المتعلقة بالرقابة أو مجالات العمل العام المتعلقة بالتشاور والتحاور وصنع القرار مع وضع الضوابط الشخصية والموضوعية لممارسة المرأة للعمل العام مما ترجم في العصر الحديث بحق المرأة المسلمة في المشاركة السياسية .

وسنسرّد فيما يلي وباختصار أهم الحقوق التي منحها الإسلام بالتساوي مع الرجل والحقوق التي أوجد فيها تفرقاً بين المرأة والرجل ،والشبهات حول المرأة المسلمة والرد عليها، وذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول

المساواة بين المرأة والرجل في الأصل والخلق والتكوين

تتضح الدقة في بيان هذه الحقيقة العلمية في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ

* ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا

الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فْتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١﴾

والإنسان هنا المقصود به المرأة والرجل على حد سواء والنطفة هنا هي بويضة المرأة بعد إتمام إخصابها بالحيوان المنوي من الرجل. والعلقة هي الطور الثاني في خلق الإنسان بعد النطفة رجلاً كان أم امرأة، وهي الخلية القابلة للانقسام بطريقة المتوالية الهندسية في علم الرياضيات

حيث تبدأ عدد الخلايا من 2^0 يتضاعف إلى 2^4 ويظل يتضاعف إلى 2^8 ، 2^{16} ، 2^{32} ، 2^{64} . وهكذا. وقد سميت علقة لأنها تبدأ نموها في الرحم بالتعلق بجداره وإيجاد مكان لها بما آتاه الله من قدرة اختراقية عجيبة ... فهي تمد لنفسها أذرعاً دقيقة داخل جدار الرحم للتثبيت. وتستمر العلقة في النمو بعد الأسبوع الثالث حتى تصبح مضغة عمرها ثمانية أسابيع، وقد تكونت لها دورة دموية يصل الدم من الأم إليها عن طريق مشيمة بدائية وتتكون الأجهزة الرئيسية والأعضاء مثل: العين والأذن والأنف والفم والذراعين والقدمين (كبراعم صغيرة) .

ومن هذا المدخل يبدأ المخ في التكوين والتشكيل مع نخاع الشوكي والفقرات الظهرية. كل هذا يتم في تكوين الجنين سواء أكان ذكراً أم أنثى .

المبحث الثاني

المساواة بين الرجل والمرأة في الحق في الحياة

لقد جاء الإسلام بعد عصور الجاهلية والظلمات ليعزز مكانة المرأة وكان أول ما بدأ به تحریم وأد البنات، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾^(١) كما حذرهم من سخطهم من وجود البنات ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُتٍ أَمْرِ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾^(٢)

المبحث الثالث

المساواة بين المرأة والرجل في القيمة الإنسانية

إن الشريعة الإسلامية تسجل منذ أربعة عشر قرناً القضاء التام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾^(٣)

وقوله تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

(١) سورة التكويد ، آيات [٨ - ٩]

(٢) سورة النحل ، آيات [٥٨ - ٥٩]

(٣) سورة الأعراف ، آيات [١٨٩]

تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

وكلمة زوج الواردة في الآيات السابقة عظيمة الدلالة على معنى المساواة بين الرجل والمرأة

، فكلمة زوج في اللغة العربية تعنى شيئان يطابق كل منهما الآخر ، تمام المطابقة ويصنعان معاً شيئاً واحداً . هذا معناه تساوي الرجل والمرأة في الأصل والخلق والتكوين وإنهما شطران لنفس واحدة لا تقوم إلا بهما .

المبحث الرابع

حق المرأة في إطار الأسرة

الزواج في الإسلام هو بناء الأسرة . والأسرة هي اللبنة الأولى في البناء الاجتماعي كله ، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع . وإذا فسدت فسد المجتمع . وهو الصيغة الوحيدة المقبولة في الإسلام للتناسل وبقاء النوع . وهو آية من آيات الله لقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٢﴾

وقد رتب الإسلام للمرأة حقوقاً داخل الأسرة نوجزها فيما يلي:

الحق الأول: حق اختيار الحياة أو الموافقة على من يختاره الولي:

قد أعطى الإسلام الحق للمرأة في اختيار الزوج الكفء ورفض غير الكفء لها ، وليس لأحد أن يغضبها عليه حتى ولو كان أحد أبويها ، ويكون

(١) سورة النساء ، آيات [١]

(٢) سورة النساء ، آيات [١]

العقد غير صحيح فيما لو أكرهت عليه.

ولقد روي عن النبي ﷺ فسخ زواج خنساء بن خذام الأنصاري لأن أباهما أكرهها على ذلك^(١).

وروت السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال: " لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، والبكر حتى تستأذن " فقالت السيدة عائشة : " يا رسول الله ، البكر تستحي ، قال : رضاها صمتها " ^(٢).

وإذا كان هذا حكم الإسلام ، فقد تبوأَت المرأة المسلمة المكانة المرموقة ، وقد كانت في الجاهلية تعامل كالرقيق

الحق الثاني : الصداق والمهر :

قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ ^(٣)

وقال تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ ^(٤)

(١) أخرجه البخاري : كتاب النكاح ، باب : " إذا زوج ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود " ، حديث رقم (٤٨٤٥) ، ٥ / ١٩٧٤ .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب النكاح ، باب : " لا ينكح الأب وغيره البكر والسيب إلا برضاها " حديث رقم (٤٨٤٣) ، (٤٨٤٤) ، ٥ / ١٩٧٤ .

(٣) سورة النساء ، آية [٤] .

(٤) سورة النساء ، آية [٢٤] .

والمهر خالص حقها تتصرف فيه بالإمضاء أو بالإسقاط كيف شاءت
إذا ملكت أمر رشدتها، وإذا كان بعض العلماء قد حدد أقل المهر بثلاثة
دراهم فقد اتفقوا على أنه ليس له من ناحية الكثرة حد أو مقدار، لأن الله
يقول: ﴿وَأَتَيْنَهُنَّ إِحْدَثُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (١)

وتلك ميزة للمرأة المسلمة، تتضح قيمتها إذا علمنا أن الشعوب غير
المسلمة تفرض على المرأة أن تدفع المهر للرجل، فترى البنات العذارى
مضطرة إلى الكد والكدح لأجل أن تجمع مالا تقدمه لمن يقترن بها.

الحق الثالث : المعاشرة بالمعروف:

لقد جعل الإسلام المودة والرحمة أساس العلاقة الزوجية، فقال تعالى:
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

وأمر سبحانه وتعالى بحسن المعاشرة، فقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٣)

وحياة زوجية مبنية على المحبة والمعاشرة بالمعروف المتبادلة بين
الزوجين تتمثل فيه السعادة والهناء.

الحق الرابع : حق الأم في حضانة أولادها :

وقد أكد الإسلام حق الأم في رعاية أولادها وقدمه على حق الرجل

(١) سورة النساء ، آية [٢٠] .

(٢) سورة الزوم ، آية (٢١) .

(٣) سورة النساء، آية (١٩)

لأنها أقدر منه على ذلك وأرأف بأبنائها. وقد تقدم قول الرسول ﷺ وما فيه من تأكيد صفات الرحمة عند الأمهات.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ وقالت له :

" يا رسول الله ابني هذا كان بطني له وعاء وحجري له حواء وثديي له سقاء ، وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني " فقال لها رسول الله ﷺ : " أنت أحق به ما لم تنكحي " (١) .

ولما شجر الخلاف بين سيدنا عمر بن الخطاب ؓ وبين زوجته جميلة بشأن حضانة ابنه عاصم ورفع الأمر إلى سيدنا أبي بكر الصديق ؓ ف قضى ببقاء الولد مع أمه ، وقال لعمر : " ربحها ومسها ومسحها وربقها خير له من الشهد عندك يا عمر " .

الحق الخامس : حقها في المخالعة عند الاقتضاء:

وقد أعطت الشريعة الإسلامية المرأة الحق في اللجوء للقضاء ليفرق بينها وبين زوجها في الحالات التي لا تستقيم فيها أمور الزوجية ، كالتفريق بسبب العيوب والأمراض التي يحصل بها مقصود الزواج عن الإنفاق . أو لامتناعه عن الإنفاق . وقد يكون التفريق للشقاق والضرر بين الزوجين .

وإذا كان الطلاق بإرادة من جانب الزوج، فلا يصح له أن يأخذ شيئاً من المهر الذي أعطاه لها ، هذا إلى جانب واجبات مالية أخرى تلزمه .

على أنه قد تكون إرادة الطلاق من جانب المرأة لظروف تجعلها لا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب (الطلاق) ٢ / ٢٢٥ حديث رقم (٢٨٣٠) وقالک هذا حديث صحيح الإسناد ولم یخرجاه.

تطبيق الحياة معه .

ولكي يسهل الأمر ويكون هناك عدل فإنه يجوز لها أن تفندي نفسها بأن ترد إلى الزوج المهر الذي أعطاه لها . وهذا طريق عملي ، بحسب مقاييس الحياة الدنيا .

وبذلك تتخلص المرأة من حياة لا تحملها من زوج لا ترضاه وهذا ما يسمى " بالخلع " . وقد بين الله سبحانه وتعالى في آية واحدة أحكام الطلاق والمخالعة بقوله : ﴿ أَلْطَلِّقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِوفٍ أَوْ تَسْرِحْ بِإِحْسَنِ وَلَا حِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١)

وهذا ما طبقه النبي ﷺ حين جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله .

ثابت بن قيس " زوجها " ما اعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام . فقال رسول الله تعالى ﷺ : " أتردين عليه حقيقته ، قالت : نعم ، قال رسول الله ﷺ " اقبل الحديقة وطلقها تطليقة " (٢)

(١) سورة البقرة ، آية [٢٢٩] .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب (الطلاق) باب (الخلع وكيف الإطلاق فيه) ٥ / ٢٠٢١ رقم

المبحث الخامس

حق المرأة في التعليم والحفاظ على التراث العلمي

لقد فرض الإسلام طلب العلم على المسلمة كما فرض على المسلم ،
فقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قوله : " طلب العلم فريضة
على كل مسلم ومسلمة " (١)

وهذا لم يأت به سوى الإسلام من الديانات الأخرى . ومن هذا
المنطلق أقبلت المرأة على طلب العلم وغشيان مجالس رسول الله ﷺ
وزاحمت الرجال فيه ، وبلغ حرص النساء على طلب العلم أن طلبن من
النبي أن يخصص لهن وقتاً .

فعن أبي سعيد الخدري قال : " جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت :
ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله
، فقال : اجتمعن يوم كذا وكذا فاجتمعن فاتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه
الله " (٢)

وقد حرص الإسلام على العلم للإنسان رجل أم امرأة، فإن أول آية
أنزلت في القرآن الكريم كانت إنبأقة فجر للنور والرحمة بقدر ما هي
انطلاقة للعقل وسعي وراء العلم في شتى مجالاته ، فقال تعالى : ﴿ أَقْرَأْ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان : حديث رقم (١٦٦٣) ، ٢ / ٢٥٣ . وقال فيه هذا
الحديث شبه شهور واسناده ضعيف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ ،
تحقيق : محمد السيد بسبوني .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب " العلم " باب : " تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما
علمه الله ليس برأي ولا تمثيل " حديث رقم (٦٨٨٠) ، ٦ / ٢٦٦٦ .

وأخرجه مسلم : باب : " فضل من يموت له ولد فيحسبه " حديث رقم (٢٦٣٢) ، ٤ / ٢٠٢٨ .

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾

وقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ ﴾ (٢).

وقد دعا القرآن الكريم إلى الزاد الثقافي فكانت أول آيات نزل على رسول
الله ﷺ هي الخمس الأول من سورة العلق ، ولهذا نجد القرآن الكريم بعد أن وجه
إلى قراءة كتاب الله تبارك وتعالى مع حسن تدبره لأنه كتاب الله المسطور
الجامع للثقافة بجميع ألوانها، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى
قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٣) وجه النظر إلى قراءة الكتاب المنظور وهو الكون من
حولنا أرضه وسماؤه بحاره ومحيطاته ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)

والسنة النبوية المطهرة تحت الإنسان (ذكراً أم أنثى) بأن يجتهد في
طلب العلم والمعرفة بجميع أشكالها وألوانها فقد ورد عنه — ﷺ — فيما
معناه : " ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة " (٥)

(١) سورة العلق ، آيات [١ - ٥] .

(٢) سورة الرحمن ، آيات [١ - ٤] .

(٣) سورة محمد ، آية ٢٤

(٤) سورة يونس ، آية [١٠١]

(٥) أخرجه مسلم كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)

وبمطالعة كتاب الله نجد أنه يؤكد على حقيقة هامة وهي معرفة لغة الآخرين وحالهم حتى يكون هناك حوار مفتوح ومستمر بين الإنسان وأخيه الإنسان ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) وفي الوقت نفسه نجد أن الله تبارك وتعالى طلب من نبيه محمد ﷺ أن يكون مبتغاه من حياته طلب العلم وليس المال أو الجاه ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٢)

ولقد كان للمرأة فضل كبير في الحفاظ على تراث الأمة العلمي من كتاب وسنة فلولاً روايات أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابييات الجليلات ما نقلت إلينا سنة رسول الله ﷺ حتى أصبحت الأمة الإسلامية وكأنها تعيش مع رسول الله ﷺ وتراه رأي العين من دقة ما تناقله الحفاظ من أقواله وأفعاله و تقريراته .

وعن أبي هريرة ؓ قال: " أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم " (٣)

وإذا كانت المرأة في عصرنا قد طرقت أبواب مختلف العلوم الدينية والكونية والتنقيفية فلا ضرر في هذا مادام أن ذلك لا يتنافى مع طبيعتهم الأنثوية ويفيد منه المجتمع وهذا شيء لا ياباه الدين.

(١) سورة إبراهيم ، آية [٤] .

(٢) سورة طه ، آية [١١٤] .

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع شيرويه بن شهردارين شيرويه الديلمي الهمداني /١

٣٥٤ رقم (١٤٢١) ، تحقيق : السعيد بن بسيوني زغلول ، ط. الأولى ١٩٨٦ م . دار

الكتب العلمية - بيروت.

المبحث السادس حق المرأة في العمل

حق المرأة في العمل:

لقد منح الإسلام المرأة حق العمل والإرادة وحق التملك والتصرف بما تملك من دون موافقة زوجها .

والإسلام جعل حرية عمل المرأة كحرية عمل الرجل أي تعمل دون أن يمنعها ذلك من تأدية حق الأسرة عليها. قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۗ ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۗ ﴾ (٢).

وإذا كان الإسلام قد سوى بين الرجل والمرأة في مجال العمل إلا أنه رفع عن المرأة وجوب الإنفاق من مالها على بيتها ونفسها ولها أن تحتفظ بأموالها وإن كان التعاون هو طبيعة الحياة الزوجية في الإسلام، لكن هذه المشاركة وهذا التعاون من الناحية المالية هو اختياري يحثها عليه الإسلام ولا يوجبه .

فهذه السيدة خديجة - رضي الله عنها - التاجرة المعروفة زوج النبي ﷺ وقد أقرها على ذلك الرسول ﷺ فيما بعد ولم يبدي ما يمنع اتجارها بل

(١) سورة آل عمران ، آية (١٩٥) .

(٢) سورة النساء ، آية (٣٢) .

جاءت النصوص تكرر حقها وملكيّتها وإطلاق يديها في التصرف في مالها بنتاً وزوجاً وأختاً وأماً.

وهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق تباشر العمل في أرض زوجها الزبير بن العوام وتقول : " فكنت أعلف فرسه واستسقي الماء ... وكنت أنقل النوى من أرض الزبير على رأسي ، وهي مني على ثلثي فرسخ ... فلقبت رسول الله ﷺ يوماً ومعه نفر من الأنصار ، فدعاني ليحملني خلفه ، فاستحييت إن أسير مع الرجال " (١).

وهذه الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس اشتغلت بتعليم القراءة والكتابة وكانت معلمة حفصة بنت عمر بن الخطاب وتميزت بالحكمة ورجاحة العقل حتى أن عمر بن الخطاب عندما أصبح خليفة ولاها ولاية الحسبة أي وزارة التجارة والأسواق والأوزان والمعاملات (٢).

المبحث السابع

حق المرأة في استقلال الذمة المالية

منح الإسلام المرأة الأهلية المستقلة وحرية الذمة المالية قبل كل الحضارات والأديان الأخرى وكفل لها عقود المدينيات من بيع وشراء ومباشرة عقود التصرفات بجميع أنواعها والتصرف في أموالها وممتلكاتها ولها مطلق الحرية في إدارة أملاكها دون أي تدخل من أي رجل سواء كان أباً أو أخاً أو زوجاً أو ابناً إلا بإذنها ورضاها.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ٢/ ٢٩١، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوس، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط. التاسعة ، ١٤١٣هـ...

(٢) انظر: تهذيب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ١٢/ ٤٥٧ رقم (٢٨٢٤) طبعة دار الفكر - بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

كما أعطاهما القرآن الحق في أن تفدي نفسها بالمال وتتخلص بمالها من أذى الزوج أو سوء معاشرته لها مثلما جاءت في الآية الكريمة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾^(١).

المبحث الثامن

حق المرأة في الاحتفاظ باسمها بعد الزواج

منح الإسلام المرأة الحق في الاحتفاظ باسمها بعد الزواج أي باسم عائلتها دون تبعية لزوجها ، حتى لا تفقد شخصيتها وهويتها وحقوقها . حتى لو كان هذا الرجل رسول الله ﷺ . فالتاريخ الإسلامي يذكر لنا النساء بأسمائهن وليس بأسماء أزواجهن والأمثلة على ذلك :

هذه خديجة بنت خويلد، وهذه عائشة بنت أبي بكر ، وهذه حفصة بنت عمر بن الخطاب ، لم يذكرهن أحد باسم زوجهن الرسول ﷺ . والاحتفاظ بالاسم إنما هو أكبر دليل على مساواة الإسلام للمرأة بالرجل فهي كائن مستقل مثلها مثل الرجل ، وليس مثل المرأة الأوربية والأمريكية التي كانت حتى سنوات قليلة تفقد هويتها بعد الزواج ويتمحى اسمها واسم عائلتها وتأخذ اسم زوجها وعائلته .

المبحث التاسع

حق المرأة في المشاركة السياسية

لم تعرف المرأة المسلمة القهر إلا في عصور انحسار الحضارة الإسلامية وضعف الأمة واستبداد الحكام وظلم السلاطين الذي شمل الرجال والنساء على حد سواء. وخلق تراثاً ثقافياً منحازاً للرجل على حساب

(١) سورة البقرة ، آية (٢٢٩) .

المرأة، وعندما بدأت رياح التغيير تهب على المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث. نالت المرأة المسلمة الكثير من الحقوق والحريات. ووصلت إلى أعلى الوظائف والمناصب بما فيها رئاسة الوزراء بل ورئاسة الدولة مروراً بالوظائف العامة العلمية والفنية والإدارية والمختلفة. وإذا كانت بعض المجتمعات المسلمة ما تزال مترددة فيما يتعلق بالمشاركة العامة للمرأة وخاصة المشاركة السياسية فمن المؤكد أن النظم الحاكمة فيها سوف تضطر لمنح المرأة حقوقها^(١).

والأصل في المشاركة العامة للمرأة هو الآية القرآنية الكريمة : قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وقال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

وجدير بالذكر أن هذه الصيغة التي كان النبي ﷺ يأخذ بها البيعة من

(١) تكريم الإسلام للمرأة ، سعاد إبراهيم صالح: المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعنوان : " إنسانية الحضارة الإسلامية " ، والمحمور الرابع : " نظرة الإسلام إلى المرأة " ، (١٧ - ٢٠ أبريل ٢٠٠٥م - القاهرة) ، ص ١٥ .

(٢) سورة التوبة ، آية (٧١) .

(٣) سورة الممتحنة ، آية (١٢) .

الرجال أيضاً. كذلك كانت المرأة في صدر الإسلام تشارك وتحضر مجالس الحاكم وتراجعها في قراراته.

وهناك آيات قرآنية أخرى تجمع المرأة والرجل في العمل الصالح وفي الثواب عليه.

أما الأحاديث النبوية فهي متعددة نذكر منها الحديث التالي:

عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنه . والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم. ألا وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " (١).

وهذا المبدأ يستند عليه المدافعون عن المشاركة العامة للمرأة.

أما المعارضون لمشاركة المرأة فيحتجون ببعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة مثل : قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَبَعًا فَمَنَّوهُنَّ مِن وَّرَآءِ

حِجَابٍ﴾ (٣).

ووصف النبي ﷺ النساء بأنهن: ناقصات عقل ودين حيث قال:

(١) سبق تخريجه .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيات (٣١ ، ٣٢) .

(٣) سورة الأحزاب ، آية (٥٣) .

" يا معشر النساء تصدقن فإنني رأيتكن أكثر أهل النار فقلن: وبما يارسول الله : قال: تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ما رأيت من نقصان عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن " (١).

وقوله ﷺ : " لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة " (٢). وقد قيل في ابنة كسرى ملك الفرس.

والواقع أن القرآن الكريم لا يوجد به نص قاطع يمنع المرأة من المشاركة السياسية وخاصة رئاسة الدولة . بل إنه تحدث عن المرأة التي حكمت دولة ونجحت في إدارتها وكان لها عرش عظيم. يقول الله تعالى على لسان هدهد سليمان : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣).

وهذه المرأة هي بلقيس ملكة سبأ. ويقول تعالى في شأنها وقد تلقت رسالة سليمان : ﴿ قَالَتْ يَتْيَأُهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَتْيَأُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤).

(١) أخرجه البخاري كتاب (الحيض) باب (ترك الحائض الصوم) ١/ ١١٦ رقم (٢٩٨) ، ومسلم كتاب (الإيمان) باب (بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات) ١/ ٨٦ رقم (٧٩).

(٢) سبق تخريجه .

(٣) قرآن كريم: سورة النمل، آية (٢٣) .

(٤) سورة النمل: آيات (٣٢ - ٣٤) .

واختلف الفقهاء القدامى في حكم تولي المرأة رئاسة الدولة بين مؤيد ومعارض . فقد اختلف الفقهاء المعاصرون في الأمر . وتبدو الأدلة التي يستند إليها المؤيدون لتولي المرأة المناصب السياسية العامة بما فيها رئاسة الدولة أقوى من أدلة المعارضين ، كما أن الواقع المشاهد يشير إلى أن ثمة نساء قد تولين أعلى المناصب السياسية في بعض البلدان الإسلامية ونجحن نجاحاً ملحوظاً^(١).

المبحث العاشر

حق المرأة المسلمة في تولي المناصب القضائية

وإن اختلف الآراء بالنسبة لتولية المرأة القضاء إلا أن هذا الاختلاف لا يوجب منع المرأة من تولي القضاء والأمثلة على ذلك : أبو حنيفة يرى جواز أن تكون المرأة قاضياً في الأحوال المالية، ويقول الطبري: يجوز أن تكون المرأة حاكماً على الإطلاق في كل شيء. وقد ورد قول الرسول ﷺ : " والمرأة راعية على مال زوجها وهي مسئولة عن رعيته ، متفق عليه^(٢).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾^(٣).

وهذا الأمر من الله سبحانه وتعالى متوجه بعمومه إلى المرأة والرجل، والإسلام يساوي بين المرأة والرجل إلا حين يجيء النص بالفرق بين الرجل والمرأة.

(١) تكريم الإسلام للمرأة ، سعاد إبراهيم صالح: ص ١٦ .

(٢) المرأة في الإسلام ، تيسير مندور: بعنوان " إنسانية الحضارة الإسلامية " ، المحور

الرابع : نظرة الإسلام إلى المرأة ، ص ٦ .

(٣) سورة النساء ، آية (٥٨) .

المبحث الحادي عشر

الحقوق غير المتساوية بين المرأة والرجل

لقد سبق الإسلام الشرائع والقوانين كلها إلى تحرير المرأة وإقرار حقوقها بعد أن كان الرجل يعاملها معاملة السلع والحيوانات، حتى في أوربا وأميركا إلى عهد قريب، وإذا ميز الإسلام الرجل عن المرأة بأشياء فإن هذا التمييز تفرضه الفروق الطبيعية بينهما ، أو مصلحة الجماعة ، وليس من العقل والعدل المساواة في كل شيء. وهذه التفرقة لا تتعارض مع المساواة بينهما في الإنسانية والكرامة والأهلية ، بعد أن قررها الإسلام للمرأة على قدم المساواة مع الرجل ، ومن هذه الأمور : الشهادة ، الميراث ، تعدد الزوجات ، القوامة ، الإمامة ، الدية.

أولاً: الاختلاف بين الرجل والمرأة في الشهادة:

قبل الحديث عن قضية ميراث المرأة هناك حقائق لابد أن تكون مستقرة في عقل وقلب كل مسلم والتي عبر عنها القرآن الكريم ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُ رُبُّكَ أَحَدًا ﴾ ^(١). وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ ^(٢). وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣). وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يُظْلِمَ هَمًّا ﴾ ^(٤). وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ^(٥). وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ^(٦). وقوله

(١) سورة الكهف ، آية (٤٩) .

(٢) سورة الإسراء ، آية (٧١) .

(٣) سورة الحج ، آية (١٠) .

(٤) سورة العنكبوت، آية (٤٠) .

(٥) سورة النساء ، آية (٤٠) .

(٦) سورة النساء آية (١٢٤) .

تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ^(١).

فكل هذه الآيات وغيرها كثيرة تؤكد على حقيقة مهمة يجب أن تكون راسخة في عقيدة كل مسلم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ وهي أن عدل الله مطلق وليس في شرعه ظلم لبشر أو لأي أحد من خلقه ، والله لا يوزن حكمه بموازين البشر بل المقياس الإلهي هو الذي ينبغي أن تقاس به أفعال العباد.

فالقُرآن الكريم قرر أن شهادة الرجل معادلة لشهادة امرأتين وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ ^(٢).

ومن الأمور الهامة التي يجب أن تكون حاضرة في ذهن المسلم الواعي أن مساحة الاجتهاد في فقه المواريث خاصة ضيقة ، وأحكام المواريث في أغلبها ليست إلا تطبيقاً لنصوص الشارع الحكيم ، فالذي قسم تلك الأنصبة هو الله سبحانه وتعالى ، وعندما استقرأ العلماء هذه التقسيمات زاد يقينهم بالله وسبحوا ربهم على حكمة التشريع الرباني ^(٣)، ومن ثم قالوا: صدق ربنا حينما قال: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي آلِكَتَبٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(٤).

(١) سورة التوبة، آية (٧٠) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٢٨٢).

(٣) المرأة بين إنصاف الإسلام وشبهات الآخر ، على جمعة محمد : المؤتمر العام السابع عشر

للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعنوان " إنسانية الحضارة الإسلامية " المحور الرابع، "

نظرة الإسلام للمرأة " مرجع سابق ، ص ١١-١٢.

(٤) سورة الأنعام ، آية (٣٨) .

ثانياً : الاختلاف بين الرجل والمرأة في الميراث :

تقرر مبدأ ميراث المرأة في الإسلام بقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (١).

فكان العرب في الجاهلية لا يورثون النساء وكانوا يقولون في ذلك لا يرثنا إلا من يحمل السيف، وإذا مات الرجل ورثه ابنه ، فإن لم يكن فأقرب من وجد من أوليائه أباً أو أخاً أو عمّاً - وظل الحال على ذلك حتى أشرقت شمس الإسلام على جزيرة العرب وجاء الرسول ﷺ بالشرعية السمحة فأُنقذ المرأة من شقوقها ورفعها من هودتها وجعل لها نصيباً مما ترك الرجال، وهذا ما عبر عنها الآية القرآنية الكريمة السابق ذكرها.

ويختلف نصيب المرأة من الميراث بحسب قرابتها من المتوفى ، وبحسب من يكون معها من قرابته .

أما قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (٢). فيضع قاعدة عامة للميراث.

وهذه القاعدة العامة تشمل أغلب أحوال الميراث وليس كلها فهناك ثلاث صور للميراث:

الصورة الأولى: أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين على النحو الذي أوضحته الآية الكريمة تفصيلاً .

الصورة الثانية : أن يتساوى نصيب الأنثى مع نصيب الذكر على

(١) سورة النساء ، آية (٧) .

(٢) سورة النساء ، آية (١١) .

لنحو ما ورد في الآية الكريمة أيضاً .

الصورة الثالثة : أن يتجاوز نصيب الأنثى نصيب الذكر في بعض الحالات ، ومن ذلك إذا توفي شخص وترك ابنه وأخت شقيقة وأخاً لأب . فإن الابنة يكون لها النصف، ويكون للأخت الشقيقة النصف ويحجب الأخ من الأب بواسطة الأخت الشقيقة. وثم حالات أخرى كثيرة يتجاوز نصيب المرأة فيها نصيب الرجل.

ثالثاً : تعدد الزوجات :

قضية تعدد الزوجات لا تكفي الأهلية القانونية للمرأة حيث أجاز لها التشريع الإسلامي أن تشترط على زوجها في عقد الزواج ألا يتزوج عليها. والتعدد بدأ يتراجع في عصرنا الحالي حيث أصبحت الحياة في المجتمعات الحديثة معقدة وباهظة التكاليف ولم يعد باستطاعة معظم الرجال الزواج بأكثر من واحدة. وتؤكد الإحصائيات في جميع الدول الإسلامية أن نسبة التعدد لا تتعدى نسبة ١% وهي نسبة ضئيلة جداً ، فالتعدد جاء ذكره في آيتين كريمتين كتصريح للرجل بأن يتزوج بأكثر من واحدة على ألا يزيد عدد الزوجات عن أربعة ولكن هذا التصريح استثنائي مشروط بالعدل بين الزوجات وليس قاعدة إجبارية تلزم الرجل بالزواج من أكثر من واحدة^(١).

فالزوجة الواحدة هي القاعدة والتعدد هو الاستثناء استناداً إلى الآية الكريمة التالية : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ۖ ﴾^(٢).

وليس بوسع أي إنسان مسلم أن ينكر التعدد ولكن الظروف

(١) الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وآثارها على المجتمع ، فوزية العشماوي: ص ١٣.

(٢) سورة النساء ، آية (٣).

الاجتماعية الحالية في العالم العربي والإسلامي جعلته ظاهرة في طريقها إلى الزوال.

رابعاً : قوامة الرجل على المرأة .

إن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق إلا أمراً واحداً عبر عنه قوله تعالى : ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ دَرَجَةٌ﴾ ^(١).

ومن ذلك يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء ذلك أن هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ ^(٢).

والآية الكريمة بدأت بالتأكيد على أن " الرجال قوامون على النساء " والقوامة هنا درجة من سلم القيادة أو إدارة الأسرة فالرجل هو رئيس الأسرة وتقع عليه مسئولية هذه الأسرة وله الكلمة العليا والمرأة هي مدير عام الأسرة.

وإن قوامة الرجل على المرأة لا تسلبها الحق في الأهلية القانونية للمرأة ولا في استقلالية الذمة المالية ولا تعطي للرجل الحق في أن يتدخل في إدارة ممتلكاتها وأموالها.

(١) سورة البقرة (٢٢٨) .

(٢) سورة النساء ، (٣٤) .

خامساً : دية المرأة .

إن دية المرأة نصف دية الرجل . وإذا قتلت امرأة رجلاً قتلت به بلا شرط، وإذا قتل رجل امرأة فلا يقتل بها إلا بعد أن يدفع وليها نصف الدية لورثة القاتل.

وجعلت الشريعة دية المرأة التي قتلت خطأ أو التي لم يستوجب قاتلها عقوبة القصاص لعدم استيفاء شروطه بما يعادل نصف دية الرجل . وقد يبدو هذا غريباً بعد أن قرر الإسلام مساواتها بالرجل في الإنسانية والأهلية . غير أن الأمر لا علاقة له بهذه المبادئ، وإنما هو ذو علاقة وثيقة بالضرر الذي ينشأ للأسرة عن مقتل كل من الرجل والمرأة . فإن القتل العمد يوجب القصاص من القاتل، سواء أكان المقتول رجلاً أم امرأة وسواء كان القاتل رجلاً أم امرأة . وهذا لا ينافي القصاص نريد أن نفتص من إنسان لإنسان . والرجل والمرأة متساويان في الإنسانية^(١).

أما في القتل الخطأ وما أشبه فالأمر يتعلق بالتعويض المالي والعقوبة بالسجن أو نحوه . والتعويض المالي تراعى فيه الخسارة المالية قلة وكثرة . وليست خسارة الأسرة بالمرأة كخسارتها بالرجال . فإن الأولاد الذين قتل أبوهم خطأ والزوجة التي قتل زوجها خطأ إنما يفقدون عائلهم الذي كان يقوم بالإنفاق عليهم والسعي في سبيل إعاشتهم . أما الأولاد الذين قتلت أمهم خطأ، والزوج الذي قتلت زوجته خطأ فهم إنما يفقدون ناحية معنوية لا يمكن أن يكون المال تعويضاً عنها . وإن الدية ليست تقديراً لقيمة الإنسانية في القتل، وإنما هي تقدير لقيمة الخسارة المادية التي تلحق أسرته بفقده^(٢).

(١) تكريم الأسرة للمرأة ، سعاد إبراهيم صالح : ص ١١ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١ .

الفصل الرابع الشبهات حول المرأة المسلمة والرد عليها

مقدمة:

فيما يلي رد الشبهات المزعومة من الآخر، عندما عجز عن هدم ذلك التشريع من أصوله فذهب يلقي شبهه على فرع هنا وفرع هناك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١).

وأن هناك العديد من الشبهات التي تروج ضد المرأة في الإسلام والتي منها:

(١) أنها كم مهمل ولا قيمة لها وليس لها أي دور اجتماعي

(٢) ترث نصف الرجل

(٣) شهادتها بنصف شهادة الرجل

(٤) تعدد الزوجات

(٥) بعض الأحكام القاسية

(١) أنها كم مهمل ولا قيمة لها وليس لها أي دور اجتماعي:

الرد على هذه الشبهة يسير حيث نبدأ بالدور السياسي للمرأة في الإسلام، على موقف السيدة أم سلمة زوجة الرسول ﷺ لهو خير شاهد على ذلك، ما قامت به السيدة أم سلمة - رضي الله عنها - يوم الحديبية. والمسلمون كباراً وصغاراً، كانوا تأثرين في يوم الحديبية، استفزتهم بشدة طريقة المفاوضات التي استخدمها سهيل بن عمرو مع الرسول ﷺ ابتداء

(١) سورة غافر، آية (٢٥).

من رفض "البسمة" على الطريقة الإسلامية، ورفض أن يكتب محمد صفته، ثم رفض دخول المسلمين الكعبة في عامهم الذي أتوا فيه، وتأجيل ذلك إلى عام مقبل، بالإضافة إلى الشرط المجحف، والذي يعبر عن عدم المساواة في الالتزامات، وهو الخاص برد محمد من يأتيه من غير إذن وليه، وعدم التزام قريش بالرد بالمثل، ويحيى أبو جندل بن سهيل بن عمرو أثناء توقيع العهد يرسف في أغلاله، وينادي المسلمين أن يخلصوه من الأغلال ويأخذوه معهم، ولا يستطيع الرسول ﷺ أن يفعل سوى مواساة "أبو جندل" وأن يرده إلى أبيه، لأنه وقع مع القوم صلحاً^(١)، وعندما عقد الرسول ﷺ الصلح مع قريش أمر المسلمين أن يحلوا إحرامهم وأن يذبحوا الهدي إيذاناً بالعودة دون تأدية "العمره" ويدخل الرسول ﷺ إلى زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - في خيمتها حزناً ويقول: "هلك الناس هلك الناس" يعصون أمر نبيهم، قالت أم سلمة - رضي الله عنها - أعذرهم يا رسول الله فقد جاعوا على أمل دخول المسجد الحرام مقصرين، ثم منعوا وهم قريب منه بعد أن تحملوا صعب السفر ومشقة الانتقال من المدينة إليه فهم لذلك مكروبون، والرأي أن تخرج فتتحرك وتحلق فإذا رأوك فعلت تبعوك، فانشرح صدر النبي ﷺ بمشورة أم سلمة، ويفعل الرسول، فعلم المسلمون أن الأمر جد لا هزل فيه، وفعلوا ما فعل النبي ﷺ وانتهت الفتنة بفضل مشورة امرأة برأي سديد^(٢).

* كان للمرأة دور سياسي بارز في حياة المسلمين ولم تكن أبداً كما

(١) الشخصية القانونية للمرأة، جعفر عبد السلام: المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بعنوان "إنسانية الحضارة الإسلامية"، المحور الرابع، "ونظرة الإسلام للمرأة"، مرجع سابق، ص ١٢.

(٢) أخرجه البخاري بمعناه: كتاب (الشروط) باب (الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب) (٢٥٨١)، ٢/٩٧٤.

مهملاً كما يدعون، بل كانت تشارك في السياسة وفي التجارة، وفي الحروب وفي كافة شئون الحياة.

وكان للمرأة دور اجتماعي هام في المجتمع، فمن ذلك أن عمر بن الخطاب عندما دعا في خلافته إلى عدم المغالاة في المهور، وانكر على الرجال إسرافهم في أمهار النساء وحظر عليهم أن يزيدوا المهر عن ٤٠٠ درهم اعترضته امرأة وعارضته بقولها: وماذا تقول في قول القرآن: ﴿وَأَتَيْتُمُ إحْدَنَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾^(١) فلم يسع عمر إلا أن يصدع بحجة المرأة من أن القرآن قد تحدث عن المهر بأوسع الصور، فاعترف بخطئه وقال قولته المشهورة: "امرأة أصابت وأخطأ عمر". ثم بادر باعتلاء المنبر وأعلن رجوعه فيما أصدره من قرار خاص بالمهور.

وكان إقامة المنبر في المسجد من اقتراح امرأة مسلمة فقد روى عن: "جابر أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع فقالت له امرأة: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً قال: إن شئت، فعملت المنبر"^(٢).

وحسبنا أن نشير إلى اسم السيدة زبيدة التي لا تزال آثار إصلاحها وتعميرها في الحجاز حتى اليوم، حيث تجري الحياة باسمها وعلى ذكراها، ولم يكن ذلك إلا بعض أعمالها في مختلف أنحاء الدول. غير أننا لا نستطيع أن ندع هذا الموطن دون أن نذكر أعظم شهيرات الإسلام على الإطلاق في العصور الوسطى الإسلامية وأعني بهما الخيزران وشجرة الدر حيث لعبا دور كبيراً في سياسة الدولة الإسلامية، وإن شجرة الدر المرأة هي التي

(١) سورة النساء، آية (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب (المساجد) باب (الاستعانة بالنجار والصناع في أعواد المنبر والمسجد)، ١٧٢/٤٣٨، ١.

استطاعت بحكمتها أن تهئ السبيل للجيش المصري ليضرب الصليبيين عند المنصورة لذا أعجب من هذه الهجمة الشرسة على الإسلام والتي تتخذ المرأة وقودًا لها، وللأسف تستجيب المرأة والحكومات لها، وينعقد كل يوم مؤتمر للمرأة، وتوسع لها الصفوف في المناصب والأعمال، وتقدم على الرجل حتى في المجالات التي ربما لا تصلح لها، أو يصلح لها من هو أكثر منها- كمناصب الولايات الكبرى- وكأننا اكتشفنا إنسانا بينما لم نكن نعرفه من قبل، ولم نكن نوليه كثيرًا من هذه الأعمال. وأن من يقلب الصفحات الماضية للمرأة المسلمة سيجد فيها صورًا للعظيمة الروحية والعناية بالقيم المعنوية التي يرمز إليها تعليم المرأة في عصر الحضارة الإسلامية فللنساء المسلمات ماض مجيد تستطيع المرأة المسلمة اليوم أن تفخر به وتبني فوقه لنفسها مجدًا علميًا ومجدًا روحياً.

(٢) المرأة المسلمة ترث نصف الرجل:

الشبهة التي يروج لها الغرب- الآخر- هي: "أن الإسلام ظلم المرأة حيث جعل نصيبها في الميراث نصف الرجل". والحقيقة أن الإسلام لم يفرق في الموارد بين نصيب الرجل والمرأة في حالات معدودة فحسب، بل أن اختلاف الأنصبة في توزيع الموارد ليس الأصل فيه اختلاف النوع من ذكر وأنثى وإنما تختلف الأنصبة طبعًا لثلاثة معايير^(١):

الأول: درجة القرابة بين الوارث والمورث: ذكرًا كان أو أنثى، فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب في الميراث، وكلما ابتعدت الصلة قل النصيب في الميراث دونما اعتبار لجنس الوارثين.

(١) المرأة بين أنصاف الإسلام وشبهات الآخر، علي جمعة محمد: ص ١٢.

الثاني: موقع الجيل الوارث: فالأجيال التي تستقبل الحياة، وتستعد لتحمل أعبائها، عادة يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأجيال التي تستدبر الحياة وتتخفف من أعبائها، بل وتصبح أعباؤها - عادة - مفروضة على غيرها، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات.

الثالث: العبء المالي: وهذا هو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتاً بين الذكر والأنثى، لكنه تفاوت لا يفضي إلى أي ظلم للأنثى أو انتقاص من إنصافها، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

ففي حالة ما إذا اتفق وتساوى الوارثون في العاملين الأولين (درجة القرابة وموقع الجيل) - مثل أولاد المتوفى، ذكوراً وإناثاً - يكون تفاوت العبء المالي هو السبب في التفاوت في أنصبة الميراث، ولذلك لم يعمم القرآن الكريم هذا التفاوت بين الذكر والأنثى في عموم الوارثين، وإنما حصره في هذه الحالة بالذات، والحكمة في هذا التفاوت، في هذه الحالة بالذات، هي أن الذكر هنا مكلف بإعالة أنثى - هي زوجة - مع أولادها، بينما الأنثى الوارثة - أخت الذكر - إعالتها مع أولادها فريضة على الذكر المقترن بها.

فهي - مع هذا النقص في ميراثها بالنسبة لأخيها، الذي ورث ضعف ميراثها، أكثر حظاً وامتياز منه في الميراث، فميراثها - مع إعفائها من الإنفاق الواجب - هو ذمة مالية خالصة ومدخرة، لجبر الاستضعاف الأنثوي، ولتأمين حياتها ضد المخاطر والتقلبات وتلك حكمة إلهية قد تخفي على الكثيرين^(١). ومن أعباء الرجل المالية نذكر منها:

(١) المرجع السابق: ص ١٣.

(أ) الرجل عليه أعباء مالية في بداية حياته الزوجية وارتباطه بزوجته، فيدفع المهر، يقول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ لِحُلَّةٍ﴾^(١).

(ب) الرجل بعد الزواج ينفق على المرأة وإن كانت تمتلك من الأموال ما لا يمتلكه هو، لأن الإسلام ميزها وحفظ مالها، ولم يوجب عليها أن تنفق منه.

(ج) الرجل مكلف كذلك بالأقرباء وغيرهم ممن تجب عليه نفقته حيث يقوم بالأعباء العائلية والالتزامات الاجتماعية التي يقوم بها المورث باعتباره جزءاً منه.

هذه الأسباب وغيرها تجعلنا ننظر إلى المال أو الثروة نظرة أكثر موضوعية، وهي أن الثروة والمال مفهوم أعم من مفهوم الدخل، فالدخل هو المال الوارد إلى الثروة، وليس هو نفس الثروة، حيث تمثل الثروة المقدار المتبقي من الواردات والنفقات^(٢).

ومما سبق نجد أن الإسلام أعطى المرأة نصف الرجل في الدخل الوارد، وكفل لها الاحتفاظ بهذا الدخل دون أن ينقص سوى من حق الله كالزكاة، أما الرجل فأعطاه الله الدخل الأكبر وطلب منه أن ينفق على زوجته وأبنائه ووالديه إن كبرا في السن، ومن تلزمه نفقته من قريب وخادم وما استحدث في عصرنا هذا من الإيجارات والفواتير المختلفة، مما يجعلنا نجزم أن الله فضل المرأة على الرجل في الثروة حيث كفل لها حفظ مالها ولم يطالبها بأي شكل من أشكال النفقات.

وعندما تختلف قضية العبء المالي كما هي الحال في شأن توريث

(١) سورة النساء، آية (٤).

(٢) علي جمعة محمد: مرجع سابق، ص ١٣.

الإخوة والأخوات لأم، نجد أن الشرع الحكيم قد سوى بين نصيب الذكر والأنثى منهم في الميراث، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِيلَةً أَوْ أَمْرَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ (١).

فالتسوية هنا بين الذكور والإناث في الميراث، لأن أصل توريثهم هنا الرحم، وليسو عصبية لمورثهم حتى يكون الرجل امتدادا له من دون المرأة، فليست هناك مسؤوليات ولا أعباء تقع على كاهله بهذا الاعتبار.

(٣) شهادتها بنصف شهادة الرجل:

وفيما يتعلق بقضية الشهادة الشبهة الثالثة التي يرددها الآخرون، محاولة منهم لاتهم التشريع الإسلامي بانتقاص المرأة وبظلمة لها، حيث يرددون أن الإسلام ظلم المرأة بأن جعل شهادتها نصف شهادة الرجل.

فعلينا أن نعلم أن الشهادة تكليف ومسئولية، وعندما يخفف الله عن المرأة في الشهادة فهذا إكرام لها، وليس العكس، وأن الشروط التي تراعى في الشهادة عائدة إلى أمرين:

الأول: عدالة الشاهد وضبطه

الثاني: أن تكون بين الشاهد والواقعة التي يشهد بها، صلة تجعله مؤهلا للدراية بها والشهادة فيها (٢).

ومن الحقائق التي يجب أن نعلمها في قضية الشهادة ما يلي:

١- شهادة المرأة وحدها تقبل في هلال رمضان شأنها شأن الرجل:

(١) سورة النساء، آية (١٢).

(٢) علي جمعة محمد: مرجع سابق، ص ٢٠.

ففي الحديث الشريف أنه قال ﷺ: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته"^(١). وهذا يشمل الذكر والأنثى معًا.

٢- تستوي شهادة المرأة بشهادة الرجل في الملاعنة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٨﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٩﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٠﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢).

٣- الشريعة الإسلامية قبلت المرأة وحدها في الأمور الخاصة بالنساء والتي هي:

- أ- الولادة
- ب- الاستهلال
- ج- الرضاع
- د- العيوب التي تحت الثوب: كالرتق، والقرن، والبكارة، والثيبوبه، والبرص
- هـ- انقضاء العدة.

٤- تقبل شهادة المرأة الواحدة: قال ابن قدامة: "وكل موضع تقبل فيه شهادة النساء المنفردات فإنه تقبل فيه شهادة المرأة الواحدة". وجاء في الحديث: "سأل عقبة بن الحارث النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فقالت: إنها أرضعتنا؟ فأمره بفراق امرأته. فقال: إنها كاذبة.

(١) أخرجه مسلم: كتاب (الصيام) باب (وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والافطر لرؤية الهلال)، ١٠٨١، ٢/٦٦٢.

(٢) سورة النور، آيات (٦-٩).

فقال النبي ﷺ: "دعها عنك" (١).

وعلق الشوكاني على هذا فقال: "وقد استدل بالحديث على قبول شهادة المرضعة ووجوب العمل بها وحدها" (٢).

والشريعة الإسلامية اتجهت إلى تعزيز الشهادة في القضايا المالية - المعاملات المالية بين الناس - بصورة مطلقة بشهادة رجل آخر، إلى جانب الرجل الأول، حتى لا تكون الشهادة عرضة للاتهام، ولم يعتبر أحد تنصيف شهادة الرجل هنا وتعزيزها بشهادة رجل آخر ماساً بكرامته ما دام ذلك التعزيز أضمن لحقوق الناس. وزيادة على ذلك فإن شهادة الرجل لم تقبل وحده حتى في أنفه القضايا المالية.

غير أن المرأة قد امتازت على الرجل في سماع شهادتها وحدها، دون الرجل فيما هو أخطر من الشهادة على الأمور التافهة، وذلك كما هو معلوم في الشهادة على الولادة وما يلحقها من نسب وارث، بينما تقبل شهادة الرجل وحده في أنفه القضايا المالية، وفي هذا رد بليغ على من يتهم الإسلام بتمييز الرجل على المرأة في الشهادة.

بعد هذه الحقائق نجد أن مصدر الشبهة التي حسب مثيروها أن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة، بجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب (الشهادات) باب (شهادة المرضعة)، حديث رقم (٤٨١٦)،

١٩٦٣/٥.

(٢) نيل الأوطار لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني: ١٣٥/٧، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

فَتَذَكَّرَ أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى) ^(١). وهذا خلط بين الشهادة والاشهاد، وهو خلاف ما دلت عليه الآية الكريمة وذلك لأن الشهادة لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معياراً لصدقها أو كذبها وإنما معيارها تحقق واطمئنان القاضي لصدق الشهادة. أما الآية الكريمة تحدثت عن أمر آخر غير الشهادة وهو الاشهاد الذي يقوم به صاحب الدين للاستيثاق من الحفاظ على دينه.

(٤) تعدد الزوجات:

يجب علينا أن نعلم أن الإسلام جاء بالحد من تعدد الزوجات، ولم يأت بتعدد الزوجات كما يظن البعض الآخر، فعن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي ثم أسلم وتحتة عشرة نسوة فقال النبي ﷺ: "اختر منهن أربعاً" ^(٢).

ومن هذا الحديث يظهر لنا أن الإسلام نص على الحد من كثرة عدد الزوجات، وفي المقابل لم يرد أمر لمن تزوج واحدة بأن يتزوج أخرى، وذلك لأن تعدد الزوجات ليس مقصوداً لذاته وإنما تزوج الرجل مرة أخرى يكون لأسباب ومصالح عامة.

فلم يرد تعدد الزوجات في القرآن الكريم بمعزل عن أسبابه، قال

(١) سورة البقرة، آية (٢٨٢).

(٢) رواه أحمد في المسند، حديث رقم (٤٦٠٩)، ١٣/٢. وأخرجه ابن ماجة في سننه: باب (الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة)، حديث رقم (١٩٥٢) ١٢/٦٣٨، وأخرجه ابن حبان في صحيحه باب (نكاح الكفار) ٩/٤٦٣ رقم (٤١٥٦)، وأخرجه الترمذي كتاب (النكاح) باب (ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر نسوة) ٢/٤٣٥ حديث رقم (١١٢٨) قال أبو عيسى: هكذا رواه معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: هذا محفوظ، والصحيح ما روى شعيب بن أبي حمزة وغيره عن الزهري وحزمة قال: حدثت عن محمد بن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة أسلم وعنده عشر نسوة.

تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَىٰ وَتِلْكَ وَرُبِعٌ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (١).

فالذين فسروا الآية الكريمة يفسرونها بمعزل عن السبب الرئيسي الذي نزلت لأجله، وهو اليتامى والأرامل، إذ أن التعدد ورد مقرونا باليتامى، حيث قاموا بانتزاع قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ دون القول السابق والذي صيغ بأسلوب الشرط: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ وكذلك دون القول اللاحق والذي يقيد تلك الإباحة بالعدل حيث قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ﴾.

وعليه فمن ذهب إلى القرآن الكريم لا يجد دعوة مفتوحة صريحة للتعدد دون تلك القيود التي أشرنا إليها، ومن ذهب إلى السنة فسيجد الإسلام نهى عن التعدد أكثر من أربع نساء، وشتان بين أن يكون الإسلام أمر بالتعدد حتى أربع نساء وبين أن يكون نهى عن الجمع بين أكثر من أربع نساء.

كما أشار سبحانه وتعالى إلى صعوبة العدل بين النساء فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (٢).

وأن نظام تعدد الزوجات كان شائعاً قبل الإسلام بين العرب، وكذلك بين اليهود والفرس، والتاريخ يحدثنا عن الملوك والولاطين بأنهم كانوا يبنون بيوتا كبيرة تسع أحيانا لأكثر من ١٠٠٠ شخص، لسكن نسائهم

(١) سورة النساء، آية (٣).

(٢) سورة النساء، آية (١٢٩).

الجواري، وفي بعض الأحيان يقومون بتقديمهن كهدايا إلى ملوك آخرين،
ويأتون بنساء جديدات.

مما سبق نلاحظ - نستنتج - أن الشبهة قد زالت، وتبين أن الزواج
بأكثر من واحدة في الإسلام هو في الحقيقة تكريم للمرأة، لأن الإنسان لا بد
أن تكون نظرته متكاملة فالنظر للمرأة التي يتزوج الرجل عليها وحدها ليس
إنصافاً، فإن الذي سوف يتزوجها الرجل هي امرأة كذلك وكرمها الشرع
بأن سمح للرجل أن يتزوج منها لعلاج ما يعانيه المجتمع من مشكلات
اجتماعية واقتصادية.

(٥) بعض الأحكام القاسية " كلام للرسول ﷺ قد يساء فهمه":

أولاً: يروى عن الرسول ﷺ قوله: "إن النساء ناقصات عقل ودين وأنهن يذهبن بلب الرجل الحازم"^(١).

فقد يتبادر إلى ذهن البعض أن هذا تشهير بالنساء أو رمي لهن بنقص فطري. وحاشا رسول الله ﷺ أن يشهر بأحد. فهو قد سئل عن معنى كلامه، فشرح مراده، وهو أن المرأة معفاه من بعض العبادات في أوقات معينة. ومن المعلوم أن الممارسة والمزاولة لها تأثير في تكوين الملكة. وبوجه عام يكون من هو أقل ممارسة للشيء أقل ملكة فيه.

لكن الإسلام كلف المرأة في العبادات والمعاملات بما كُلف به الرجل، وكثير من النساء في الإسلام بلغن درجات عالية في الدين والعلم وكل مظاهر الكمال الخلقي والروحي. فالمرأة المسلمة أسهمت في الحفاظ على تراث الأمة العلمي، ونقله ونشره بين المسلمين. فلقد أجمعت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أشات العلوم وشتى الفنون حتى أضحت موسوعة العلم والمعرفة، (عن عروة عن أبيه قال: ما رأيت أحدا من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة - رضي الله عنها)^(٢) هذه المرأة العظيمة كانت مرجعا لكبار الصحابة، يسألونها عما أشكل عليهم من السنة، ويستفتونها في الدين، لما حباها الله من علم ومعرفة ورجاحة عقل، ودقة فهم، روى بن الجوزي: "عن أبي موسى

(١) سبق تخريجه .

(٢) صفوة الصفوة: لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج الجوزي: باب "ذكر غزارة

علمها رضي الله عنها"، ح-٢، ص ٣٢، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

تحقيق: محمود فاخوري.

الأشعري قال: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسالنا عائشة عنه إلا وجدنا عندها منه علما. وعن مسروق قال: "تحلف بالله لقد رأينا الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون عائشة عن الفرائض" (١).

ولما استمر القتل وكثر في حفاظ القرآن في معركة اليمامة اقترح عمر على أبي بكر على جمع القرآن ولكن الصديق تخرج من الإقدام على أمر لم يفعله الرسول ﷺ حتى شرح الله صدره وكلف زيدا بتتبع القرآن وجمعه فنتبع زيد القرآن وجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال وآل حفظ مصحف أبي بكر هذا بعد وفاة الصديق وعمر إلى أم المؤمنين حفصة "فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر في حياته ثم عند حفصة بنت عمر". وهكذا أودعت أعظم أمانة في الوجود وأثنى شيء يحرص عليه المسلمون عند امرأة صادقة مخلصة، وفي ذلك من الدلالات ما لا يحصى، من تكريم المرأة ورفع أهليتها، وكيف أنها أدت الأمانة وصانت هذا التراث الإسلامي العظيم.

ثانياً: يروى عن الرسول ﷺ قوله: "إن المرأة كالضلع، إذا ذهب تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها وفيها أعوج" (٢).

وقوله ﷺ: "استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وأن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهب تقيمه كسرتة، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً" (٣).

لا يوجد في الحديث الشريف أن المرأة خلقت من ضلع آدم، كما في

(١) صفوة الصفوة لابن الجوزي: ح ٢، ص ٣٢.

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

العهد القديم. وأغلب الظن أن في كلام الرسول ﷺ كناية، وأن مقصوده هو أن المرأة لها طبيعة صلبة ثابتة تقتضيها طبيعة وظيفتها، وهذا دليل على كمال لها في مرتبتها ووظيفتها. ولا يمكن أن يكون كلام الرسول ﷺ تشهيراً بالمرأة، لأنه يقدر فضائل النساء، وهو في أول الحديث وفي آخره يقول: استوصوا بالنساء.

ثالثاً: يروى عن الرسول ﷺ إشارة إلى كيد النساء. وفي القرآن أيضاً (سورة يوسف) إشارة إلى أن كيد النساء عظيم.

وقد يميل البعض إلى استغلال هذا الكلام للتشنيع على المرأة، لكن القرآن الكريم جاء فيه أيضاً أن أخوة يوسف كادوا له كيدا. وإن الرجال حاربوا الله. وكادوا للأنبياء أكثر مما فعل النساء.

رابعاً: وفي الحديث أيضاً: "إن أكثر أهل النار من النساء"^(١). ولما سئل الرسول ﷺ عن ذلك قال: لأنهن يكثرن اللعن ويكفرن العشير. فزيادة العدد ليس من النساء لمجرد أنهن نساء، وإنما جاءت الزيادة من فئة النساء اللاتي لا يقدرن ما يبذله الرجل الشريف المكافح المخلص الذي لا يألو جهداً في توفير أسباب الراحة للزوجة والأبناء.. وهذا موجود في حياة بعض الأسر. والنقص الإنساني شيء طبيعي. ويبقى السؤال: كم من الرجال يقدر نعمة الله عليه بالمرأة ويتحمل منها بقدر ما تهية له من راحة الحياة؟

إذاً للإنسان عدواً واحد هو الشيطان. أما عداوة الإنسان للإنسان فهي غير طبيعية. ولذلك فإنه مع أشد العداوة والخصام لا يزال في قلب الإنسان رقة لأخيه الإنسان.

خامساً: الادعاء بأن الإسلام لا يبيح للمرأة تولي مناصب عليا في

الدولة:

(١) سبق تخريجه .

الإسلام لا يمنع المرأة من تولي مناصب هامة في الدولة ما دامت مؤهلة لذلك. فلا يتضمن القرآن الكريم آية واحدة تحرم ذلك. بل إنه أشار إلى ملكة سبأ، التي كانت تتولى أعلى مناصب في الدولة. وبالنسبة للحديث الذي روى عن الرسول ﷺ "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"^(١).

فإن له مناسبة خاصة. فعندما بلغ الرسول ﷺ أن الفرس ملكوا عليهم "بنت كسرى" قال هذا الحديث. ويبدو بوضوح أنه قيل في إطار تقوية الروح المعنوية للمسلمين، وكان يقصد به أناسا يعينهم. ومن الثابت أن عمر بن الخطاب ؓ أعطى ولاية الحسبة - الإشراف على السوق التجاري في المدينة - للشفاء بنت عبد الله المخزومية. ومن المعروف أن هذه الوظيفة من الوظائف الدينية والمدنية التي تتطلب الخبرة والصرافة.

وإذا كانت بعض المجتمعات الإسلامية تعامل المرأة بصورة أخرى، فإن هذا يرجع إلى الأعراف والتقاليد السائدة في تلك المجتمعات، وليس إلى تعاليم الإسلام. ومع التطور الذي بدأ يظهر في البلاد الإسلامية، أصبحنا نرى المرأة تتولى رئاسة مجلس الوزراء كما في باكستان وبنجلاديش وتركيا، وهي تتولى منذ فترة طويلة منصب الوزيرة والسفيرة كما هو الحال في مصر.

سادساً: الادعاء بأن العقوبات الإسلامية (مثل قطع يد السارق، ورجم الزاني والزانية، وجلد الزاني والزانية) عيفة ووحشية للغاية: من المعروف أن العقوبات إنما توضع للخارجين على نظام المجتمع.

(١) سبق تخريجه .

ونظام المجتمع الإسلامي يكفل لأفراده المحافظة على الحقوق الأساسية التالية: (الدين، النفس، المال، العرض، العقل) - ومن ثم فإن الاعتداء على أي منها في فرد واحد يعتبر اعتداء على المجتمع كله، وتهديدًا لأمنه واستقراره. يقول تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

وعلى الرغم من أن العقوبات الإسلامية قد تبدو في بعض الحالات قاسية إلا أنها لا تطبق بسرعة، أو لمجرد الشبهة وإنما هي محكومة بعدد من الإجراءات الدقيقة التي ينبغي توافرها، قيل إدانة المجرم، مما يجعل تحقيقها قليلًا، إن لم يكن نادرًا. ويمكن القول بأنها وضعت للردع والتحذير وتخويف المسلمين من أن هناك جرائم لا يرضى عنها الله تعالى، الذي هو أرحم الراحمين بخلقه^(٢). وقد كان لتحديد هذه العقوبات بهذه الصورة أثر بالغ في تكوين ضمير جماعي لدى المسلمين عبر العصور وفي كل المجتمعات تقريبًا. وهذا الضمير جعلهم يمتنعون عن ارتكاب الجرائم من منطلق ديني أكثر من خوفهم من تشريع مدني.

مما سبق وبنظرة سريعة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ومن تربي بهديهما، يتبين أن الإسلام منح المرأة حقوقًا عديدة والتي منها:

- تكريم الإنسان من حيث هو إنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٣).

- حق المساواة بين البشر جميعًا دون تفرقة بين جنس ولون ووضع

(١) سورة المائدة، آية (٣٢).

(٢) الإسلام بين الحقيقة والادعاء، محمد شفيق وآخرون: "رد على أهم الافتراءات المثارة ضد الإسلام"، الشركة المتحدة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٨٧.

(٣) سورة الإسراء، آية (٧٠).

اجتماعي: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(١).

- حقوق متساوية وغير متساوية بين الرجل والمرأة.

ومع ذلك، فمن غير الإنصاف أن تحكم وثيقة حقوق الإنسان التي لم يتوصل إليها البشر إلا في النصف الثاني من القرن العشرين على الإسلام كدين متكامل أنزله الله تعالى لهداية البشر جميعا في كل زمان ومكان. والله أعلم.

الخاتمة

المرأة في الثقافات المختلفة قبل الإسلام أهينت كرامتها ، وسحقت شخصيتها وسلبت إرادتها ، وغلبت على أمرها فلم تملك حق التصرف في أي شيء حتى في نفسها.

أما في الإسلام ، فالمرأة قد لاقت كل الإنصاف والاحترام ، والمكانة ، والإجلال وعوملت بالعدل كما يعامل الإنسان الحر الكريم ومن مظاهر تكريمه لها ما يأتي:

(١) سوى الإسلام بين المرأة والرجل في أصل الخلقة، وجعلهما من نفس واحدة، خلقها الله بقدرته وأبدعها بحكمته .

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١].

(٢) حرم الإسلام ما كان يجري في الجاهلية من العادات القبيحة من وأد البنات ولم ير له مبرر حتى ولو كان سبب ذلك الغلو في العفة والفضيلة.

(٣) منع من التشاؤم في مجيء البنات فندد بفعلهم وازدري بمقالتهم فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ

يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

(٤) لم يقف عند تحريم الوأد والمنع من التشاؤم بالأنثى ، ولكنه امتد إلى التوصية خيراً بالنساء والأهل، ولعل سبب ذلك هو الرغبة في أن

يمحو من الأذهان ما تركز فيها من ظلم المرأة ، والحث على إعلاء شأنها والاستئناس بها.

(٥) الإسلام وضع المرأة في مكانها اللائق بها فاعتبرها جزءاً مكملًا للمجتمع ومقوماً له وأن المجتمع يتقوم بالرجل والمرأة.

(٦) الإسلام كلف المرأة كما كلف الرجل بالتكاليف الشرعية والأعمال الدينية التي هي منشأ الأخلاق بين الأفراد.

(٧) الإسلام منح المرأة حرية العمل والإرادة وحق التملك والتصرف بما تملك من دون موافقة زوجها.

(٨) لقد فرض الإسلام طلب العلم على المسلمة كما فرضه على المسلم.

(٩) الإسلام ورث المرأة وجعل لها حقاً أن ترث بعد أن كانت لا ترث وإذا كان حق المرأة أقل من حق الرجل ، فقد استدرك في ناحية أخرى حيث وضعت نفقة المرأة على عاتق الرجل من مصاريف المعيشة.

(١٠) الشهادة تكليف ومسئولية وحينما يخفف الله عن المرأة في الشهادة فهذا إكرام لها وليس العكس.

(١١) المرأة لا تختلف عن الرجل في شئون الحياة والامتيازات الاجتماعية حيث لها في كل الأحوال حرية التصرف واستقلال الإدارة ، ومحاولة العمل بشرط حشمتها وعدم الخوف على شرفها ودينها.

(١٢) الأخطاء التي شاعت عن الإسلام في أنه ظلم المرأة ، أو أعطاهـا نصف الرجل في الميراث ، أو جعلها نصف الرجل في الشهادة ، أو أباح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ، أو أنها كم مهمل ولا قيمة لها، أو أنها ناقصة عن الرجل ، كلها ادعاءات كاذبة وظالمة، حيث

إن من أشاعها لا يبتغون الإسلام ديناً ولم يدركوا مراميه ومقاصده،
فإن العيب والأخطاء ليست فيمن شرع ولا ما شرع، ولكن في أن لا
يستوعب ذلك فهماً للنصوص ومعرفة لأهداف التشريع ومراميه
ومقاصده ، فمن طلب الحق وجده.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه

د/ هناء عبد المحسن محمود

المصادر والمراجع حسب ورودها في البحث

- ❖ القرآن الكريم جل شأنه.
- ❖ مكانة المرأة في الإسلام لفوزي الزفزاف، مجلة الأزهر، سنة ٧٧، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م - القاهرة.
- ❖ حضارة العرب، لغوستاف لوبون، تعريب: عادل زعيتر، ط. ٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ❖ المرأة المصرية بين الماضي والحاضر لأحمد طه محمد، مطبعة دار التأليف ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ❖ المرأة في القرآن لعباس محمود العقاد، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- ❖ الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة للبهى الخولي، دار القلم - الكويت ط. ٤، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ❖ عظمة الإسلام لمحمد عطية الإبراشي.
- ❖ محاضرات في تاريخ التربية ونظام التعليم في مصر لمحمد العدوي وآخرون، كلية التربية، جامعة الرقازيق، ١٩٨٨م.
- ❖ الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وآثارها على المجتمع، لفوزية العثماوي، المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المحور الرابع: "نظر الإسلام إلى المرأة" المنعقد بالقاهرة في الفترة من ٨ - ١١ ربيع الأول ١٤٢٦هـ - إبريل ٢٠٠٥م.
- ❖ عمل المرأة وموقف الإسلام منه لعبد الرب نواب الدين - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ، ط. ٢.
- ❖ تطور الفكر التربوي لسعد محمد مرسى، عالم الكتب - القاهرة، ١٩٨٤م، ط. ٧ .

- ❖ المرأة بين إنصاف الإسلام وشبهات الآخر لعلي جمعة محمد.
- ❖ تكريم الإسلام للمرأة، المرأة بين رؤيتين ، لإبراهيم أبو محمد، المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٧ - ٢٠ إبريل ٢٠٠٥م) المنعقد بالقاهرة - المحور الرابع، نظرة الإسلام للمرأة.
- ❖ المرأة والإسلام ، لأحمد ذكي تفاع، دار الكتاب اللبناني - بيروت - لبنان ١٩٩٠م.
- ❖ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر - بيروت، ط. الأولى - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، طبعة: إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٩٦٦م.
- ❖ صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني، طبعة دار الصابوني، ط. الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ❖ تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، مكتبة دار التراث ، القاهرة.
- ❖ سنن ابن ماجه ، ط. دار الفكر - بيروت.
- ❖ مصباح الزجاجة لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني، دار العربية - بيروت، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، ط ٢ .
- ❖ سنن الترمذي ، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ❖ صحيح مسلم، طبعة : دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ❖ صحيح البخاري، دار ابن كثير ، اليمامة، بيروت، ط. الثالثة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، تحقيق: مصطفى ديب البغا.
- ❖ المستدرک علی الصحیحین للحاکم ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ❖ التمهيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ، تحقيق :

مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري، طبعة :
وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية - المغرب.

❖ عون المعبود في شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم أبادي
أبي الطيب - دار الكتب العلمية - بيروت - ط. الثانية ١٤١٥هـ.

❖ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي ، دار الريان للتراث ، دار
الكتاب العربي - بيروت - القاهرة ، ١٤٠٧هـ .

❖ نظرة الإسلام إلى المرأة لبشير عبد الباري، المؤتمر العام السابع
عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المنعقد بالقاهرة في الفترة
من (١٧ - ٢٠ إبريل ٢٠٠٥م) المجلد الرابع.

❖ في ظلال القرآن لسيد قطب ، طبعة - دار الشروق، الطبعة الواحدة
والثلاثون ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

❖ شعب الإيمان للبيهقي طبعة : دار الكتب العلمية - بيروت - ط.
الأولى - ١٤١٠هـ.

❖ صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة -
بيروت ط. ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

❖ سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر
العربي - بيروت.

❖ المرأة والإسلام لأحمد زكي تفاع - دار الكتاب اللبناني، بيروت ،
١٩٩٠م.

❖ سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق :
شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوس، مؤسسة الرسالة - بيروت
، ط. التاسعة ، ١٤١٣هـ.

❖ تهذيب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة : دار
الفكر - بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

